2

سلسلة

# مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

## ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: 56].

## كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟

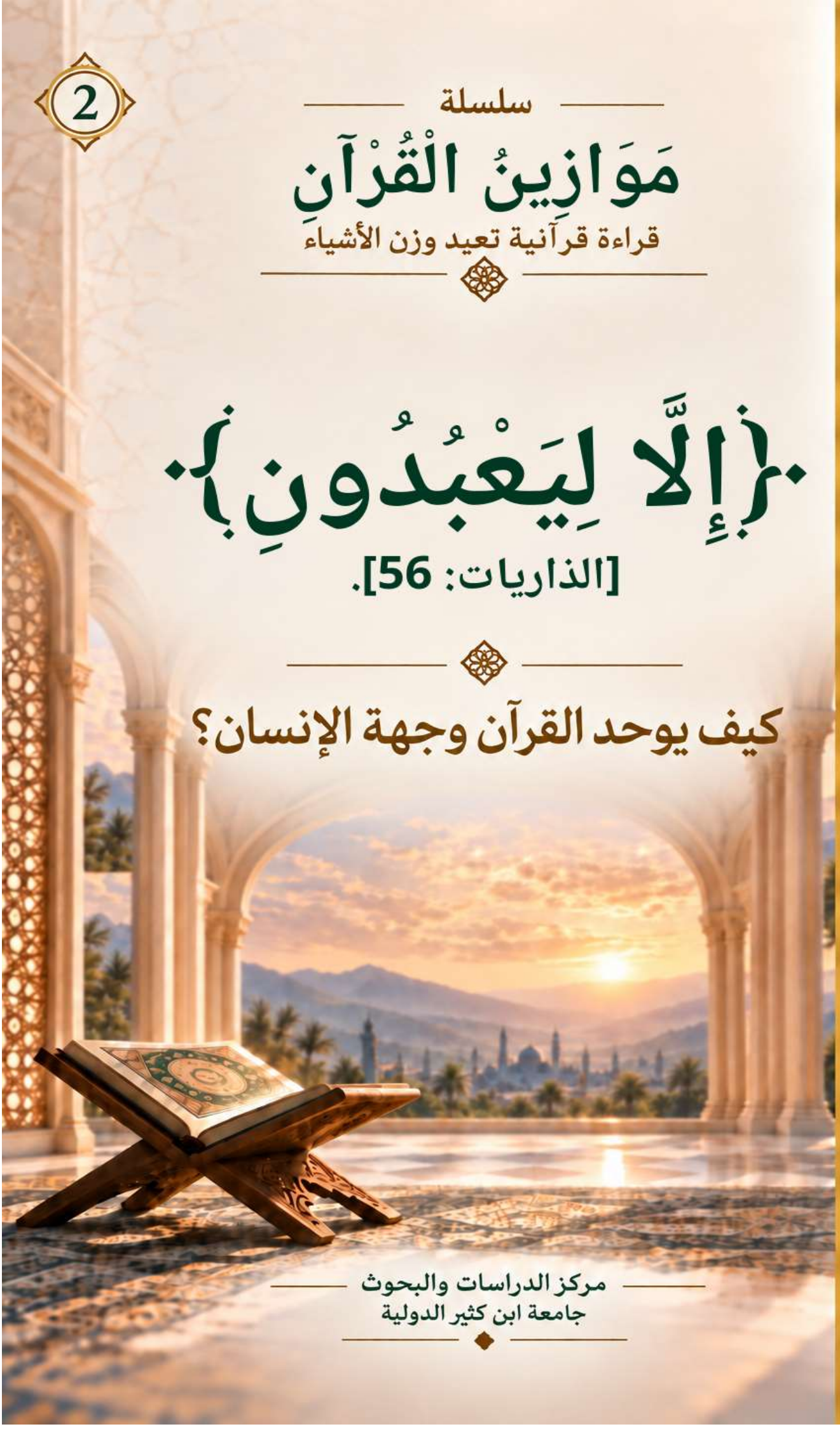

مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

# بيانات النشر والحقوق

**إصدار:** مركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية

**السلسلة:** موازين القرآن.

**اسم الكتاب: إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ - كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟**

**رقم الكتاب في السلسلة:** الثاني.

**الطبعة الأولى:** 1448هـ / 2026م

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث - جامعة ابن كثير الدولية.

هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف - غير تجاري - منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).

يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه وتوزيعه وإعادة نشره وطباعته للأغراض غير التجارية دون إذن مسبق، بشرط المحافظة على نسبته إلى أصحابه، وعدم نشر نسخ معدلة أو مترجمة منه.

ويرحب المركز بطلبات طباعة هذا الكتاب ونشره لأغراض تجارية، شريطة الحصول على إذن كتابي مسبق من المركز، مع المحافظة على النص كاملًا دون تعديل أو حذف أو إضافة، ونسبته إلى أصحابه، ما لم يُتفق كتابةً على خلاف ذلك.

رابط الترخيص https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar

**النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:**

https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/ala-lyaabdon

**إعداد السلسلة**

**مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية**

**الإشراف العلمي على المركز**

أ.د. عبدالله بن مبارك آل سيف

**الفريق العلمي للمركز**

د. عبدالله سالم باهمام

د. صهيب لموح

د. شادية عبدالله بابكر

إسلام موسى

عادل بافرج

**المراجعة والتحكيم العلمي**

يراجع المركز إصداراته بمحكمين خارجيين عند الحاجة.

كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية.

# سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟ — هذا الكتاب
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًا جمًا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

# بين يدي السلسلة والكتاب

## مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

## سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

## هذا الكتاب

هذا الكتاب لا يفتش عن المنافسين في حياة الآخرين قبل أن يفتش عنهم في قلب قارئه. لا يريد أن يمنحك لغةً تحاكم بها الناس، ثم تخرج أنت من السؤال. كلما مر ذكر محبوب أو خوف أو مرجع أو جماعة، فالسؤال الأول ليس: من ينطبق عليه هذا؟ بل: أين أقف أنا منه؟ وأي حق منحته لمخلوق لم يأذن الله له به؟

وهو لا يطلب منك أن تخرج من إنسانيتك باسم التوحيد. ستحب أهلك، وتخاف الضرر، وتستشير الخبير، وتطيع في المعروف، وتنتمي إلى أسرة وقوم ووطن، وتحسن إلى من خالفك. هذه حقوق أذن الله بها، وإنما يفسد الميزان حين يرتفع الحق المشروع حتى ينازع حق الله، أو يتحول السبب إلى متبوع، أو المحبة إلى ندية، أو الخوف إلى مشرّع، أو الانتماء إلى سلطان يرد الوحي.

ستبدأ الصفحات من العبادة وغاية الخلق، ثم تدخل إلى المحبة والخوف والرجاء، وإلى الاتباع والطاعة، ثم تسأل عن المرجع الذي يُرد إليه النزاع، والميزان الذي تُوزن به الأشخاص والأفكار، والولاية التي تصنع الانتماء، حتى تبلغ لحظة القرار: من يملك الكلمة الأخيرة حين تصبح الطاعة مكلفة؟ ليست هذه موضوعات متجاورة؛ إنها دوائر لحقيقة واحدة: أن يكون الله وحده رب الوجهة كلها.

والقرآن في هذه الصفحات ليس شاهدًا يؤتى به بعد اكتمال الفكرة، بل هو الذي ينشئ السؤال ويكشف النفس ويحدد العلاج. وتأتي السنة لتجسد المعنى في قول النبي ﷺ وفعله، وتأتي القصص لا لتزيين الطريق، بل لتريك القلوب وهي تختار تحت الضغط: قلبًا عرف فانقاد، وقلبًا عرف ثم استكبر، وقلبًا زل ثم صدق في الرجوع.

# محتويات الكتاب


بيانات النشر والحقوق ..... 2
مقدمة الكتاب ..... 1
المحور الأول: أن يكون الله وحده إلهك ..... 4
الوحدة الأولى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ..... 4
الوحدة الثانية: الدعاء والنسك: حق لا يُصرف إلا لله ..... 14
الوحدة الثالثة: الإخلاص: لمن تعمل؟ ..... 19
الوحدة الرابعة: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ – محياي ومماتي لله ..... 25
المحور الثاني: من يملك قلبك؟ ..... 31
الوحدة الخامسة: والذين آمنوا أشد حبًا لله ..... 31
الوحدة السادسة: حتى أكون أحب إليه ..... 36
الوحدة السابعة: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ ..... 41
الوحدة الثامنة: الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا ..... 45
الوحدة التاسعة: حين ينازع محبوبٌ أمرَ الله ..... 49
المحور الثالث: من تتبع وتطيع؟ ..... 55
الوحدة العاشرة: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ ..... 55
الوحدة الحادية عشرة: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ ..... 59
الوحدة الثانية عشرة: «إنما الطاعة في المعروف» ..... 64
الوحدة الثالثة عشرة: الأحبار والكبراء ..... 69
المحور الرابع: إلى من ترد الأمر؟ ..... 73
الوحدة الرابعة عشرة: ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم ..... 73
الوحدة الخامسة عشرة: فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ..... 79
الوحدة السادسة عشرة: أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا ..... 84
الوحدة السابعة عشرة: ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا ..... 89
المحور الخامس: بأي ميزان تحب وتكره؟ ..... 95
الوحدة الثامنة عشرة: حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ..... 95

الوحدة التاسعة عشرة: الشخص الواحد بين الحب والبغض ..... 99
الوحدة العشرون: الأفعال: من يحدد الجميل والقبيح؟.....104
الوحدة الحادية والعشرون: الأفكار: الحق لا يُعرف بالرجال .....109
الوحدة الثانية والعشرون: حين يصبح الهوى إلهًا.....113
المحور السادس: لمن تكون الولاية؟.....120
الوحدة الثالثة والعشرون: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ.....120
الوحدة الرابعة والعشرون: لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .....124
الوحدة الخامسة والعشرون: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ..129
الوحدة السادسة والعشرون: صبغة الله: حين يتحول التقليد إلى ذوبان .....133
الوحدة السابعة والعشرون: أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ.....137
الوحدة الثامنة والعشرون: ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ — انصر أخاك بالحق.....140
حين ترتفع الكلفة.....144
المحور السابع: من يملك الكلمة الأخيرة؟.....145
الوحدة التاسعة والعشرون: إذا قضى الله ورسوله أمرًا.....145
الوحدة الثلاثون: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ — وجهة تدوم إلى أن تلقاه.....156
خاتمة الكتاب.....165
الملحق الأول: فروق تضبط الوجهة.....166
الملحق الثاني: محكّ الوجهة .....168

# مقدمة الكتاب

## حين لا يكون الصنم حجرًا

لا يبدأ انحراف الوجهة دائمًا بسجدةٍ لصنم، ولا ينتهي التوحيد دائمًا عند تركها. قد يبقى الجبين لله، ثم تتوزع بقية الحياة بين محبوب يخشى الإنسان فقده، ورأي يخشى مخالفته، وجماعة يطلب منها العزة، ومصلحة تمنح الحرام اسم الضرورة. هنا لا يقول بلسانه إن له إلهًا آخر؛ لكنه قد يعطي غير الله شيئًا من حق الله.

وفي المسافة بين ما يقوله اللسان وما يحكم القرار يقع سؤال هذا الكتاب: من يملك الكلمة الأخيرة حين يتعارض أمر الله مع محبوبك؟ حين يخوّفك الناس؟ حين يعدك السبب بالنجاة إذا تنازلت؟ حين يوافق الهوى رأيًا وتخالفه آية؟ وحين يقف الإنسان بين رضا الله وصورته أمام نفسه والناس؟

الإنسان لا يعيش بلا مركز تنتظم حوله أشياؤه. لا بد من محبوب أعلى، وخوف يحسم، ومرجع يفصل، وميزان يقبل ويرد، وانتماء يرى فيه العزة، وكلمة أخيرة تنتهي عندها الخصومة. وقد تتعدد هذه الجهات في الظاهر، لكن لحظة التعارض تكشف أيُّ هذه الجهات نازع حقّ الله فصار إلهاً حاكماً، وأيُّها بقي في موضعه.

لهذا لم يأت القرآن ليضيف العبادة إلى حياة مكتملة من دونها، بل ليكشف الغاية التي خُلق الإنسان لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. ثم لم يحصر هذه العبادة في لحظات الشعيرة، بل مدها إلى حركة العمر كلها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]. فالسؤال ليس: هل تصلي فقط؟ بل: لمن صار محياك، ومن يفسر خوفك ومحبتك واختيارك؟

ولأن التوحيد ليس أن تضع الله في أعلى قائمة ثم تُبقي للمنافسين حق نقض أمره، جاء عقده جامعًا بين النفي والإثبات: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]. تنزع عن غير الله ما لا يستحقه، ثم تفرد الله بما اختص به. تقول «لا» لكلّ حقٍّ مزعوم لغير الله، حتى تصدق «إلا الله» في القلب والطريق.

وكان إبراهيم عليه السلام صورةً لهذه الحركة كاملة؛ لم يكتفِ بأن يرى بطلان ما يعبد قومه، ولم يبقَ بعد البراءة في فراغ، بل قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]. مال عن الباطل، وأقبل على الله، فصارت الحنيفية حركة قلبٍ يخلع ويقصد، لا مجرد اسم ينتسب إليه.

ولهذه الوجهة عدو لا يشترط أن ينقلك من الإيمان إلى الإنكار في خطوة واحدة. يكفيه أن يؤخر استجابتك، أو يزين لك استثناءً صغيرًا، أو يعدك بالفقر، أو يخوفك من الناس، أو يقنعك أن ميلك هو الميزان. لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6]. لا تعفِ نفسك بذكره؛ فهو يدعو وأنت تستجيب، ولا تغفل عنه وأنت تحاسب نفسك؛ فهو يترصد الطريق ويعرف مداخله.

## كتاب يقرأك وأنت تقرؤه

هذا الكتاب لا يفتش عن المنافسين في حياة الآخرين قبل أن يفتش عنهم في قلب قارئه. لا يريد أن يمنحك لغةً تحاكم بها الناس، ثم تخرج أنت من السؤال. كلما مر ذكر محبوب أو خوف أو مرجع أو جماعة، فالسؤال الأول ليس: من ينطبق عليه هذا؟ بل: أين أقف أنا منه؟ وأي حق منحته لمخلوق لم يأذن الله له به؟

وهو لا يطلب منك أن تخرج من إنسانيتك باسم التوحيد. ستحب أهلك، وتخاف الضرر، وتستشير الخبير، وتطيع في المعروف، وتنتمي إلى أسرة وقوم ووطن، وتحسن إلى من خالفك. هذه حقوق أذن الله بها، وإنما يفسد الميزان حين يرتفع الحق المشروع حتى ينازع حق الله، أو يتحول السبب إلى متبوع، أو المحبة إلى ندية، أو الخوف إلى مشرّع، أو الانتماء إلى سلطان يرد الوحي.

ستبدأ الصفحات من العبادة وغاية الخلق، ثم تدخل إلى المحبة والخوف والرجاء، وإلى الاتباع والطاعة، ثم تسأل عن المرجع الذي يُرد إليه النزاع، والميزان الذي تُوزن به الأشخاص والأفكار، والولاية التي تصنع الانتماء، حتى تبلغ لحظة القرار: من يملك الكلمة الأخيرة حين تصبح الطاعة مكلفة؟ ليست هذه موضوعات متجاورة؛ إنها دوائر لحقيقة واحدة: أن يكون الله وحده رب الوجهة كلها.

والقرآن في هذه الصفحات ليس شاهدًا يؤتى به بعد اكتمال الفكرة، بل هو الذي ينشئ السؤال ويكشف النفس ويحدد العلاج. وتأتي السنة لتجسد المعنى في قول النبي ﷺ وفعله، وتأتي القصص لا لتزيين الطريق، بل لتريك القلوب وهي تختار تحت الضغط: قلبًا عرف فانقاد، وقلبًا عرف ثم استكبر، وقلبًا زل ثم صدق في الرجوع.

اقرأ على مهل، ولا تتعجل جمع النتائج. قف عند الموضع الذي يزعجك؛ فقد يكون هو بابك. لا تجعل التأثر بديلًا عن القرار، ولا تجعل كثرة المعرفة حجابًا عن سؤال واحد واضح: ما الذي ينبغي أن يتغير في

حياتي حتى تصدق وجهتي؟ وقد لا يكون التغيير صاخبًا؛ ربما يكون رد حق، أو ترك مجاملة، أو سؤالًا عن حكم قبل إقدام، أو إغلاق باب تعرف أن عدوك يدخل منه.

هذه الصفحات دعوة إلى أن تستعيد حياتك حول مركزها، لا أن تضيف إليها شعارًا جديدًا. وأن تقولها بقلبك قبل لسانك: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161-163].

# المحور الأول: أن يكون الله وحده إلهك

قبل أن يسأل هذا الكتاب: من تحب؟ ومن تتبع؟ وإلى من ترد الأمر؟ يضعك أمام السؤال الذي تنشأ منه سائر الأسئلة: من إلهك؟ والجواب الذي اعتاده اللسان صحيح، لكنه قد يبقى بعيدًا عن مسالك اليوم وتفاصيل القرار. تقول: الله إلهي، ثم تمضي ساعاتك موزعةً بين غايات لا يجمعها مقصد، وتطلب قيمتك من أعين الناس، وتستدعي الله عند انقطاع الأسباب ثم تنساه حين تستقيم، وتحتفظ للصلاة بموضع كريم بينما تتحرك بقية الحياة كأنها لا تُسأل: لمن؟

جاءت الرسل بالكلمة كاملة: أن يُعبد الله وحده، وأن يُجتنب الطاغوت. لم يكن التوحيد أن تضع الله في أعلى قائمة، ثم تُبقي لمحبوب أو خوف أو عادة حقًا ينازع أمره؛ بل أن تنزع عمن سواه ما اختص به، ثم توجه وجهك إليه حنيفًا، فتعود إليه الشعيرة والقصد والسعي والعلاقة والموت.

ولهذه الوجهة عدو لا يترك القلب بعد إقراره. يزين الباطل، ويعد بالفقر، ويخوف من الناس، ويفتح طريقه بخطوة صغيرة؛ لكنه لا يسقط مسؤوليتك. لذلك يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه، وإلى الاستعاذة بربه وذكره وقطع مداخل عدوه.

يبدأ هذا المحور من غاية الخلق وحق الله، ثم يبين ما لا يصرف إلا له من الدعاء والنسك وعبادات القلب، ويدخل إلى الإخلاص، ثم يفتح الحياة كلها على قول إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، وعلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

## الوحدة الأولى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

### خُلقت لعبادته، وهو الذي يرزقك

ينجح الإنسان في أشياء كثيرة ثم يعجز عن تفسير نجاحه نفسه: لماذا يعمل؟ ولماذا يجمع؟ ولماذا يريد أن يُرى؟ وما الذي يستحق أن تنفق له سنواتك المحدودة؟ تتكاثر الأهداف القريبة حتى يختفي السؤال الأكبر، ويستطيع المرء أن يملأ يومه كله دون أن يعرف لأي غاية امتلأ. وحين يضيع السؤال الأول، تصبح الوسائل غايات: المال الذي كان يعين على الحياة يصير معنى الحياة، والمنزلة التي كانت أثرًا للعمل تصير المعبود الخفي للعمل، والعلم الذي كان طريقًا إلى الله يتحول إلى طريق إلى الذات.

في هذا التشتت تنزل الآية الحاكمة، لا لتضيف نشاطًا دينيًا إلى جدول مزدحم، بل لتفسر وجود الإنسان كله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. ثم يغلق السياق باب الوهم

الذي يتصور العبادة خدمة يحتاجها الرب من عباده: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 57-58]. الله غني عن العالمين، والعبد هو المحتاج إلى أن تستقيم حياته بعبادته.

جاء الرزق في السياق نفسه الذي جاءت فيه غاية الخلق؛ حتى لا يتوهم الإنسان أن العبادة تستنزف حياته التي خُلقت في الحقيقة لجمع المعاش. الله لم يخلقك لتطعمه أو تزيد في ملكه، ولم يطلب منك أن تحمل همَّ خزائنه؛ هو الغني، وأنت الفقير، وهو الرزاق ذو القوة المتين. العبد البشري قد يعمل لسيده لأن السيد ينتفع بعمله، أما عبوديتك لله فخيرها راجع إليك، ورزقك آتٍ من رب لا تنفد خزائنه.

وتنقلب الوجهة حين يعيش الإنسان كأنه خُلق للرزق، ثم يترك للعبادة ما بقي من وقته وقوته. يصير الراتب هو الذي يفسر يومه، والترقية هي التي تحدد صدقه، ورضا المسؤول هو الذي يمنحه الأمان. لا يقول إن المدير يرزقه، لكنه يخافه خوف من يملك الأبواب كلها؛ فإذا طُلب منه باطل قال: عندي أسرة، وكأن الذي أمره بالحق لم يقل بعدها مباشرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

هذا لا يدعو إلى ترك العمل أو انتظار الرزق بلا سعي. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15]. أمر بالمشي، ثم نسب الرزق إليه. تعمل لأن الله أمرك بالعمل، وتتقن وتحسب وتدخر وتبحث عن البديل، لكنك لا تشتري الرزق بمعصيته، ولا تظن أن المقدار والطريق والوقت حق مكتوب على الصورة التي اخترتها لنفسك.

خلقك الله للعبادة لا لأن عبادتك تزيد في ملكه، وإنما لأن قلبك لا يستقيم بلا رب يقصده، ولا تجتمع غاياتك بلا غاية تعلو عليها، ولا تتحرر من استرقاق الأشياء حتى تدخل في عبودية خالق الأشياء. ومن أعظم رحمته بك أن دعاك إلى نفسه؛ فلا تبقى موزعًا بين شهوة تستدعيك، وصورة تحرسها، وجماعة تخشى مفارقتها، وسوق يحدد قيمتك، ونظرة بشر تطلب منها القبول. عبوديته تجمعك وتطهرك وترفعك، وما استولى عليك من دونه يستهلكك ثم يتركك أفقر مما كنت.

## «لا» و«إلا»: عقد التوحيد

لهذا لم تكن دعوات الأنبياء إثباتًا مجردًا لوجود الله؛ جاءت بكلمة تقيم شيئًا وتهدم شيئًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: 36]. يُعبد الله، ويُنزَع حق العبادة عما سواه.

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]. فلا تستقيم «إلا الله» مع بقاء معبود أو مشرع أو متبوع يملك أن ينازع الله حقه. تنفي الحق الباطل، ثم يمتلئ القلب بعبودية ربه.

ولا يعني الكفر بالطاغوت أن يُسمّى كل مخطئ طاغوتًا، أو أن تُسقط حقوق الوالد والعالم والمسؤول والخبير؛ فلكل واحد حقه الذي أذن الله به. وإنما يتجاوز المخلوق حدَّه حين يُدعى فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يُمنح الطاعة المطلقة وحق التحليل والتحريم من دون الله، أو يُقدَّم حكمه على الوحي استحقاقًا ورضًا. أما طاعته في معصية مع الإقرار بحكم الله فذنب، ولا تُسوّى بهذه المرتبة.

ومن هنا تجري الكلمة في الحياة كلها: تحب، لكن لا تجعل محبوبك ندًا؛ تخاف، لكن لا تمنح المخلوق خوف العبادة أو حق تحليل الحرام؛ تتبع الرسول، فلا تصنع من الهوى طريقًا موازيًا؛ وتوالي المؤمنين، فلا تطلب العزة في ولاية تناقض الإيمان. تختلف التفاصيل، ويبقى الله وحده صاحب الحق الأعلى.

## ما العبادة التي خُلقنا لها؟

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، وهو رديفه: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا» رواه البخاري (2856) ومسلم (30). بهذا السؤال النبوي تبدأ حقيقة العبادة من موضعها الصحيح: حقٌّ للخالق، قبل أن تكون حاجةً للقلب أو طريقًا إلى صلاح الحياة. فالذي خلق ورزق ودبّر وأرسل، حقه أن يُفرد بالقصد والخضوع والنسك، وليس التوحيد إضافةً يختارها الإنسان بعد أن يرتب بقية حياته.

وقوله ﷺ: «ولا يشركوا به شيئًا» يحرس هذا الحق من التجزئة. قد يقر الإنسان بأن الله خالقه، ثم يجعل لغيره نصيبًا من الدعاء أو النسك أو التعظيم التعبدي، وقد يحافظ على الشعائر ثم يجعل غاية عمله كلها لغير الله. تختلف الصور والأحكام، ولا تُسوّى المعصية بالشرك؛ غير أن الأصل الحاكم واحد: العبادة الخاصة لله وحده، والقصد الأعلى له، وما سواه يأخذ موضعه الذي أذن الله به ولا يتجاوزه.

وقد فرّق القرآن بين الشرك وما دونه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، وسمّى الشرك نفسه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]. فالمعصية لا تهون، لكنها تبقى دون الشرك ما دام أصل التوحيد والانقياد باقيًا؛ وصرف العبادة لغير الله أو نقض أصل الانقياد باب آخر. هذا الفرق عدل يحفظ الوعيد من التهوين، ويحفظ التوحيد من تحميل كل ذنب حكم الشرك.

العبادة في القرآن أوسع من حركة الجسد، وأضبط من أن تذوب في كل حركة بشرية. هي خضوع القلب لله محبةً وتعظيمًا، وانقياد الظاهر لأمره، وقصد وجهه بما شرع. يدخل فيها الدعاء والصلاة والذبح والسجود، ويدخل فيها الخوف والرجاء والتوكل والمحبة والرضا، ويدخل فيها الصدق والعدل وبر الوالدين وأداء الأمانة حين يفعلها العبد طاعة لله. لكن العادة المباحة لا تصير عبادة بمجرد تسميتها كذلك؛ تحتاج قصدًا صالحًا وطريقًا مشروعًا وأداءً لا يفسد الحق الذي فيها.

يجمع القرآن قلب العبادة وحركتها في آية تتكرر على لسان المؤمن في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. التقديم هنا إعلان اختصاص: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك لأن العبادة نفسها لا تُقام بقوة النفس وحدها. فالعبد لا يقول: إياك أعبد، كأنه يسير منفردًا، بل يدخل في جماعة العابدين، ويعترف في اللحظة نفسها أن قيامه لله لا يتم إلا بالله. غايةٌ هي العبادة، وعونٌ يطلبه من المعبود.

العبادة إذن ليست ذلًا مجردًا، فقد يذل الإنسان لمن يكرهه ولا يكون عابدًا له. وليست حبًا مجردًا، فقد يحب ولده أو وطنه أو طعامًا ولا يعبده. إنما تقوم عبادة القلب حين يجتمع لله غاية الحب مع غاية التعظيم والخضوع، ثم يظهر ذلك في الطاعة والقصد. ولهذا كانت المعرفة بالله بابًا إلى العبادة: كلما عرف العبد أسماء ربه وصفاته، ورأى رحمته وحكمته وقدرته ونعمه، صار سجوده أصدق، وخوفه أضبط، ورجاؤه أصفى، وتسليمه أعمق.

## إبراهيم: خلع الباطل وتوجيه الوجه

دخل إبراهيم عليه السلام على أصل الوهم قبل أن يناقش تفاصيله. قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42]. وفي مشهد آخر قال لقومه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: 66]. لم يناقش مادة الصنم وحدها، بل الحق الذي منحه الناس لعاجز لا يستحقه.

ولم يكن كشف الباطل تمرينًا عقليًا آمنًا. فلما كسر الأصنام وسقطت حجتهم انتقلوا إلى البطش: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 68-69]. ظهر الكفر بالطاغوت قرارًا يتحمل الكلفة؛ لم يعد الباطل باطلًا في الذهن فقط، بل خُلع سلطانه من القلب.

لكن إبراهيم لم يبقَ في فراغ بعد الخلع. قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]. في الآية وجهان متلازمان: توجيه الوجه إلى الخالق، ونفي الشرك. فالحنيف لا يكتفي بتفضيل الله على غيره، يميل عن الطريق الباطل، ويقبل على الله بوجه لم يعد موزعًا.

وكانت أقوى حجج قومه اجتماعية: وجدنا آباءنا، وهذه هوية الجماعة، وهذه الآلهة تحفظ نظامنا. حين يرتبط الباطل بالانتماء، يتحرك مع الدليل خوف الفقد: إن خلعت هذا، فمن أكون؟ ومن يبقى معي؟ فجاءت الحنيفية لتفصل الحق عن سلطان المألوف، من غير أن تبطل بر الوالد أو الرحمة بالقوم.

والصنم الظاهر يسهل اكتشافه، أما ما يطلب من القلب حقًا لا يستحقه فيحتاج صدقًا أشد. قد يعرف المرء أن شخصًا لا يملك نفعه وضرّه، ثم يجعل رضاه بوابة القيمة، وقد يعلم أن المال سبب، ثم يمنحه حق تحليل الحرام، وقد يرى عجز الجمهور عن تغيير الحق، ثم يعطي كثرتهم حق تعريفه. لا تسمى هذه الصور كلها شركًا أكبر، ولا يحكم على الأعيان بلا تفصيل، لكنها تكشف بقايا حق لم يُخلع من موضعه.

لهذا يحتاج الإنسان إلى وحي من خارج هواه، فالنفس تحول المألوف إلى حقيقة، والمصلحة إلى فضيلة، والخوف إلى ضرورة. فإذا جاء قول الله كشف أن مقاومة الحق قد تختفي في الوفاء والواقعية واحترام الكبار. التوحيد لا يهدم الحقوق المشروعة، بل ينزع عنها فقط ما ليس لها: حق رد أمر الله أو منازعة عبادته.

## الفطرة: حين يعود الوجه إلى أصله

ويجمع القرآن بين توجيه الوجه والحنيفية والفطرة في آية واحدة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]. لم يأت التوحيد عبئًا غريبًا يضاف إلى خلق الإنسان، بل جاء يرد الوجه إلى الأصل الذي فطره الله عليه، ويزيل ما تراكم عليه من تقليد وشهوة وخوف.

ولهذا تكرر فعل الفطر في إعلان إبراهيم: ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79]، وفي براءته من قومه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: 27]. فالحنيف يتوجه إلى الذي فطره، ويطلب هدايته، ولا يترك للمألوف أن يعيد تشكيل الفطرة حتى يصير الباطل عنده أصلًا والحق طارئًا.

وفي حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» رواه مسلم (2865). جمع الحديث الحنيفية والعدو في جملة واحدة: أصلٌ مهيأ لقبول الحق، ثم شياطين تجتال الإنسان عنه، وتزين له ما يقطعه عن ربه.

وهذا لا يجعل كل ميل باطني حجة؛ فالفطرة قد تُغطّى، والنفس تشتهي، والبيئة تلقن، ولا تستغني الفطرة عن الوحي الذي يذكرها ويهديها. لكنه يمنح العبد بشرى: توحيد الوجهة ليس إنشاء طبيعة جديدة، بل استرداد لأصله، وعودة إلى ربه الذي فطره، كلما اجتالته الشهوة أو الجماعة أو الشيطان.

## عبودية يشترك فيها الخلق، وعبودية يختارها المؤمن

كل الخلق عبيد لله من جهة الملك والقهر والتدبير؛ لا يخرج أحد عن قدره، ولا يملك لنفسه خلقًا ولا موتًا ولا نشورًا. المؤمن والكافر يجريان في سنن الله الكونية، وتأتيهما الصحة والمرض، ويحييان ويموتان بأمره. لكن هذه العبودية العامة لا تكفي للنجاة؛ إذ المطلوب عبودية الاختيار والمحبة والطاعة: أن يعرف العبد ربه، ويقصده، ويستجيب لأمره، ويذل له طوعًا قبل أن يلقى حكمه قهرًا.

من هنا يصح أن يكون الإنسان عبدًا لله خلقًا وقدرًا، ثم يتمرد على عبادته شرعًا. لا تناقض في ذلك؛ فالذي لا يستطيع الخروج من ملك الله قد يرفض الدخول في طاعته. وهذه هي المأساة: يعيش بنعمة الله، ويتحرك بقوته، ثم يجعل قصده لغيره. أما المؤمن فيوافق اختياره الحقيقة التي لا يستطيع الهرب منها؛ فيقول بلسان حاله: كما أني ملكك خلقًا، فأنا عبدك قصدًا وطاعةً.

وهذه العبودية الخاصة لا تلغي شخصية الإنسان وإرادته، بل تحررهما من التشتت. الله لم يأمرك أن تصير بلا عقل أو رغبة، وإنما أن تكون رغباتك وعقلك داخل العهد. تختار، لكنك لا تجعل الاختيار حقًا في رد أمر الله؛ تحب، لكنك لا تمنح محبوبك مقام الإله؛ تخطط، لكنك لا تنسب النتيجة إلى نفسك وحدها. تصبح إرادتك أداة عبودية لا خصمًا للعبودية.

وقد يظن بعض الناس أن العبودية لله انتقاص للكرامة، لأنهم يقيسونها على عبودية البشر للبشر، وفيها ظلم واستغلال. الفارق أن الله غني عنك، رحيم بك، عليم بما يصلحك، ولا يأخذ بطاعتك حقًا له لينقصك؛ بل يعطيك بها حياة القلب واستقامته. كلما ازددت له عبودية تحررت من استعباد الخلق، ومن الحاجة إلى أن يثبتوا قيمتك في كل يوم.

## الشيطان: عدو الوجهة

ما إن يختار العبد طريق الله حتى يكتشف أن الطريق ليس خاليًا من المنازعة. في نفسه شهوة وضعف، وفي الدنيا زينة قريبة، وفي الناس ضغط وثناء وتهديد؛ وفوق ذلك عدو قديم أعلن أنه يقعد للإنسان على الصراط. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6].

قد تؤمن بوجود الشيطان، ثم لا تتعامل معه عدوًا. يمر وعده في قلبك كأنه تقدير واقعي، ويأتي تخويفه كأنه صوت الحكمة، وتبدو خطوته الأولى صغيرةً لا صلة لها بالنهاية. اتخاذه عدوًا أن تشك في الدعوة التي تبعدك عن الله ولو لبست ثوب المصلحة، وأن تعرف مدخله، وتستعين بربك، ولا تترك له الطريق مفتوحًا.

وجمع القرآن بين عداوته والعبادة في عهد واحد: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61]. ليست كل معصية شركًا أكبر، لكن كل دعوة منه تريد أن تنقص عبوديتك وتبعدك خطوةً عن الصراط.

ومع ذلك لا يملك أن يجبرك. يوم القيامة يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]. هو يدعو ويزين ويخوف، والنفس تميل وتختار. فلا تُلغِ العدو حين تلوم نفسك، ولا تُعفِ نفسك حين تذكر العدو.

ولا يبدأ غالبًا بطلب النهاية. يسمي السكوت هذه المرة حكمة، والمال الحرام ضرورة، وتأجيل التوبة فرصةً للترتيب. ثم تصير الخطوة عادة، والعادة دفاعًا، ويجد الإنسان نفسه في موضع كان يستبعده. لهذا نهى القرآن عن اتباع خطواته؛ فالطريق إلى البعيد يبدأ قريبًا.

ومن أصرح وعوده ما يهمس به عند المال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: 268]. يملأ عينك بما ستفقده حتى يبدو الحرام نجاةً والطاعة تهورًا. وليس كل احتياط وسوسة؛ إنما تنكشف الوسوسة حين يصير الخوف هو الذي يعيد تسمية الحلال والحرام.

فالإنسان لا يواجه عدوًا خارج نفسه فقط. الشيطان يستثمر شهوةً موجودة، أو صورةً يخاف عليها، أو غضبًا وجد طريقه. وربما بدأت الحركة من ميل النفس، ثم جاء التزيين فصنع له حجة. المطلوب أن تعرف الميل والدعوة معًا، ثم تتحمل مسؤوليتك وتفتقر إلى ربك.

## حين تستعيذ ويعود البصر

قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]. الاستعاذة ليست كلمةً تقال ثم يبقى الباب مفتوحًا؛ هي فرار إلى رب يسمع ويعلم، يتبعه خروج من المجلس، أو إغلاق للشاشة، أو تأخير للرد، أو قطع للسبب الذي يغذي النزغ.

وقال في أهل التقوى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. لم ينف عنهم المس؛ وصف سرعة الرجوع. يمر الخاطر، ويبدأ الغضب، ويطرق الخوف، ثم يجيء الذكر فيعيد للأشياء حجمها قبل أن تصبح الدعوة قرارًا.

وقال رسول الله ﷺ: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد... فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة» رواه البخاري (1142) ومسلم (776). هكذا يتحول العلاج من معنى في الذهن إلى ذكر ووضوء وصلاة؛ عبودية تقطع عقدة بعد عقدة.

فتش عن الباب الذي يتكرر منه الدخول: خوف رزق، أو غضب، أو شهوة، أو مدح، أو صحبة، أو شاشة لا تنقطع. سمِّ الوعد الذي تصدقه عنده، واستعذ بالله، واجعل له حاجزًا عمليًا. ومعرفة العدو لا تجعل الشيطان مركز حياتك؛ تزيدك افتقارًا إلى الله. هو عدو الطريق، أما المقصود فهو الرب الذي هداك وفتح لك باب الذكر والتوبة.

## من عبادة موروثة إلى وعي بالغاية

يرث المسلم الصلاة والصيام كما يرث لغته واسمه. وهذه نعمة عظيمة، لكنها لا تعفيه من أن يعي لمن يصلي ولماذا يعيش. العادة تحفظ الشكل زمنًا، ثم تضعف عند أول تعارض قوي؛ أما العبادة الواعية فتربط الفعل بالله، وتستمد ثباتها من معرفة الحق لا من بقاء البيئة. لذلك كان أول انتقال مطلوب في هذه الوحدة أن تتحول العبادة من شيء تفعله لأنك نشأت عليه إلى الغاية التي تفهم بها ما نشأت عليه.

حين تقول: خُلقت للعبادة، لا يعني ذلك أن تنسحب من عمارة الأرض، ولا أن تعطل العقل والجسد والأسرة. الذي خلقك للعبادة هو الذي أمرك بالسعي والعدل والإحسان والتعلم والإنفاق. المقصود أن تدخل هذه الأعمال تحت الغاية العليا، فلا تصبح عمارة الأرض منافسة لعبادة رب الأرض. تعمل لأن الله يحب العمل النافع، وتتعلم لتعرف الحق وتنفع الخلق، وتبني أسرة لتقيم أمانة، وتطلب رزقًا حلالًا يعفك ويقوم بمن تحت يدك.

وهنا يظهر الفرق بين أن تكون العبادة جزءًا من الحياة، وأن تكون الحياة كلها محكومة بالعبادة. في الصورة الأولى قد يصلي المرء ثم يعود إلى غاياته الأصلية التي لم تمسها الصلاة. وفي الثانية تصبح الصلاة تجديدًا للعهد الذي يضبط التجارة والخصومة والسر والخلوة. لا تتحول كل حركة إلى شعيرة، وتبقى الفروق بين الصلاة والعمل والنوم، لكن الجميع يدخل في سؤال رضا الله وحدوده.

أكثر ما يحمي التجزئة أن لكل دائرة لغتها: في المسجد لغة الخشوع، وفي السوق لغة الربح، وفي المنصة الرقمية لغة الظهور، وفي البيت لغة السلطة، وفي البحث لغة المكانة. ومع تبدل اللغة ينسى القلب أن العبد واحد وأن الرب واحد. تتجاور هويات داخل الشخص، ويقوم كل منها بواجباته الخاصة، حتى لا يشعر بالتناقض بين سجود صادق وظلم متكرر، أو بين تلاوة مؤثرة وطلب محموم لثناء الناس.

يعالج القرآن هذا الانقسام برد الحياة إلى أصل واحد. فالذي يقول في الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا يستطيع أن يحصر العبودية في الركعات ثم يمنح بقية يومه لوجهة مستقلة. كل دائرة ستأخذ لونها من هذا العهد: قد تظل التجارة تجارة، لكنها لا تحلل الغش؛ وتظل المحبة الطبيعية محبة، لكنها لا تقدم على أمر الله؛ ويظل العقل عقلًا ناظرًا، لكنه لا ينصب نفسه مشرعًا فوق الوحي.

## حين صار الرزق غايةً خفية

دخل موظف عمله أول مرة وهو يقول: هذا باب رزق، وسأؤديه بأمانة. كان يصلي، ويعرف أن الحلال بركة، ثم اتسعت التزاماته وصار فقد الوظيفة شبحًا يرافقه. طلب منه مديره أن يغير رقمًا في تقرير حتى تمر معاملة لا تستوفي الشروط. عرف الحكم، وشعر بالضيق، لكنه لم يقل في نفسه: سأبيع ديني؛ قال: هذه مرة واحدة، والسوق صعب، وأطفالي يحتاجونني، والمدير يستطيع أن ينهي مستقبلي.

عاد إلى بيته وهو يحمل الراتب في ذهنه أكثر مما يحمل السؤال عن الله. صلى، لكنه في اليوم التالي عدّل الرقم. لم يسجد للمدير، ولم ينكر أن الله رازقه، غير أن قراره جرى كأن رزقه محصور في توقيع رجل. هنا وقع انقلاب الغاية: صارت العبادة مطالبةً بأن تحمي الوظيفة، بدل أن تكون الوظيفة جزءًا من محيا لله.

قد لا يكون الطريق سهلًا؛ ربما يحتاج إلى نصيحة، أو توثيق، أو انتقال مدروس، أو احتمال نقص مؤقت. العبودية لا تأمره بالتهور، لكنها تمنعه من أن يجعل الخوف حجةً لتغيير اسم الحرام. حين يوقن أن الله هو الرزاق، لا يضمن لنفسه بقاء المستوى نفسه، لكنه يضمن ألا يطلب الأمن من باب يهدم الغاية التي خُلق لها.

## محك الغاية

انظر إلى أسبوعك لا إلى تعريفك. ما الأعمال التي تعطيها أفضل وقتك؟ وما الخسارة التي تخافها أكثر؟ وهل تتعامل مع الرزق بوصفه عطاءً من الله تطلبه بأسبابه، أم غايةً تسمح لها أن تعطل أمره؟ قد تكشف الإجابات غايةً عملية تنافس الغاية التي يعلنها اللسان. لا تخف من الطموح والكسب؛ اعرف مرتبتهما: أهما شيء تحمله في طريقك إلى الله، أم طريق يبتلع بقية الأشياء؟

اكتب لنفسك جملة واحدة صادقة: أكثر دائرة أعيشها وكأنها لا تتصل بغاية الخلق هي... ثم سمِّ فعلًا يعيدها هذا الأسبوع إلى العبودية: حق تؤديه، أو وقتًا تصونه، أو نية تصححها، أو معصية تقطع سببها، أو عملًا مباحًا تربطه بقصد صالح. لا تجعل المراجعة فكرة جميلة؛ أعطها موضعًا يمكن أن يظهر فيه صدقك.

وحين تعرف أن العبادة غاية الخلق، يبرز الحد الفاصل الذي لا يجوز أن يلتبس: هناك أعمال ليست مجرد وسائل صالحة، بل شعائر تعلن بذاتها لمن يخضع القلب. وأولها الدعاء والنسك؛ ففيهما ينكشف إلى من يتجه الإنسان حين يحتاج، ولمن يبذل حين يتقرب.

## الوحدة الثانية: الدعاء والنسك: حق لا يُصرف إلا لله

### حين تسقط الأقنعة أمام الحاجة

يحسن الإنسان الحديث عن استقلاله ما دامت الأسباب مطيعة. فإذا أغلقت الأبواب، وخرج الأمر من يد الطبيب أو المدير أو المال، ظهر الاتجاه الأول في القلب. يصور القرآن هذا الانكشاف في البحر:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22].

في لحظة الإحاطة يتهاوى ما صنعته الغفلة من استقلال. لا يملك البحر ضرَّه، ولا السفينة نجاته، ولا الإنسان أجله. يخرج الدعاء من أعمق موضع في الفطرة لأنه اعتراف كامل: أنا عاجز وأنت قادر، أنا فقير وأنت الغني، لا نجاة إلا بإذنك. لهذا كان الدعاء عبادة، لا لأنه كلمات دينية فحسب، بل لأنه يجمع الافتقار والتعظيم والرجاء والاعتماد.

غير أن المشهد القرآني لا ينتهي بالنجاة: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 23]. تكشف الشدة وجهة القلب لحظة، ثم تعود العافية فتغطيها الأسباب من جديد. ليس الامتحان أن تعرف من تدعو حين تغرق فقط، بل أن يبقى من دعوتَه في البحر إلهك على البر: تشكره، وتطيعه، ولا تجعل النجاة جسرًا إلى الغفلة.

### الدعاء هو العبادة

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]. سمّى الإعراض عن الدعاء استكبارًا عن العبادة. فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم تلا هذه الآية. رواه أبو داود (1479) والترمذي (2969)، وقال: حسن صحيح.

يدخل في الدعاء سؤال الحاجات: المغفرة والرزق والشفاء والهداية والنصر. ويدخل فيه دعاء العبادة؛ فكل صلاة وذكر وخضوع يتضمن طلبًا بلسان الحال وإن لم ينطق العبد بحاجته. حين يسبح الله فإنه يطلب

قربه وثوابه، وحين يستغفره فإنه يقر بذنبه وفقره، وحين يسجد يضع أشرف ما فيه على الأرض لمعبوده. الدعاء ليس حاشية على العبادة؛ إنه قلب الافتقار فيها.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18]. لا يُدعى مع الله نبي ولا ولي ولا ملك، ولا يُطلب من ميت أو غائب ما لا يقدر عليه إلا الله. علو منزلة المخلوق لا ينقله من العبودية إلى الألوهية، ومحبة الصالحين لا تمنحهم تصرفًا في الغيب. الذي أرسل الرسل هو الذي أمر أن يتوجه الدعاء إليه وحده.

وحين قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...» رواه الترمذي (2516) وقال: حسن صحيح؛ كان يبني قلبًا يرى أن الخلق جميعًا لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا إلا بما كتبه الله. هذا المعنى لا يلغي الأسباب، لكنه ينزع عنها دعوى الاستقلال.

يجوز أن تسأل حيًا حاضرًا قادرًا عونًا يملكه عادة: أن يعينك على حمل متاع، أو يعالج مرضًا، أو يدل على طريق، أو يقرض مالًا. القرآن نفسه حكى استعانة الناس بعضهم ببعض في المقدور. الفارق أن القلب لا يجعل السبب ربًا للنتيجة، ولا يسأله ما وراء قدرته، ولا يذل له ذل العبادة. الطبيب سبب، والشفاء بيد الله؛ وصاحب القرار سبب، والرزق بيد الله؛ والصديق يعين، لكن حفظك ونفعك لا يخرجان عن قدر الله.

## الصلاة والنسك يعلنان جهة القلب

جمع القرآن بين الصلاة والذبح في أمر موجز شديد الدلالة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: 2]. الصلاة خضوع البدن والقلب، والذبح بذل مال تتعلق به النفس وتقرب به إلى من تعظمه. لذلك كان النسك علامة ظاهرة على جهة العبادة، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من ذبح لغير الله» رواه مسلم (1978). لا يدخل في ذلك الذبح المعتاد للطعام إذا سُمّي الله عليه؛ إنما الوعيد في الذبح الذي يُتقرب به لغير الله أو يعظم به تعظيم العبادة. وكذلك النذر عبادة؛ لأنه إلزام للنفس بقربة، فلا يكون إلا لله. والسجود التعبدي لا يكون إلا له، والتوكل الذي يفوض القلب أمره كله لا يصرف لسواه.

هذه الشعائر ليست رموز هوية قابلة لإعادة التفسير بحسب الثقافة. قد تنظر بيئة إلى الذبح عند قبر على أنه وفاء، أو إلى الاستغاثة بغائب على أنها محبة، لكن الاسم الاجتماعي لا يغير حقيقة الفعل. الوحي هو الذي يبين حدود العبادة، والنية الحسنة لا تحوّل حق الله إلى حق مشترك. من أحب الصالحين حفظ لهم منزلتهم التي أعطاهم الله، ولم يرفعهم فوقها.

وفي المقابل، لا يصح أن يُستعمل اتساع العبودية لتهوين الشرك الصريح. قد ينشغل خطاب تربوي بالهوى والمصلحة والمرجعية حتى تصبح دعوة غير الله أو الذبح له مسألة هامشية. هذا قلب للميزان. العبادات المباشرة هي الحدود الأوضح للألوهية، ومنها يبدأ التوحيد. توسيع أثر التوحيد إلى الحياة لا يبدل طبيعة هذه الشعائر ولا يساوي بينها وبين كل خطأ عملي.

## عبادات القلب: الخوف والرجاء والتوكل

اللسان لا يدعو وحده. وراءه قلب يخاف ويرجو ويعتمد. والخوف الطبيعي من أذى ظاهر لا يقدح في التوحيد؛ فقد يخاف الإنسان مرضًا أو عدوًا فيأخذ بالأسباب. وإنما المختص بالله خوف العبادة القائم على غاية التعظيم والخضوع، وخوف السر المبني على اعتقاد أن مخلوقًا يملك أن يضر في الغيب استقلالًا أو بما لا يقدر عليه إلا الله. وقد يحمل الخوف الطبيعي الإنسانَ على معصية لضعفه، فيأثم بضعفه، ولا يصير كل خوف عبادةً ولا كل معصية شركًا. قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

والرجاء الطبيعي فيما يملكه الناس جائز، لكن رجاء المغفرة وكشف الكرب الذي لا يقدر عليه إلا الله عبادة. لهذا جاء قرب الله في سياق الدعاء بلا واسطة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]. القرب هنا يربي العبد على الصلة المباشرة بربه، وعلى أن الاستجابة لله جزء من صدق سؤاله الله.

والتوكل عمل قلب يقوم على اعتماد صادق مع فعل السبب. قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: 3]. لم يأمر القرآن بترك السعي، وإنما منع القلب من أن يسكن إلى السعي كأنه خالق الثمرة. الذي يتوكل حقًا يعمل ولا يعبد عمله، يخطط ولا يعبد خطته، ويستشير ولا يجعل الخبير معصومًا. إذا نجح شكر الله، وإذا تعطل سبب لم تنهدم عقيدته في الرزق والفرج.

كثير من اضطراب القلب ينشأ من نقل صفات الرب إلى السبب من غير لفظ. لا يقول الموظف إن مديره يرزقه، لكنه يعيش كأن رزقه محصور في رضاه، فيتنازل عما يعلم أنه حق. ولا يقول المريض إن

الطبيب يشفي بذاته، لكن قلبه قد ينهار حين يعجز الطبيب كأن باب الله أغلق. التوحيد يعيد الأسباب إلى حجمها: محترمة، مطلوبة، مؤثرة بإذن الله، لكنها مخلوقة محدودة.

## الاستجابة ليست صفقة مع الله

يدعو العبد ثم يتأخر مطلوبه، فيدخل الشيطان من باب لم يكن ظاهراً: دعوت فلماذا لم يقع ما أريد؟ يكشف هذا السؤال أحيانًا أن الدعاء فُهم كوسيلة للسيطرة على النتيجة، لا عبودية افتقار وتسليم. الله وعد بالإجابة، لكنه الرب الحكيم الذي يعلم ما لا تعلم، وليست الإجابة التزامًا بأن تأتي الحاجة في الصورة والوقت اللذين اختارهما العبد لنفسه.

الدعاء الصادق يجمع الطلب والرضا بربوبية الله. تسأل بإلحاح، وتأخذ بالأسباب، وتحسن الظن، ثم لا تجعل إيمانك معلقًا على تحقق صورة بعينها. قد تكون الحاجة خيرًا في وقت دون وقت، وقد يعجّل الله للعبد دعوته، أو يدخرها له في الآخرة، أو يصرف عنه من السوء مثلها. المقصود هنا ألا يتحول التأخر إلى انتقال بالقلب من باب الله إلى أبواب الوهم، أو إلى اعتراض خفي يقول: أنا أعلم بما يصلحني.

ومن دقائق الدعاء أن العبد قد يطلب بلسانه ما يناقضه بفعله. يسأل رزقًا طيبًا ويصر على طريق محرم، ويسأل صلاح ولده وهو يهمل بيته، ويسأل هداية قلبه ثم يغذيه بما يقسيه. الاستجابة لله في الآية ليست ثمنًا للإجابة، لكنها علامة صدق الافتقار؛ فمن عرف أن الله ربه لم يرد عطاءه مع الإقامة على معصيته كأن بينهما عقد مصالح.

ويظهر صدق الدعاء كذلك في الشكر بعد الفرج. أهل السفينة وعدوا: لنكونن من الشاكرين، ثم عاد بعضهم إلى البغي. كم من دعاء حار في المستشفى انتهى عند باب الخروج، وكم من عهد تحت ضغط الدين ذاب مع أول سعة. اجعل لكل فرج طاعة تذكره: صدقة، أو ترك ذنب، أو حقًا ترده. عندها يتحول الدعاء من لحظة خوف إلى صحبة مع الله.

يعود القلب إلى الوسائط حين تضعف فيه عبودية الغيب؛ فالسبب الظاهر يُرى ويُسمع، وتميل النفس إلى ما تستطيع لمسه والتحكم فيه، ثم تبالغ في تقديره حتى تمنحه ما ليس له. وقد يخدم التعلق بالوسيط رغبةً أخرى: طلب النجاة من غير توبة ولا استجابة؛ فيبقى الإنسان على حياته كما هي، ويطلب من باب متوهم أن يعفيه من كلفة الوقوف بين يدي الله. ويزداد التعلق حين يصير الوسيط جزءًا من هوية الأسرة والوفاء للأجداد. هنا يحفظ المؤمن الحقوق والرحمة، لكنه لا يجعل المألوف شريكًا في حق الله؛ قال إبراهيم لأبيه بلطف: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾، وبقي التوحيد في كلامه واضحًا.

## من الطوارئ إلى الصحبة

اسأل نفسك: من أول من يتجه إليه قلبك حين تخاف؟ قد يكون الجواب اللفظي: الله، لكن ترتيب الحركة يكشف أحيانًا غير ذلك. تفتح جهات الاتصال كلها، وتعيد الحسابات، وتستنفد الخيال، ثم تقول في آخر الطريق: لم يبق إلا الدعاء. كأن الدعاء ملجأ بعد فشل الأسباب، لا أصلًا يصحبها منذ البداية. المؤمن يدعو قبل السبب ومعه وبعده، ويعرف أن استعمال السبب طاعة إذا أذن الله به.

اختر حاجة تضغط عليك الآن. سمِّها بينك وبين الله بلا تجميل، وصل ركعتين أو ارفع يديك بدعاء حاضر، ثم حدد السبب المشروع الذي ستأخذ به من غير أن تنقل قلبك إليه. وبعد الفرج اكتب وجهًا واحدًا للشكر تؤديه. المقصود ألا يبقى إخلاص البحر لحظة اضطرار تنتهي عند الشاطئ، بل يصير صحبةً لله في السعة كما كان افتقارًا إليه في الشدة.

لكن الشعيرة قد تكون لله في ظاهرها، ثم يتسلل إلى داخلها طلب آخر: أن يراك الناس، أو أن تصنع منزلة، أو أن تحفظ صورة. بعد أن استقام السؤال: لمن تدعو وتذبح وتسجد؟ يأتي سؤال أدق: لمن تعمل حين لا يراك إلا الله، ولمن تعمل حين يراك الجميع؟

# الوحدة الثالثة: الإخلاص: لمن تعمل؟

## العمل نفسه، والمصير ليس واحدًا

يقف رجلان في صف واحد، ويقرآن الآيات نفسها، ويبذلان المال نفسه، ولا يكون ما بين عمليهما في ميزان الله قريبًا. الصورة تقع في الخارج، أما الجهة التي خرجت منها فلا يراها الناس. ولهذا افتتح النبي ﷺ ميزان الأعمال بقوله، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» رواه البخاري (1) ومسلم (1907). ليست النية تعليقًا داخليًا يضاف بعد اكتمال الفعل؛ بها يتحدد لمن وقع، وأي معنى حمله، وما الذي يطلبه صاحبه منه.

يعطي المرء فقيرًا رحمةً به وابتغاء وجه الله، وقد يعطي المال نفسه ليُصوَّر، أو ليشتري ولاءً، أو ليدفع نقدًا. وينشر علمًا يريد به هداية الناس، أو ينشره ليثبت أنه الأعلم. وقد يصمت عن جدال لأنه يخشى الله، أو يصمت خوفًا على صورته. العمل الظاهر لا يخبر بكل شيء، والعبد محتاج إلى أن يعود وراء الحركة ويسأل: ما الذي كنت أريده حقًا؟

جاء الأمر بالإخلاص في أول سورة الزمر مقرونًا بإنزال الكتاب بالحق: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 2-3]. الدين لله، فلا يقبل أن يكون أصل العبادة له وثمرتها المقصودة لغيره، ولا أن تُجعل الطاعة جسرًا إلى منزلة يعبدها القلب. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

الإخلاص أن يفرد العبد ربه بقصده التعبدي؛ يريد وجهه وقبوله وثوابه، ويجعل رضا الناس تابعًا لا حاكمًا. لا يعني أن يخلو القلب من كل خاطر عابر، ولا أن يصبح الإنسان بلا حاجات طبيعية، ولا أن يرفض كل أثر دنيوي للعمل. قد يعمل بأجرة، ويتعلم لشهادة، ويبني مشروعًا ليربح، وهذه مقاصد مباحة في أصلها. الخلل حين تصبح الغاية الدنيوية هي التي تحدد الحلال والحرام، أو حين يلبس طلب المنزلة لباس العبادة ليأخذ قداسة لا يستحقها.

## العمل الصالح لا يكفيه حسن القصد

يختم الله سورة الكهف بميزان يجمع صلاح العمل وإخلاصه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 110]. الصلاح يتطلب موافقة ما شرع الله، والإخلاص يمنع أن يُجعل مع الله شريك في القصد. فلا تصح عبادة مبتدعة بحجة المحبة، ولا يصلح عمل مشروع إذا صار أصله لعين الناس.

هذه القاعدة تمنع حيلتين متقابلتين. الأولى أن يقول الإنسان: نيتي طيبة، ثم يسلك طريقًا حرمه الله أو يبتدع قربى لم يأذن بها. النية الحسنة لا تجعل الكذب دعوة، ولا تجعل الظلم نصرة، ولا تجعل العبادة المخترعة سنة. والثانية أن يعتني بصورة الموافقة ويهمل القلب؛ فيؤدي الفعل كما ينبغي، لكنه يريده سلعة في سوق المحمدة. الله الذي شرع العمل هو الذي أمر أن يكون له.

وفي الحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم (2985). فالله لا يحتاج عملًا يزاحمه فيه طلب التعظيم من الخلق. وحين يقول العبد بلسانه: هذا لله، ثم يبني باطنه على غير الله، فقد أدخل إلى القربة من لا يملك قبولها ولا ثوابها.

لا يلزم من هذا أن كل التفات إلى الناس شرك أكبر، ولا أن كل سرور بالثناء يبطل العمل. الرياء مراتب، والخواطر تعرض، والقلوب تجاهد. الرياء الأصغر يداخل عملًا أصله في الجملة لله، فينقصه أو يحبط ما خالطه، ولا يخرج صاحبه من الإسلام. أما رياء المنافقين الأكبر فأن يكون أصل إظهار الدين للناس مع خلو الباطن من الإيمان. ومن بدأ العمل لله ثم هاجمه حب الظهور فكرهه ودافعه، فهو في مجاهدة لا في نفاق. والتفصيل هنا يحفظ القلب من الأمن الكاذب ومن الوسواس معًا.

## حين تصبح أعين الناس قبلة ثانية

الرياء لا يبدأ دائمًا بقرار صريح: سأعبد الناس. كثيرًا ما يبدأ بحاجة بشرية طبيعية إلى التقدير، ثم تتضخم حتى تملك العمل. يريد الإنسان أن يُعرف خيره، وأن يثبت لنفسه أنه صالح، وأن يحمي مكانته بين أهل العلم أو الدعوة أو الأسرة. وحين تتشابك القيمة الذاتية مع تصفيق الناس، يصعب عليه أن يعمل عملًا لا يُرى، أو أن يعترف بخطأ يهز الصورة.

تصف سورة الماعون صلاة دخلها هذا الانقسام: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: 4-6]. لم يتركوا الصورة كلها؛ بقيت الصلاة ظاهرة، لكن

الجهة التي تعطيها معناها فسدت. والمرائي يحتاج الناس كي تكتمل عبادته؛ فإذا غابوا خفت النشاط، وإذا حضروا تحسن الأداء، وإذا لم يُذكر اسمه رأى جهده ضائعًا.

وفي الإنفاق قال الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ [البقرة:264].

بدا على الحجر تراب يوهم بالنماء، فلما جاء المطر انكشف الصلد. كذلك العمل الذي صنع منظر الخير ولم يضرب بجذره في الإيمان والإخلاص.

والنفس ماهرة في إخفاء مقصدها عن صاحبها. قد تقول: أريد نشر الخير، وهي تتألم لأن اسم غيرها برز. تقول: أدافع عن الحق، لكنها لا تحتمل أن يظهر الحق على لسان خصم. تقول: أخشى على المشروع، وهي تخشى على موقعها داخله. لا يكفي أن تمنح الدافع اسمًا نبيلًا؛ اختبره عند فقد الحظ الشخصي. إن بقي حرصك على الخير حين لا تُنسب إليه، فهذه علامة سلامة. وإن برد الخير حين غاب اسمك، فقد ظهر موضع يحتاج توبة.

## ثلاثة أعمال عظيمة أكلتها الجهة

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر أول من يقضى عليه يوم القيامة: رجلًا قاتل حتى قُتل، ورجلًا تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، ورجلًا وسّع الله عليه في المال فأنفق. أعمال تبدو في الذروة: بذل النفس، وبذل العلم، وبذل المال. لكن كل واحد واجهه الله بحقيقة قصده: «ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل»، و«تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل»، و«فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل»؛ ثم ذكر عاقبتهم. رواه مسلم (1905).

يهز الحديث الاطمئنان إلى حجم العمل. قد يكون العمل عظيمًا في أعين الناس، بينما أخذ صاحبه أجره الذي طلبه: قيل عنه ما أراد. العبارة «فقد قيل» تكشف فقر الصفقة؛ أعطى عمرًا أو مالًا أو علمًا ليحصل على صوت عابر في أفواه بشر، ثم قدم على الله خاليًا مما زعم أنه أراده له. ليس الخطر في أن يعرف الناس العمل، بل في أن يكون عرفانهم هو المقصود الذي بني عليه.

وفي هذا الحديث خصوصًا تحذير لأهل الخير؛ فالرياء لا يحتاج فعلًا قبيحًا، بل يفضل الأعمال الرفيعة لأنها أقدر على صناعة المنزلة. كلما علا العمل في ميزان المجتمع، زادت قابلية النفس أن تتخذه مرآة لنفسها. العلم يفتح باب القيادة، والصدقة تفتح باب السمعة، والتضحية تمنح صاحبها حصانة من النقد. لذلك يحتاج العامل إلى إخلاص أشد كلما اتسع أثره.

يظن الباحث أنه يكتب لله، ثم يرفض دليلًا يهدم رأيًا اشتهر به. هنا لم تعد المشكلة في مقدمة البحث، بل في الجهة التي يطلب منها قيمته. وقد يظن الداعية أنه يريد هداية الناس، ثم يحزن لنجاح دعوة لم يكن هو في واجهتها. وقد يخدم الأب أسرته ثم يطالبهم أن يسددوا له الدين بالطاعة المطلقة. تتحول القربة إلى عقد خفي مع الناس: فعلت لكم، فأعطوني المنزلة التي أريد.

## حين تختلط المقاصد

سُئل النبي ﷺ عن الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم (2642). يفرق هذا الحديث بين أن يعمل ليُحمد، وأن يعمل لله ثم تأتي المحبة والثناء من غير طلب ولا صناعة. الأول جعل الناس غايته، والثاني وجد أثر فضل الله بعد أن صح قصده. السرور الطبيعي بالقبول لا يساوي الرياء، لكنه يحتاج مراقبة حتى لا يتحول الثناء اللاحق إلى مقصد سابق في الأعمال المقبلة.

وقد يترك بعض الناس العمل خوفًا من الرياء، فيكون قد جعل الناس أيضًا حاكمين عليه: عمل لأجلهم أو ترك لأجلهم. الطريق هو تصحيح النية مع الاستمرار في الخير المشروع. أخفِ ما تستطيع إخفاءه، وأظهر ما تدعو الحاجة إلى إظهاره، واسأل نفسك عند الحالين: هل كان العمل سيبقى لو لم يعرفه أحد؟ وهل أقبل أن ينتفع الناس به وينسى اسمي؟

قال الله عن أهل الإحسان: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9]. لم يشترطوا على المحتاج امتنانًا ولا ولاءً ولا ثناءً. من علامات الإخلاص أن تحرر من أحسنت إليه من عبوديتك؛ لا تجعل صدقتك حبلًا تقوده به، ولا نصيحتك فاتورة، ولا تربيتك ذريعة لمصادرة شخصية ولدك. تعمل لله، وتطلب من الله الأجر، وتحفظ للخلق حقوقهم.

الإخلاص يخفف ثقلًا نفسيًا هائلًا. المرائي يحتاج إلى مراقبة الانطباع في كل لحظة: كيف ظهرت؟ ماذا قالوا؟ هل سبقني غيري؟ أما المخلص فيعتني بصحة العمل ثم يسلمه لله. لا يعني أنه لا يسمع النقد أو لا يحسن العرض؛ بل يستفيد من ذلك بوصفه وسيلة، دون أن يربط وجوده كله به. إذا خفي عمله لم يمت، وإذا نُقد لم تنهدم قيمته، وإذا سبق غيره فرح بوصول الخير.

نادرًا ما تتحرك النفس في الأعمال الواسعة بدافع واحد خالص من كل حظ مباح. قد يطلب المعلم أجرًا، ويحب نجاح طلابه، ويريد نفعهم، ويفرح بمكانته. وقد يكتب المؤلف لبيان الحق ويرجو قبول كتابه وانتشاره. وجود الحظ الدنيوي لا يبطل العمل تلقائيًا؛ السؤال الحاكم: أي المقاصد يملك القرار عند التعارض؟ وهل يبقى حق الله محفوظًا إذا تعارض مع الشهرة أو الربح؟

من الخطأ أن يتظاهر الإنسان أمام نفسه بأنه لا يريد شيئًا من الدنيا، ثم تدير هذه الرغبة عمله من وراء الستار. الصدق أن يسمي المقصد المباح ويضع له حدًا. أريد أجرًا على عملي، لكني لا أبيع الحق. أريد انتشار الكتاب، لكني لا أختلق ما يجذب القارئ. أريد قبول الناس، لكني لا أغير حكم الله لأحصل عليه. حين تُسمى الحظوظ يمكن ضبطها، وحين تُقدس باسم الإخلاص يصعب اكتشاف سلطانها.

وقد يكون للعمل الديني أجر مالي مشروع، ولا يصير صاحبه مرائيًا بمجرد أخذه. الأنبياء أعلنوا أنهم لا يسألون أقوامهم أجرًا في مقام البلاغ، والعلماء فصلوا في أبواب الأرزاق والأعمال. موضع الخطر أن يختار المرء من الدين ما يحفظ السوق، أو يسكت عما يجب بيانه لأن الممول لا يرضى، أو يصنع خطابًا بحسب رغبة الجمهور ثم يسميه حكمة. هنا لا تعود الأجرة أثرًا تابعًا، تصبح مرجعًا يعيد تشكيل الرسالة.

ومن أنفع الأسئلة: ماذا أفعل حين يتناقص حظي الدنيوي ويزداد نفع الحق؟ هل أقبل أن يتقدم شخص أكفأ؟ هل أنشر تصحيحًا يضعف صورتي؟ هل أواصل خدمة لا يعرفها أحد؟ هذه اللحظات لا تمنحك شهادة نهائية في الإخلاص، لكنها تكشف ترتيب المقاصد بما لا تكشفه الخواطر المجردة.

## كيف يحرس القلب قصده؟

يبدأ الحفظ قبل العمل بسؤال واضح: ما الذي أطلبه؟ وقد تختلط المقاصد، فيحتاج العبد إلى ترتيبها لا إلى ادعاء صفاء كامل. من ذهب إلى عمله يريد رزقًا حلالًا، وكفاية أهله، ونفع الناس، وإتقان الأمانة، اجتمعت له مقاصد صحيحة. ومن دخل طلب العلم يريد رفع الجهل عن نفسه وخدمة الحق، ثم وجد في نفسه حب التميز، يجاهد الدافع المفسد ولا يترك العلم.

وأثناء العمل يراقب تغيره بحضور الناس. قال النبي ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به» رواه البخاري (6499) ومسلم (2987). من قصد أن يسمع الناس عمله ويعظموه به فضحه الله وجازاه بقصده. المراقبة هنا لا تعني تشريح كل نبضة حتى يعجز الإنسان؛ تعني ملاحظة الانحراف الواضح ورد القلب إلى الله كلما مال.

وبعد العمل يحذر المن والأذى والعجب. قد يبدأ العمل خالصًا ثم يفسده صاحبه حين يرويه ليبني منزلته، أو حين يرى لنفسه حقًا على الناس. ومن رحمة الله أن باب التوبة مفتوح، وأن الإخلاص يتجدد. لا تقل: فسد قصدي فلا أمل؛ قل: يا رب، هذا العمل لك، فاغفر ما خالطه وأصلح قلبي. العبد لا يعتمد على إخلاصه، بل يفتقر إلى من يخلصه.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم (2564). جمع القلب والعمل؛ فلا تنفع دعوى قلب طيب مع عمل فاسد، ولا تكفي صورة عمل مستقيم مع قلب جعله لغير الله. يريد الله منك باطنًا يصدّق الظاهر، وظاهرًا يترجم الباطن.

اختر عملًا صالحًا تكثر فيه عين الناس: علمًا تنشره، أو صدقة، أو خدمة، أو عبادة ظاهرة. تخيل أن اسمك سيحذف منه كله، وأن شخصًا آخر سيُشكر عليه، وأن الخير سيصل كاملًا. ماذا يبقى من رغبتك؟ الألم الذي تجده لا يحكم عليك وحده، لكنه يدل على موضع المجاهدة. سمِّ الحاجة: هل تريد نفع الناس أم إثبات ذاتك من خلال نفعهم؟

واجعل لك عملًا لا يعرفه أحد قدر استطاعتك، لا لتصنع لنفسك صورة المخلص، بل لتدرب القلب على الاكتفاء بنظر الله. ثم راجع عملًا ظاهراً لا يمكن إخفاؤه، وصحح نيته بدل أن تهرب منه. قل في نفسك قبل البدء: اللهم هذا منك ولك، فلا تجعل حظي منه كلام الناس. وبعده لا تفتش طويلًا عمن أثنى، بل فتش عما يحتاج إصلاحًا.

إذا استقام القصد لله، لم تعد العبودية محصورة في الأعمال التي تحمل أسماء دينية. لكن شمول الحياة لا يُبنى بشعار «كل شيء عبادة»؛ يبدأ من حنيفية تخلع الشريك، ثم تسلم الوجه لله، ثم تحسن العمل على الطريق الذي شرعه. كيف يصير المحيا كله لله من غير أن تذوب الفروق بين الشعيرة والعادة؟

## الوحدة الرابعة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ — محياي ومماتي لله

### من الحنيفية إلى الحياة كلها

حين انكشف لإبراهيم عليه السلام بطلان الآلهة التي عبدها قومه لم يقف عند إسقاطها؛ أعلن الجهة التي أخذت مكانها: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]. جمع الإعلان ميلًا عن الشرك، وإقبالًا على الخالق، ونفيًا صريحًا للانتماء إلى طريق المشركين.

ثم تأتي خاتمة السورة نفسها فتفسر إلى أين يمتد هذا التوجيه:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161-163].

هذا ترتيب يبني المعنى ولا يجمع ألفاظًا متجاورة: هداية من الرب، وصراط مستقيم، ودين قيّم، وملة إبراهيم حنيفًا، ثم صلاة ونسك ومحيا ومات، ثم نفي الشريك. فالحياة لله ليست توسعةً أخلاقيةً تضاف إلى الشعائر، بل ثمرة الحنيفية التي خلعت الشرك واتبعت الطريق الذي شرعه الله.

وإسلام الوجه لا يعني إلغاء الإرادة أو ذوبان الشخصية. قال سبحانه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: 22]. يسلم الوجه لله، ويحسن العمل؛ فيجتمع صدق القصد وصحة الطريق، ولا تصبح العبودية انفعالًا بلا التزام.

تبدأ الآيات بالصلاة والنسك؛ لأنهما من أظهر حقوق الألوهية، ثم تضم المحيا والممات حتى لا تبقى بقية الحياة تحت رب آخر. فلا رب للمحراب ورب للسوق، ولا مرجع للصلاة ومرجع مستقل للعمل والأسرة. الذي تُخلص له الذبيحة هو الذي تضبط بأمره التجارة والعلاقة والوقت.

ومعنى أن يكون محياك لله لا أن تتحول العادات كلها إلى شعائر متشابهة، ولا أن تنقطع عن المباحات. تنام لأن الجسد له حق، وتأكل وتأنس بأهلك وتعمل وتربح؛ لكنها تدخل تحت العهد: مصدرها حلال، وطريقتها مشروعة، وقصدها لا يناقض العبودية، ولا تستولي حتى تمنح نفسها حق تعطيل أمر الله.

وحكى الله عز وجل عن قوم قارون قولهم له:

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

المال الذي في يدك مادة امتحان ووسيلة آخرة، ومع ذلك لم يؤمر صاحبه بإلغاء نصيبه المباح من الدنيا. الممنوع أن تنقلب النعمة إلى ربٍّ يطلب الطاعة، أو إلى غاية تخلع عن أمر الله سلطانه. تتلقى المباح نعمةً لا إلهًا، ووسيلةً لا وجهةً أخيرة.

## كيف تتحول العادة إلى قربة؟

تدخل العادة في الأجر حين يقصد بها العبد وجه الله أو ما يحبه، ويلتزم حدوده فيها. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك» رواه البخاري (56) ومسلم (1628). لقمة في حياة زوجية مألوفة ترتفع بالقصد من عادة ورحمة طبيعية إلى أجر مكتوب، من غير أن تفقد بساطتها الإنسانية.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ فقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» رواه مسلم (1006). لم يصنع الإسلام خصومة بين الفطرة والعبادة، بل ضبط الفطرة بالحلال، وربطها بالمسؤولية والنية، فصار إشباعها المشروع بابًا من أبواب الأجر.

وعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» رواه البخاري (2072). الكسب ليس منطقة أدنى من الدين؛ قد يكون عفةً وأمانةً وقيامًا بحقوق الأهل ونفعًا للناس. غير أن العمل لا يصير عبادة بمجرد الإرهاق، بل حين يكون حلالًا، وتؤدى فيه الحقوق، ولا يصد عن واجب، ويقصد به ما يرضي الله.

النية الصالحة لا تغطي فساد الوسيلة. من قال: أربح لأعف أسرتي، ثم كذب وغش وأكل الربا، لم تجعل الغاية الحسنة طريقه عبادة. ومن قال: أبني مستقبل أبنائي، ثم غاب عن تربيتهم وأكل أعمارهم في سباق المكانة، يحتاج إلى مراجعة تعريف المستقبل. العبادة لا تزين المشروع بعد بنائه؛ هي التي تختبر أساسه وحدوده وأثره.

## يوم واحد بوجهة واحدة

يبدأ يوم المؤمن بصلاة تعلن العهد، ثم يخرج إلى الأرض. قال تعالى بعد صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]. الانتشار وطلب الفضل لم يأتيا بعد انقطاع الصلة بالله، صحبهما الذكر. وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. بين السعي والنشور تمتد حياة مسؤولة.

ومن هنا يحكم هذه الوحدة سؤال واحد: ما الجزء الذي أعيشه كأنه خارج قول الله: «محياي لله»؟ لا تتغير الإجابة بكثرة الشعارات، وإنما بالطريقة التي يدخل بها أمر الله إلى البيت والعلم والعمل والمال والخلوة. وكل تطبيق آتٍ ليس ملفًا مستقلًا، بل صورة لهذا السؤال الواحد.

يدخل البيت تحت معنى «محياي لله» حين تتحول القوامة من امتياز إلى أمانة، والبر من عادة اجتماعية إلى طاعة، والتربية من صناعة نسخة من الوالدين إلى دلالة الأبناء على الله. قد يكثر كلام الأب عن الدين بينما تحكم البيت رغبته في السيطرة أو خوفه من كلام الناس. الوجهة لله تضع عادات العائلة تحت الشرع، وتحفظ الرحمة والعدل، وتمنع استعمال اسم الطاعة لستر الظلم.

وفي ميدان العلم يظهر السؤال نفسه: هل أطلب الحق، أم أطلب السلاح الذي أغلب به خصمي؟ يكون العلم لله حين يذكر الباحث ما يخالف فرضيته، ويقبل الشيخ تصحيحًا من تلميذ، ويؤدي الناقل أمانة النص ولو أضعفت رأيه. فإذا صار العلم حصانةً للذات، فصل صاحبه بين سجوده في الصلاة وخضوع عقله لصورته.

أما العمل فيدخل تحت «محياي لله» في تفاصيل لا يراها الجمهور: ساعة لا تُسرق، وتقرير لا يزوّر، ومال عام لا يستباح، وموظف ضعيف لا يُظلم، وقرار لا يبرر الحرام باسم ضغط المؤسسة. هذه الجزئيات المهنية مواضع عبودية؛ فالأمانة ليست فضيلة إدارية فحسب، وإنما طاعة للذي أمر بها.

وتشتد الحاجة إلى هذا المعنى في البيئة الرقمية، حيث يسهل أن يصنع الإنسان لنفسه شخصيةً واعظة ثم يقيس قيمته بالأرقام، أو يقسو في الخصومة ليحفظ التفاعل، أو ينشر خبرًا لم يتحقق منه لأنه يوافق جماعته. أن يكون حضورك الرقمي لله يعني أن يسبق الصدق الانتشار، وأن تُصان أعراض الناس، وأن تقبل خفوت اسمك إذا كان في ذلك سلامة دينك.

لا يذم القرآن التجارة لذاتها، وإنما يكشف موضعها من القلب:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: 37].

هؤلاء في تجارة وبيع، لكن السوق لم يملك الكلمة الأخيرة. الفارق ليس في وجود المال، بل في القدرة على تركه حين ينادي الحق، وأداء حق الله والخلق فيه.

تتسلل التجزئة حين يقول الإنسان: هذه ضرورات العمل. تتسع الضرورة حتى تشمل كذبًا صغيرًا، ثم مجاملة ظالمة، ثم عقدًا محرمًا، ثم صمتًا عن حق. كل خطوة تبدو منفصلة، لكن مجموعها يكشف من يملك الوجهة. لا يبدأ استعباد السوق غالبًا بإنكار صريح لأمر الله؛ يبدأ بإعادة تسمية التنازل: مرونة، احتراف، فهم للواقع. ثم يصبح ما كان مستثنى هو القاعدة.

والأسرة والمال والمكانة محبوبات مشروعة، لكن القرآن يضعها تحت الاختبار:

ويضع القرآن هذه المحبوبات كلها تحت ميزان واحد: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: 24].

لم يذم الآباء والأبناء والتجارة والمساكن؛ وإنما أدخلها في سؤال «محياي لله»: هل تبقى نعمةً في موضعها، أم تأخذ حق تعطيل أمر الله؟

هنا يكفي أن تعرف أن الأسرة والمال والمكانة ليست خارج العبودية. يظهر صدق «محياي لله» حين تحفظ حقوقها من غير أن تجعلها المرجع الأعلى، وحين يبقى السوق في يدك ولا ينتقل إلى قلبك.

## بين الرهبانية والغفلة

يفهم بعض الناس شمول العبادة على أنه تضييق دائم على النفس، وكأن القرب من الله لا يتحقق إلا بمفارقة الفرح والمباح. والقرآن علّم المؤمن أن يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 201]. حسن الدنيا مطلوب، لكنه لا ينفصل عن حسن الآخرة ولا يُشترى بعذابها. يأخذ المؤمن طيباته بشكر، ولا يجعلها دليل كرامته المطلق ولا محور وجوده.

والطرف الآخر يحصر العبادة في الشعائر، ثم يطالب أن تُترك له الحياة الخاصة بلا سؤال. كأن الأمانة، ونظافة الكسب، وعدل الحكم، وصدق البحث، ورعاية الأهل شؤون محايدة. هذا الانقسام يمنح الإنسان

راحة مؤقتة، يستطيع أن يرى نفسه صالحًا في دائرة صغيرة، ولا يفتح بقية الدوائر للنور. لكنه يخالف الآية الجامعة التي أتبعت الصلاة والنسك بالمحيا والممات.

الوسط أن تحفظ لكل عمل حكمه وموقعه، وتجمعها كلها تحت رب واحد. الصلاة لا تصبح كالنوم، والنوم لا يصبح صلاة، لكن النوم قد يؤجر عليه بنية الاستعانة به على الطاعة، وقد يأثم به إذا ضيع واجبًا. التجارة ليست ذكرًا باللسان، لكنها قد تكون طاعة بالأمانة، وقد تكون معصية بالغش. المحبة الطبيعية ليست عبادة، لكنها تدخل في امتحان العبودية حين تنازع الأمر.

## ومماتي لله

لم تقل الآية: محياي لله فحسب، بل ضمت إليه الممات. الموت ليس دائرة يستطيع الإنسان أن يدير تفاصيلها، لكنه يستطيع أن يعيش على وجهة يرجو أن يختم له بها، وأن يترك بعده ما يشهد لعبوديته. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]. لا يملك أحد لحظة موته، لكنه يملك، بتوفيق الله، أن يسلك الطريق الذي يرجو أن يلقاه الموت عليه.

الاستعداد للموت لا يعني كراهية الحياة أو تعطيل عمارتها. نهى النبي ﷺ عن تمني الموت لضر نزل، وقال: «اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي» رواه البخاري (5671) ومسلم (2680). الحياة ميدان عبادة وزيادة، والموت انتقال إلى الجزاء. العبودية أن تفوض الاختيار لله، وتستثمر ما بقي من العمر فيما يرضيه.

ويكون الممات لله حين لا يجعل الإنسان آخر أيامه رهينة خصومات ومظالم لم يردها، أو أموال اختلطت بالحرام، أو أسرار أمانة تركها بلا بيان. من صدق في قوله: ومماتي لله، راجع ما سيتركه وراءه: ديونًا، وحقوقًا، ووصيةً عادلة، وعلمًا، وأبناء، وأثرًا في الناس. لا يطلب تخليد اسمه، يطلب أن يبقى خير يرضاه الله بعد انقطاع صوته.

قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم (1631). يفتح الحديث للمحيا أفقًا بعد الممات: مال يُحبس على نفع، وعلم يصدق فيستمر، وتربية تنشئ ولدًا صالحًا لا مجرد حامل للاسم. قد يورث المرء أبناءه مالًا كثيرًا ويتركهم فقراء من المعنى، وقد يترك مالًا قليلًا وقلبًا يدلهم على الله.

ومماتي لله تعني كذلك ألا تصبح الخاتمة مشروع صورة. بعض الناس يبني أعمالًا ليوصف بعد موته بما يحب، ويهمل السؤال: هل قبلها الله؟ المؤمن يحسن الذكر بعمل صالح، لكنه لا يعبده. يوسف عليه السلام،

بعد الملك والعلم واجتماع الأهل، لم يختم مشهده بالفخر بما بلغ، بل قال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

حين يحضر الموت في معنى المحيا، تتغير المقاييس من غير أن تظلم الحياة. يصغر جدال كان يستهلك القلب، ويظهر حق مؤجل، وتتكشف هشاشة المنزلة التي قاتل المرء عليها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: 18]. الغد هنا لا يلغي اليوم؛ يمنحه وجهته الصحيحة.

## ما الجزء الذي بقي خارج الوجهة؟

ضع يومك أمام السؤال: ما الدائرة التي ما زالت تعيش كأنها خارج قول الله: ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾؟ قد تكون مالًا، أو أسرةً، أو عملًا، أو حضورًا رقميًا. هناك موضع تكثر فيه التبريرات، ويتغير فيه المعيار بين السر والعلن، ويصعب أن تقول: هذا لله وحده.

اختر دائرة واحدة. إن كان المال، راجع عقدًا أو حقًا أو مصدرًا، ولا تجعل خوف الرزق يحلل الحرام. وإن كانت الأسرة، فاحفظ الرحمة والبر، ولا تجعل المحبة طاعةً في المعصية. وإن كانت الصورة، فاعمل خيرًا يمكن أن يصل كاملًا ولو غاب اسمك.

ثم فتش عن الباب الذي يأتيك منه العدو: أيعدك بالفقر؟ يزين لك التأجيل؟ يقنعك أن كثرة السقوط أغلقت طريق الرجوع؟ استعذ بالله، واذكره، واقطع الخطوة الأولى. لا تكتفِ بمراقبة نفسك حتى تتعب؛ الجأ إلى ربك وافعل ما يغلق المدخل.

أنت عبد ينسى ويضعف ويتوب. فلا تبنِ صورة كمال، بل رد أجزاء حياتك إلى الله كلما شردت. وقد انتهى المحور إلى أن له العبادة الخالصة والقصد الأعلى والمحيا والممات، وأن أول امتحان لهذا العهد محبوب قريب. لذلك يأتي السؤال التالي: من يملك قلبك؟

# المحور الثاني: من يملك قلبك؟

في المحور السابق اتضح أن الله وحده هو الإله، وأن الدعاء والنسك والقصد والمحيا والممات ترجع إليه. غير أن الحياة لا تتحرك بالأحكام وحدها؛ في القلب قوة تمنح الأشياء وزنها، وتجعل التضحية محتملة أو مستحيلة. تلك القوة هي المحبة.

قد يعرف الإنسان الحكم، ثم يتباطأ لأن محبوبًا آخر يشده. وقد يحافظ على صورة الطاعة، بينما يكشف خوفه ورضاه وغضبه أن قلبه موزع. والمحبوب لا يطلب دائمًا سجودًا ظاهرًا؛ يكفي أن يمنحه القلب حق تعطيل أمر الله، أو يجعل فقده أشد من فقد الطاعة.

لذلك لا يسأل هذا المحور: هل تحب الله؟ بل: أي محبة تملك القرار؟ يبني القرآن قلبًا لا يقتل الفطرة ولا يجعل الأهل والمال والجمال أعداء، لكنه ينزع عنها مقام الندية، ويجعل محبة الله أعلى؛ ثم يضبط الخوف والرجاء والتوكل، حتى تنكشف الوجهة عند التعارض.

## الوحدة الخامسة: والذين آمنوا أشد حبًا لله

### القلب لا يبقى بلا محبوب أعلى

لا يعيش القلب بلا تعلّق. إن لم يجتمع على محبوب أعلى توزّع بين وجوه تطلب منه الوقت والخوف والرجاء والتضحية. يحب الإنسان أهله وماله ومكانه وصورته ونجاحه، وهذه المحبات من فطرته، غير أن اجتماعها لا يصنع له وجهة. قد يربح بعضها ويظل خائفًا من فقد الآخر، وقد يرضي شخصًا فيغضب جماعة، وقد يملك ما طلب ثم يكتشف أن قلبه صار أسيرًا لما ملك.

قبل أن يذكر القرآن الأنداد في المحبة، يفتح للعين كتاب الكون، ويقرر أن الإله واحد: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 163–164]، ثم يأتي كشف القلب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ

لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165]. لم تبدأ المشكلة من وجود المحبة، فالإنسان لا يعبد ما لا يعظمه ولا يحبه. بدأت حين مُنح غير الله من المحبة ما يجعله ندًّا، وحين صار للمخلوق في القلب تعظيم وخضوع وتقديم ينازع حق الخالق.

الأنداد في الآية آلهة عُبدت من دون الله، ويدخل في معناها كل من جُعل شريكًا في محبة العبادة. وليس كل محبوب ندًّا؛ فمحبة الوالد والولد والزوج والصديق والوطن والطعام محبة طبيعية، وقد تكون طاعةً إذا ضبطها أمر الله. الندّ ينشأ حين تبلغ المحبة غايةً من التعظيم والذل لا تكون إلا لله، أو حين يُمنح المحبوب حقًا يناقض أصل العبودية. أما المسلم الذي يعصي ضعفًا لأجل محبوب مع إقراره بحكم الله وندمه، فلا يُسوّى بمن جعل المحبوب شريكًا لله؛ ضعفه يحتاج توبةً ومجاهدة، ولا يجوز أن يُحمّل حكم الشرك بمجرد المعصية.

أما المؤمنون فجعل القرآن علامتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165]. ليست الشدة مجرد تفوق نسبي يبقي لكل محبوب حقًا في منازعة الله ثم يجعل الله أعلى بدرجة؛ معناها أن محبة العبادة والسيادة لله، وأن يُخلع عن كل محبوب حق الندية ورد الأمر. وتبقى في القلب محبات طبيعية كثيرة، لكنها تتحرك تحت هذه المحبة ولا تقف معها في مقام واحد.

## محبة تعرف من تحب

لا تنشأ محبة الله من فراغ، ولا تُستخرج من القلب بتكرار كلمة الحب وحدها. كلما عرف العبد ربه بأسمائه وآلائه وأفعاله، رأى أن كل نعمة وصلت إليه فمن الله، وأن كل جمال أحبه أثر من آثار خلقه، وأن كل رحمة وجدها قطرة من رحمته. المحبة التي لا تتغذى من المعرفة تضعف أمام أول محبوب محسوس؛ لأن القلب يقارن حاضرًا يراه بمعنى ديني لم يتأمله.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: 53]. تجمع الآية أصلين يغذيان المحبة: كل نعمة منه، وكل افتقار ينتهي إليه. فإذا رأى العبد في صحته وعقله وأهله وهدايته آثار إحسان ربه، لم تعد العبادة واجبًا باردًا، بل جواب قلب عرف المنعم. وإذا نزل به الضر لم يكتشف الله لأول مرة؛ عاد إلى من كان يحبه في السعة.

ومعرفة الله لا تختزل في تعداد النعم؛ يعرفه العبد بأسمائه وصفاته، فيحب رحمته، ويعظم حكمته، ويطمئن إلى علمه، ويستحي من ستره، ويشتاق إلى لقائه. وكلما اتسع هذا العلم ضاق سلطان المحبوبات المحدودة؛ فهي جميلة بما وهبها الله، ومحبوبة في الحد الذي وضعه، ولا تستطيع أن تمنح القلب ما لا يمنحه إلا ربه.

ومن هنا جاء الأمر: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]؛ فمعرفة الأسماء باب دعاء وعبادة ومحبة، لا مادةً ذهنية منفصلة.

ولهذا يقرن القرآن المحبة بمنة الله وهدايته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]. يبدأ الفضل من قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾؛ فمن محبته لهم أن هداهم إليه، وفتح قلوبهم للإيمان، وأعانهم على ذكره وطاعته، ثم أثمرت تلك العناية: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. ليست محبة العبد بطولة مستقلة يزكي بها نفسه؛ هي نعمة يسأل ثباتها ويخاف أن يحجبها عنه ذنبه وغفلته.

ومن معرفة الله أن تعرف أنه كامل لا يُحب لمجرد عطائه العاجل. كثير من العلاقات البشرية تقوم على المقايضة: أحبك ما دمت تمنحني ما أريد، فإذا منعتني انقلب الرضا عتبًا. وقد يتسلل هذا المعنى إلى علاقة العبد بربه من غير أن يسميه: يطمئن ما دامت الأبواب تفتح، فإذا جاء المنع أو التأخير بدأ يراجع محبته وكأن الله كان وسيلةً إلى مطلوب آخر. محبة العبادة ترى عطاء الله فضلًا، ومنعه حكمة، وأمره حقًا، وتعرف أن الرب محبوب لذاته وكماله، لا لأن تدبيره جاء دائمًا على الصورة التي اختارها العبد.

والقلب يتعلم المحبة بالذكر؛ لأن الغفلة تقرّب المحسوس وتبعد الغيب. من أكثر من ذكر الناس وأخبارهم وصور نجاحهم تضخمت مقاديرهم داخله، ومن عاش مع أسماء الله وكلامه ونِعمه ولقائه صار حضور الله في قلبه أقوى. الذكر هنا ليس حركة لسان منفصلة، بل استحضار يعيد الحجم الحقيقي للأشياء: الله أكبر، وكل ما سواه عبد محدود زائل.

### «وجد حلاوة الإيمان»

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار» رواه البخاري (16) ومسلم (43).

الحديث لا يجعل المحبة فكرةً تضاف إلى الإيمان، بل يجعل ترتيبها بابًا إلى مذاقه. قد يعرف الإنسان صحة الطعام ولا يذوقه، وقد يقرر أدلة الإيمان ويبقى قلبه قليل الأنس به. أما الحلاوة فثمرة استقرار

المحبوب الأعلى: حين لا تتجاذب القلب محبوباتٌ متنازعة، وحين يصبح رضا الله أغلى من تصفيق الناس، وحين يحب الإنسان أخاه لله لا لما يضيفه إلى مكانته، وحين يرى فقد الإيمان أشد من ألم النار.

وحلاوة الإيمان ليست نشوةً دائمة ولا انفعالًا عابرًا. قد يجدها المؤمن في دمعة، وقد يجدها في قوة يمتنع بها عن معصية يحبها، أو في سكينة حين يفوته ما طلب، أو في انشراحه بطاعة لم يكن يميل إليها. وربما غاب الإحساس وبقي الوفاء؛ فيقوم العبد إلى الصلاة وهو متعب، ويترك الحرام وقلبه ينازعه، ويثبت لأن الله يستحق الطاعة. هذا الثبات من آثار المحبة وإن لم يصحبه شعور مرتفع في كل لحظة.

يجمع الحديث بين حب الله ورسوله، ثم ينقل المحبة إلى الناس «لا يحبه إلا لله». إذا استقامت المحبة العليا أعادت تشكيل العلاقات: لا يعود القرب مبنيًا كله على النفع، ولا يصبح الخلاف الدنيوي سببًا لمحو فضل المؤمن، ولا تتحول الصحبة إلى عقد مصالح صامت. يحب العبد ما يحبه الله، ويقصد بمحبته نصرة الخير في صاحبه، فينصحه إذا أخطأ ولا يشتري رضاه بالسكوت.

ويكشف آخر الحديث أن المحبة تُعرف بما يكره القلب فقده. قد يقول الإنسان إن الدين أعظم محبوباته، لكن أشد ما يفزعه خسارة مال أو مكانة أو علاقة. لا يُلام على الألم الطبيعي، وإنما يحتاج أن يسأل: هل يهون علي أن أخسر شيئًا من ديني كي أحفظ ذلك؟ المؤمن يكره الرجوع إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار؛ لأنه رأى الإيمان حياةً لا بطاقة هوية، ورأى البعد عن الله هلاكًا ولو بقيت له الدنيا.

## علامات المحبة لا دعاواها

المحبة الباطنة لا يطلع عليها الناس، لكن القرآن لا يتركها بلا علامات. قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]. سيأتي الاتباع مفصلًا في موضعه، لكن الآية هنا تقيم ميزانًا أوليًا: المحبة التي لا تغير الطريق دعوى لم تدخل بعد في قيادة الحياة. من أحب طلب قرب المحبوب، ورضي برسالته، وفرح بكلامه، وقدم ما يحبه على ما تهواه نفسه.

ومن علاماتها كثرة الذكر؛ فالإنسان يكثر من ذكر ما امتلأ به قلبه، غير أن الذكر وحده لا يكفي إذا صار لسانًا بلا اتباع. ومن علاماتها الأنس بالطاعة، لكن المؤمن قد يثقل أحيانًا ثم يجاهد. ومن علاماتها الغيرة على حدود الله، بشرط ألا تتحول الغيرة إلى ظلم أو طلب علو للنفس. ومن علاماتها تقديم أمره عند التعارض، وهذا هو المحك الأصدق؛ لأن المحبوبات تتعايش في القلب ما دامت لا تتنازع القرار.

وتكشف بقية الآية آثار هذه المحبة في السلوك: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54]. فهي لا تنتج قلبًا مدللًا يطلب الراحة دائمًا، ولا قسوةً تتلذذ بالخصومة؛ بل تواضعًا لأهل الإيمان، وثباتًا للحق، واستعدادًا لتحمل كلفة الطريق من غير عبودية للسمعة.

ومن أصدق آثار المحبة أن ترد العبد إلى التوبة. الذي يحب الله لا يرضى أن يطول بينه وبينه حجاب الذنب. قد يسقط، لكن سقوطه يؤلمه لأنه خالف من يحب، لا لأن صورته اهتزت أمام الناس فقط. أما من كان معبوده الخفي صورته، فإنه يخاف انكشاف الذنب أكثر من الذنب، ويطلب ستر السمعة قبل إصلاح القلب.

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه» رواه البخاري (6502). يبدأ طريق المحبة من الفرائض؛ فلا تعوّضها انفعالات ولا أعمال يختارها العبد لنفسه، ثم تنمو بالنوافل حتى تتحول المحبة إلى تسديد للسمع والبصر والحركة. هنا لا تبقى محبة الله دعوى في القلب؛ تصبح طريقًا متكررًا من فعل ما يحبه الله.

## حين تنافس الصورةُ المحبوبَ الحق

من أخفى منافسي محبة الله رغبةُ الإنسان في أن يكون محبوبًا عند الناس. هذه الرغبة في أصلها طبيعية، وقد تكون نعمة إذا أعانت على حسن الخلق. لكنها تتضخم حين تصبح قيمة الإنسان كلها معلقة بنظر الآخرين. عندئذ لا يسأل: ماذا يحب الله؟ بل: كيف سأبدو؟ وقد يفعل الطاعة ليُرى، أو يترك واجبًا لئلا يخسر القبول، أو يغير موقفه كلما تغير جمهور المجلس.

في البيئة الرقمية لا يحتاج القلب إلى صنم منصوب؛ تكفيه شاشة تبلغه كل لحظة مقدار الالتفات إليه. يتعلم سريعًا أي كلام يجلب التفاعل، وأي موقف يهدد المتابعين، ثم يبدأ بتعديل منطقه ونبرته واختياراته. لا يكون كل حرص على حسن العرض رياءً، ولا كل فرح بقبول الناس فسادًا؛ إنما الخطر أن تتحول الاستجابة الرقمية إلى بوصلة تسبق سؤال الحق.

وقد تتصل الصورة بدائرة يحبها الإنسان: أسرة، أو شيخ، أو تخصص. لا يحتاج هنا إلى تفصيل أحكام الانتماء؛ يكفي أن يلاحظ موضعًا واحدًا: هل يصعب عليه الاعتراف بخطأ المحبوب لأن الخطأ يمس صورته هو؟ محبة الله تحفظ الفضل ولا تمنح العصمة، وتعينه أن يقول الحق من غير تشفٍّ ولا خيانة.

والقلب لا يعلن هذا الترتيب صراحة. يقول: الحكمة تقتضي الصمت، أو الوقت غير مناسب. وقد يكون ذلك صحيحًا، لكن العذر ينكشف حين يعمل دائمًا في اتجاه واحد: يحمي الصورة نفسها مهما تغيرت الوقائع، ولا يؤجل إلا الحق الذي يكلّفه قبول الناس.

### محك المحبوب الأعلى

لا تقس محبة الله بحرارة كلمة تقولها في مجلس مؤثر، ولا بما تتمناه لنفسك، بل انظر إلى المواضع التي يُطلب فيها ثمن. ما المعصية التي لا تزال تؤجل تركها لأن لها في قلبك لذةً أو علاقةً أو دخلًا؟ وما الطاعة التي تعرفها لكنك تخشى أن تغير صورتك أو نظام راحتك؟ وما الشخص الذي يصعب عليك رد خطئه؟ هناك يظهر ترتيب المحبوبات.

اختر موضعًا واحدًا لا قائمة طويلة. سمِّ المحبوب الذي ينازعك فيه: مالًا، أو مدحًا، أو راحةً، أو شخصًا، أو انتصارًا لرأي. ثم اسأل الله محبته ومحبة ما يقرب إليها، وابدأ بفعل يثبت الترتيب: تركٍ واضح، أو طاعة مؤجلة، أو اعتراف بحق، أو وقت خالص للذكر لا يراه أحد.

إن كانت محبة الله هي الأعلى، فإن الطريق إلى رضاه لا يبتكره القلب من عنده. لا يكفي أن يقول الإنسان: أحب الله، ثم يختار صورة المحبة التي توافق ذوقه. لذلك تنتقل الآية من الدعوى إلى الاتباع، وينتقل المحور من محبة الله إلى سؤال لا ينفصل عنها: ما موقع رسول الله ﷺ في قلبك وقرارك؟

## الوحدة السادسة: حتى أكون أحب إليه

### محبة تصل القلب بالرسالة

لا يعرف العبد ربه من تلقاء نفسه، ولا يحدد كيف يعبده بذوقه. جاءه رسول من عند الله يتلو آياته، ويبين أمره ويُريه العبودية في سيرته وهديه؛ بشرًا يأكل ويمشي ويتزوج ويحكم ويصبر ويرحم. لذلك لم تكن محبة النبي ﷺ عاطفةً مضافة إلى الدين، وإنما صلة القلب بالطريق الذي اختاره الله له.

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 31-32]. وضعت الآيتان دعوى المحبة تحت محك واضح: اتباع الرسول ﷺ. والجزاء أعظم من أن تكون أنت محبًا فقط: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. كأن الطريق من محبة العبد إلى محبة الرب يمر من باب الاتباع؛ لأن الرسول لا يدعو إلى نفسه، وإنما يحمل أمر من أرسله.

محبته ﷺ من محبة الله، لا ندّ لها. نحب الله محبة عبادة وتأله لا تكون لغيره، ونحب رسوله لأنه عبده ورسوله، ولأن الله أمر بمحبته وطاعته وتوقيره، ولأنه دلنا على الله، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وكان رحمةً للعالمين. وكل غلو يرفعه فوق مقام العبودية يخالفه، وكل جفاء ينقص حقه يقطع القلب عن هديه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. لم تجمع الآية الإيمان به وتوقيره ونصره ثم تترك الطريق مفتوحًا، بل ختمت: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾. المحبة الصحيحة لا تحبس النبي ﷺ في الذكرى ولا تكتفي بالدفاع عن مكانته؛ تتلقى النور الذي جاء به، وتسمح له أن يعيد تشكيل العادات والآراء والأولويات.

## «لا يؤمن أحدكم»

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» رواه البخاري (15) ومسلم (44). الحديث لا يلغي محبة الوالد والولد؛ النبي ﷺ نفسه كان أرحم الناس بأهله وأمته. لكنه يقرر أن محبته مقدمة حين تتعارض الجهات، وأن حقه في القلب ليس كحق شخصية تاريخية عظيمة، بل حق الرسول الذي لا يصل أمر الله إلينا إلا من طريقه.

هذه المحبة من كمال الإيمان الواجب، ويظهر نقصها بقدر ما يقدم العبد هواه أو قول غيره على هديه. وليس معنى الحديث أن كل خاطر طبيعي أو شدة تعلق بالأهل يخرج الإنسان من الإيمان؛ المحبة الطبيعية لها حرارة فطرية لا تُقاس دائمًا بالشعور نفسه. المعيار أن يكون حكم الرسول وحقه ونصر سنته مقدمًا عند التعارض، وأن يرضى القلب بقيادته ولو وجد ألم المجاهدة.

ويكثر الثناء على النبي ﷺ أحيانًا حتى يظن صاحبه أن كثرة القول وحدها ميزان المحبة، مع أن المحبة لا تقاس بالصوت. قد يبكي عند سماع سيرته ثم يعرض عن سنة خالفت عادته، أو يغضب ممن انتقصه ثم يستهين بأمر ثابت عنه. الدفاع عن جنابه عبادة، والصلاة والسلام عليه عبادة، والفرح بهديه عبادة؛ غير أن هذه كلها لا تعوض ترك الاتباع حين يبلغ الأمر موضع الكلفة.

ومن دقائق الحديث أنه قال: «والناس أجمعين». فقد يكون المنافس عرف المجتمع، أو رأي شيخ محبوب، أو ثقافة مهنية، أو ذوق جمهور. محبة الرسول تحرر المؤمن من أن يجعل عصره حاكمًا على سنته. لا تعني رفض الخبرة أو تغير الوسائل، وإنما تعني أن الثابت من هديه لا يفقد سلطانه لأن الناس استثقلوه أو أعادوا تسميته.

## الأولى بالمؤمن من نفسه

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: 6]. هذه الأولوية ليست منافسةً بين الرسول والنفس على منفعة دنيوية؛ نفسه ﷺ لا تطلب منهم حظًّا، وإنما يقودهم بوحي الله إلى ما تنجو به أنفسهم. قد تريد النفس لذتها العاجلة، ويأتي هديه بما يحفظها من هلاك لا تراه؛ فكان أولى بها من رأيها المحدود وهواها المتقلب.

### «الآن يا عمر»

كان رسول الله ﷺ آخذًا بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال له النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك». فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر» رواه البخاري (6632).

قال عمر ما وجده بصدق، فلم يجامل نفسه ولا رسول الله ﷺ. ولم يطلب منه النبي أن يخفي هذا الترتيب، بل أعاد بناءه. وفي لحظات قليلة انتقل عمر من وصف الطبع إلى حكم الإيمان. ليس المعنى أنه صنع انفعالًا لحظيًا بأمر، وإنما أدرك أن نفسه لا تعرف مصلحتها إلا من طريق الرسول، وأن بقاءها ونجاتها الحقيقية متوقفة على هديه؛ فصار أحب إليه من النفس التي قد تهلك إذا اتبعت هواها.

تكشف القصة أن القلب قابل للتربية. بعض الناس يعامل ترتيب محبوباته كأنه قدر لا يتغير: أنا هكذا، وهذه طبيعتي، ولا أملك قلبي. لكن عمر راجع نفسه تحت كلمة النبوة. المحبة لها أصل وهبي، ولها أسباب تُنمّى: معرفة السيرة، واستحضار فضله، والصلاة عليه، واتباع سنته، ومجاهدة ما يخالفها. كل طاعة صادقة تزيد الصلة، وكل إعراض متكرر يورث وحشة وإن بقيت الدعوى.

وفي قوله ﷺ: «الآن يا عمر» تكريم للصدق لا إذلال له. الدين لا يطلب من الإنسان أن يدعي مرتبة لم يبلغها، بل أن يعترف بالنقص ويقبل إصلاحه. وقد يقرأ المؤمن الحديث فيكتشف أن سنةً واحدة لا يزال يقدم عليها راحته أو صورته. المطلوب ألا يحول الاكتشاف إلى يأس، بل إلى لحظة «الآن»: الآن أبدأ في تقديم هديه.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الساعة، فرده النبي إلى ما أعد لها. قال الرجل: ما أعددت لها إلا حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «فإنك مع من أحببت». قال أنس رضي الله عنه: «فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: فإنك مع من أحببت» رواه البخاري (3688) ومسلم (2639). لم يفهم الصحابة البشارة إعفاءً من العمل؛ فرحوا لأن المحبة الصادقة تلحق القلب بمن أحب، وتفتح للمقصر باب الرجاء من غير أن تسوي بين الدرجات.

هذا الفرح نفسه يمتحن المحبة: من أحب النبي ﷺ أحب صحبته في الآخرة، ومن طلب صحبته أحب الطريق الذي سار فيه. لا تتحول البشارة إلى أمن ساكن، بل إلى شوق يدفع إلى الاقتداء؛ فالمرء مع من أحب، وكل يوم يكشف إلى أي طريق تقوده محبته.

## المحبة التي تتبع النور

تظهر محبة النبي ﷺ في التصديق التام بما صح عنه، وفي قبول حكمه، وفي التأسي به بحسب الاستطاعة، وفي نصرة سنته بالعلم والعدل والخلق. لكنها لا تعني أن تتحول كل عادة فعلها إلى عبادة لازمة، ولا أن يخلط المرء بين هديه التشريعي وما جرى بمقتضى الجبلة أو العرف. المحبة الواعية تسأل أهل العلم، وتعرف درجات الأحكام، فلا تجعل المستحب فرضًا ولا المباح سنةً ملزمة.

ومن الاتباع أن يحب المؤمن ما جاء به الرسول ولو خالف ذوقه المتشكل في بيئة أخرى. فالذوق نفسه يحتاج تربية. قد يستثقل خلق العفو لأنه تربى على الانتقام، أو يرى الرفق ضعفًا، أو يعد الصدق سذاجةً في سوق المنافسة. لا يكفي أن يضع السنة في الشعائر ثم يترك أخلاقها خارج العمل والبيت. الذي اتبع النور جعل الصدق والأمانة والرحمة والعدل جزءًا من محبته للنبي ﷺ.

ويظهر الاتباع في طريقة طلب العلم: فلا ينتقي المرء من السنة ما يؤيد موقفه ويهمل ما يصحح غلوه أو تقصيره. محبته ﷺ تعني جمع هديه وقبول ما يربي النفس، لا صناعة صورة من السنة توافق المزاج ثم تسميتها اتباعًا.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]. الأسوة لا تعني نسخ تفاصيل الحياة بلا فقه، وإنما اتخاذه ﷺ قائدًا في العبادة والخلق والصبر والموقف. ومن كان يرجو الله واليوم الآخر لا يكتفي بالإعجاب؛ يراقب كيف صلى، وكيف عامل أهله، وكيف عدل مع خصومه، وكيف ثبت، ثم يسأل: أين يكون هديه في هذا القرار؟

## بين الغلو والجفاء

قد يظن الغالي أن المحبة تبيح له أن ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله، أو يدعوه من دون الله، أو يصرف له شيئًا من خصائص العبادة. وهذه ليست زيادةً في المحبة؛ هي مخالفة للتوحيد الذي جاء به. أعظم الناس حبًا له أصحابه، ولم يعبدوه، وعرفوا أنه عبد الله ورسوله، وأن رفعه فوق منزلته ردّ لرسالته باسم تعظيمه.

وفي الطرف الآخر جفاء يجعل الحديث عنه باردًا، أو يحصر سنته في معلومات تاريخية، أو يرى الصلاة عليه والفرح بسيرته لونًا من العاطفة الزائدة. القلب يحتاج العلم والمحبة معًا؛ فالعلم بلا محبة قد يصير جفافًا وجدالًا، والمحبة بلا علم قد تصير بدعة وغلوًا. جمع الله له مقام العبودية والرسالة، وجمع حقه في القلب بين التوقير والاتباع.

ومن الجفاء أن تُستعمل بشريته لرد خبره، أو أن يقبل المرء من هديه ما لا يكلفه شيئًا ويصف ما خالف ذوق عصره بأنه "غير عملي" قبل فهمه. ومن الغلو أن تُلغى بشريته، أو يُطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، أو يُدافع عنه بظلم وكذب وهو الذي بعث بالعدل. كلا الطرفين جعل النفس حاكمةً على المحبة؛ والطريق أن نصدقه ونوقره ونتبعه، مع حفظ مقام العبودية الذي اختاره الله له.

## محك السنة المكلفة

اسأل عن السنة التي تعرفها ويثقل عليك أن تدخلها في حياتك، لا عن السنن التي تحبها أصلًا. قد تكون في خلقك مع أهلك، أو في أمانتك المهنية، أو في ضبط لسانك، أو في هيئة عبادة ثابتة، أو في ترك ممارسة اعتادها محيطك. هنا تظهر المحبة: هل تبحث بصدق عن هديه، أم تبحث عن طريقة تبقي عادتك مع بقاء شعار المحبة؟

اختر سنةً صحيحة واحدة ذات أثر في موضع ضعفك، وتعلم حكمها وحدودها من مصدر موثوق، ثم اعمل بها زمنًا حتى تخرج من حيز الإعجاب إلى الاتباع. وصلِّ على النبي ﷺ وأنت تستحضر أن الله أخرجك به من الظلمات إلى النور، لا بوصف الصلاة عليه لفظًا يجري بلا صلة بالسير خلفه.

غير أن الاتباع قد يقع والجسد منقاد والقلب ضيق. وقد يمتثل الإنسان لأنه لا يملك الاعتراض علنًا، بينما يبقى داخله يتمنى لو كان الدين على صورة أخرى. لهذا لا يكتمل بناء المحبة بالاتباع الظاهر وحده؛ لا بد أن تدخل إلى موضع أعمق: هل رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا؟

## الوحدة السابعة: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

### قلب بين الخوف والرجاء

المحبة وحدها لا تصف حركة القلب كلها. من يحب يخاف أن يفقد قرب محبوبه، ويرجو وصاله وفضله، ويعتمد عليه إذا ضعفت قواه. لذلك وصف القرآن عباد الله في جوف الليل فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16]. أخرجهم الخوف والرجاء من دفء الفراش إلى الصلاة، ثم ظهر صدق القلب في إنفاق ما رزقهم الله.

الخوف والرجاء عبادتان لأنهما تكشفان الجهة التي يطلب منها القلب أمنه وخيره. يخاف المؤمن الله تعظيمًا وخشيةً من سخطه، ويرجو رحمته وفضله، فلا يأمن مكر الله ولا يقنط من رحمته. قال سبحانه: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]. جمع الدعاء جناحين؛ فالخوف وحده قد ينقلب يأسًا، والرجاء بلا خوف قد يصير أمنيةً تترك العمل.

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني» رواه البخاري (7405) ومسلم (2675). حسن الظن ليس ادعاء أن كل ما نريده سيقع، وإنما أن نوقن برحمة الله وحكمته وصدق وعده، وأن بابه لا يغلق في وجه تائب. الرجاء يرد العبد إلى الله، ولا يمنحه ترخيصًا في الإقامة على ما يسخطه.

### ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾

لا يطلب التوحيد من الإنسان أن يفقد الخوف الطبيعي. خاف موسى عليه السلام حين وجد الخطر: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 18]. والخوف من عدو أو مرض أو فقد مال إحساس فطري يدفع إلى الحذر. الذي يُخلع عن غير الله هو خوف العبادة والتعظيم الغيبي، أو خوف يمنح المخلوق حق تعطيل أمر الله؛ أما الإحساس بالخطر واتخاذ سببه فليس منافسًا للتوحيد.

قال تعالى في الذين خُوِّفوا بجمع عدوهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ

وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 173-175]. لم تنكر الآيات قدرة العدو، نزعت منه حق قيادة القلب والقرار، وكشفت المخوِّف الذي يضخم قوته.

يعمل هذا التخويف من خلال سبب حاضر: مدير أو مرض أو رأي عام أو خسارة متوقعة. لا يقول الشيطان دائمًا: اعص الله، يقول: احم أسرتك، لا تخسر مستقبلك، هذه ضرورة. وقد تكون الضرورة حقيقية ولها حكمها، لكن الميزان أن يبقى خوف الله حاكمًا على تسمية الضرورة، وألا يتحول خوف طبيعي إلى مشرّع للحرام.

## الغار: خطر حاضر وقلب مع الله

بلغ الخطر في الهجرة أن وقف المشركون فوق الغار. قال أبو بكر رضي الله عنه: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. لم يكن خوفه على نفسه وحدها، كان يخشى على رسول الله ﷺ والرسالة. فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» رواه البخاري (3653) ومسلم (2381). وجاء القرآن يثبت الكلمة في قلب الأمة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

لم تكن المعية إلغاءً للسبب، اختير الطريق، وأُعِدَّت الراحلتان، واستُعين بالدليل، وأُخفي الأثر. اجتمع إحكام الخطة مع تمام التوكل. حين وقف العدو عند الغار لم يبق سبب جديد يملكه البشر، فاستقر القلب إلى السبب الذي لا يعجز: معية الله. المؤمن لا يسمي الإهمال توكلًا، ولا يجعل إحكام الأسباب غنىً عن الله.

هذه الكلمة لا تعد كل خائف بأن الخطر سيزول بالصورة التي يريدها، لكنها تمنعه من أن يواجه الخطر وحيدًا. قد يقع ما يؤلمه، ويضيق رزقه، ويخسر مكانة، والمعية تحفظ دينه وقلبه، وتهديه إلى ما يرضي الله في اللحظة التي لا يملك فيها النتيجة.

## رجاء يفتح باب العودة

الخوف الذي لا يرى الرحمة قد يدفع العاصي إلى الهرب من الله بدل الرجوع إليه. لذلك جاء النداء لأثقل الناس ذنوبًا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]. لم يقل إن الذنب هين، بل فتح بابًا أعظم من الذنب لمن تاب.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» رواه مسلم (2877). يحسن الظن وهو يعمل؛ يتوب، ويرد الحقوق، ويستغفر، ولا يجعل الرجاء ستارًا للتأجيل. الأمنية تقول: سيغفر لي ولو بقيت كما أنا. والرجاء يقول: لأنه غفور سأعود إليه الآن، ولأنه شديد العقاب لن أستهين بأمره.

ورجاء المخلوق فيما يقدر عليه مشروع: ترجُو الطبيب أن يعالج، وصاحب الحق أن يمهل، والمسؤول أن ينصف. الخلل أن ينتقل الرجاء من طلب سبب محدود إلى تعليق القلب كله به، أو أن يُطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله. المخلوق قد يريد ولا يستطيع، أو يستطيع ولا يريد؛ أما الله فبيده خزائن كل شيء، ويعطي بحكمة لا بعجز ولا بخل.

## التوكل: الطير تغدو

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]. الكفاية لله، والأمر نافذ، والأقدار لها أوقاتها. التوكل ليس شعورًا بالضمان أن الخطة ستنجح كما رسمتها؛ هو اعتماد القلب على الله في جلب الخير ودفع الضر، مع فعل ما أذن به من سبب.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا» رواه الترمذي (2344)، وقال: حديث حسن صحيح. لم تبق الطير في أعشاشها تنتظر؛ غدت جائعة، وتحركت، ثم رجعت ممتلئة. جعل الحديث خروجها جزءًا من صورة التوكل، وجعل الرزق من الله لا من حركة الجناح وحدها.

وقال النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» رواه مسلم (2664). بدأ بالحرص، وربطه بالاستعانة، ونهى عن العجز. التخطيط، والتدريب، والاستشارة، والتداوي، والبحث عن عمل أسباب عبودية إذا التزم صاحبها حدود الله. أما ترك السبب الممكن ثم اتهام القدر فليس توكلًا، كما أن بذل السبب ونسيان الله صورة أخرى من العجز وإن بدت نشاطًا.

## حين يخيفك الرزق

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 60]. لا تعد الآيتان كل إنسان بالسعة التي يريدها، ولا تعفيانه من السعي، لكنهما تنزعان من الوظيفة والسوق والناس دعوى ملك الرزق.

الخوف على الرزق من أكثر المخاوف قدرةً على إعادة ترتيب الدين في القلب. قد يعرف الموظف أن التزوير حرام، ثم يراه ضرورة لأن المدير غضب. وقد يترك التاجر عقدًا محرمًا فيضيق عليه البديل، فيأتيه الشيطان بصورة أبنائه لا بصورة المعصية. الأسرة حق، والإنفاق واجب، لكن الذي رزق الأسرة لا يُطاع بمعصيته طلبًا لرزقه.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» رواه الترمذي (2516)، وقال: حسن صحيح. لا يلغي الحديث ما في أيدي الناس من أسباب؛ يضع اجتماعهم كله داخل كتاب الله وقدره.

قد يضيق الرزق بعد ترك الحرام، وقد يتأخر البديل، ولا يصح أن نحول التوكل إلى وعد دنيوي عاجل. الكفاية قد تكون مالًا، وقد تكون قناعةً وثباتًا ومخرجًا لم يكن في الحساب، وقد يدخر الله تمام الجزاء للآخرة. الوجهة تتوحد حين يطلب العبد الرزق من الله بطاعته، لا حين يشترط على الطاعة أن تحفظ له كل ما اعتاده.

## محك ما تخافه وما ترجوه

راقب قلبك عند ثلاثة أبواب: خبر يهدد أمنك، وشخص تملك عنده مصلحة، وسبب تعتمد عليه كل يوم. أيها إذا اهتز انهار يقينك؟ ومن أول من تسترضيه حين تخشى الخسارة؟ وما الأمر الذي تعرفه ثم تؤجله لأنك تنتظر ضمانًا من البشر؟ الخوف يكشف من تعظمه، والرجاء يكشف من تنتظر منه الخير، والتوكل يكشف أين يسكن القلب بعد أن يفعل ما يستطيع.

اختر خوفًا واحدًا حاضرًا: رزقًا، أو مرضًا، أو رفضًا، أو مستقبل ولد. اكتب ما تستطيع فعله من أسباب مشروعة، وما لا تملكه، والحكم الذي لا يجوز أن تساوم عليه. افعل السبب، وأكثر الدعاء، واقطع خطوةً واحدة كان الخوف يعطلك عنها. لا تطلب من نفسك غياب الاضطراب كله؛ اطلب ألا يكون الاضطراب هو صاحب القرار.

وحين يعرف القلب من يخاف ومن يرجو وعلى من يتوكل، يصبح سؤال الرضا أعمق. فقد يحب الله ثم يضطرب عند المنع، أو يتوكل عليه ثم يعترض على الطريق الذي جاء به رزقه وقدره. لهذا تنتقل الرحلة من الخوف والرجاء إلى كلمة تجمع الثقة والانقياد: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا.

## الوحدة الثامنة: الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا

### كلمة يكررها اللسان ويُمتحن بها القلب

يسمع المسلم المؤذن فيقول: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا. جملة قصيرة، لكنها تعيد رسم العلاقة كلها: ربي الذي يخلق ويدبر ويأمر، وديني الذي أقبل ميزانه، ورسولي الذي أتلقى عنه. وقد يسبق اللسان القلب فيقولها كل يوم، ثم تأتي حادثة واحدة تكشف أن الرضا كان حاضرًا في الرخاء ولم يدخل بعد موضع الألم أو الحكم الثقيل.

الرضا ليس أن تقع الحياة كما تريد، ولا أن تفهم حكمة كل أمر قبل أن تقبله. هو سكون القلب إلى ربوبية الله، وقبول الإسلام طريقًا، والتسليم للرسول قائدًا. وقد يصحب الرضا ألم طبيعي، وحزن، وبكاء، وتردد يحتاج مجاهدة، فالقلب البشري لا يتحول إلى حجر. الممنوع أن ينقلب الألم إلى رد على الله، أو يصبح عدم الفهم مبررًا لتعليق الطاعة.

قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا» رواه مسلم (34). كما ربط الحديث السابق الحلاوة بترتيب المحبة، يربط هذا الحديث الطعم بالرضا. الإيمان لا يذاق بقوة البرهان وحدها، بل حين يأمن القلب إلى من آمن به، ويخرج من التفاوض الدائم مع أصل الدين.

الذي لم يرض يظل يتعامل مع الوحي بوصفه اقتراحًا يحتاج أن يوافقه أولًا. يختبر كل حكم بميزانه السابق، فإن أعجبه قال: ما أجمل الإسلام، وإن خالف رغبته بدأ يبحث عن مخرج قبل أن يبحث عن مراد الله. أما الراضي فلا يلغي عقله ولا يمنع السؤال، لكنه يسأل من داخل العبودية: أريد أن أفهم لأحسن الامتثال، لا لأقرر هل يستحق الحكم أن يمتثل.

### الرضا بالله ربًا

الرضا بالله ربًا أوسع من الإقرار بأنه الخالق. معناه أن ترضى بتدبيره وشرعه، وأن تعلم أن علمه محيط وحكمته كاملة ورحمته لا تنفصل عن قضائه. لا يعني أن تحب المرض لذاته أو تتمنى الفقر أو لا تدفع الظلم؛ بل أن تتعامل مع ما وقع بعبودية، فتأخذ بالأسباب ولا تتهم ربك، وتحزن ولا تيأس من رحمته، وتدعو ولا تجعل الاستجابة مشروطةً بشكل واحد.

والرضا بأمر الله الشرعي وقبول حكمه من أصل الانقياد، أما المقضي المؤلم فليس المطلوب أن تحب ألمه لذاته. الواجب أن تصبر، وتترك التسخط المحرم، وتحسن الظن بالله، وتسعى في دفع ما شرع دفعه. قد

يرتقي القلب بعد ذلك إلى رضا أوسع، لكن الكتاب لا يحمل المبتلى فوق ما أوجبه الله، ولا يسمي دمعة الفقد اعتراضًا.

يظهر ضد الرضا حين يقيس الإنسان عدل الله بما وصل إليه في لحظة واحدة. يرى نعمة عند غيره، أو تأخرًا في دعائه، أو بابًا أُغلق، فيبني من الجزء حكمًا على الكل. النفس تتألم من المقارنة أكثر مما تتألم من النقص نفسه؛ لأنها لا ترى نعمها إلا بعد أن ترى زيادة غيرها. والرضا لا يمنع طلب الفضل، لكنه يمنع تحويل العطاء إلى محاكمة لله.

في سياق الصدقات وصف القرآن قومًا كان رضاهم تابعًا لحظهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58]، ثم فتح لهم طريقًا آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: 59]. المشكلة لم تكن في رغبتهم في المال وحدها، بل في أن رضاهم عن الرسول والدين صار مرهونًا بنصيبهم. إذا أعطوا رضوا، وإذا منعوا سخطوا؛ فالمصلحة لم تعد حاجة، بل صارت ميزانًا للحكم.

كم يتكرر هذا البناء في الحياة: يمدح الموظف عدل المؤسسة ما دامت الترقية له، فإذا فاتته اتهم كل نظام. ويرى صاحب المشروع أن الفتوى حكيمة ما دامت لا تمس أرباحه، فإذا مستها تغيّر وصفه للدليل. وقد يدافع الإنسان عن داعية أو جماعة ما دام يجد عندهم مكانته، فإذا لم يعط ما يريد اكتشف فجأة أخطاء كان يراها من قبل. الرضا بالله يحرر الحكم من الحظ الشخصي.

## وبالإسلام دينًا

الرضا بالإسلام دينًا يعني قبوله كلًا حاكمًا، لا اختيار أجزاء تناسب الذوق وترك أجزاء كأنها عبء تاريخي. الإسلام عقيدة وعبادة وخلق وحكم، رحمة وعدل، حق لله وحقوق للخلق. من رضي به لم يجعل ثقافته الأصل، ثم طلب من النص أن يزينها؛ سمح للوحي أن يصحح ثقافته وعاداته ونظرته إلى النجاح.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]. نفت الآية الخيرة بعد قضاء الله ورسوله. قبل ظهور الحكم للإنسان مجال واسع للنظر والاجتهاد والسؤال والموازنة، أما إذا ثبت الحكم واتضح، فليس من الإيمان أن يبقى خيار الرد قائمًا كأن العبد ندٌّ لربه. قد يعصي المسلم ضعفًا مع

إقراره، فيكون مذنبًا يحتاج إلى التوبة، ولا يُسوّى بمن رد حق الله أو استحل مخالفته. الفرق بين سقوط الجوارح وبقاء الانقياد، وبين سقوط أصل الانقياد، فرق يحفظ التوحيد من الغلو والتمييع.

وقد يضيق القلب بحكم لأن شهوته لم تترب بعد، أو لأن البيئة صورته له قيدًا، أو لأنه رأى تطبيقًا سيئًا نُسب إلى الدين. هذا الضيق يحتاج علاجًا بالعلم والمجاهدة، ولا يلزم أن يكون ردًا للدين. لكن الخطر أن يحول الإنسان انزعاجه إلى معيار تشريعي: ما لا أرتاح إليه لا يمكن أن يكون من الإسلام، أو لا يصلح لزماننا. هنا لم يعد الشعور حالةً تحتاج إصلاحًا؛ صار حاكمًا على الوحي.

الرضا بالدين لا يمنع الاجتهاد في فهم النص أو الاختلاف في المسائل الظنية، ولا يجعل قول كل متكلم باسم الشرع حكم الله. من تمام الرضا أن نفرق بين الوحي وفهم البشر، وأن نسأل عن صحة الدليل ودلالته، وأن نرجع إلى أهل العلم. التسليم للحق لا يعني التسليم لكل نسبة إلى الحق.

## وبمحمد رسولًا

الرضا بمحمد ﷺ رسولًا يضم التصديق والمحبة والاتباع وقبول حكمه. قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]. موضع الشاهد هنا أن الرضا بالرسول لا يقف عند الاعتراف بصدقه، بل يقبل قضاؤه من غير أن يجعل الحظ الشخصي ميزانًا لعدله.

ليس كل حرج طبيعي ردًا للحكم. قد يثقل على النفس إخراج مال تحبه، أو مفارقة عادة، أو قبول حكم خالف رغبتها. الإيمان لا يشترط أن تزول طبائع النفس في اللحظة الأولى، لكنه يطلب ألا يتحول الألم إلى اتهام للحكم أو استعلاء عليه، وأن يجاهد العبد حتى ينقاد. الفرق بين "هذا صعب علي" و"هذا الحكم غير مقبول" فرق بين اعتراف بالضعف واعتراض على المرجع.

وقد يسأل المؤمن عن الحكمة، ويبحث في العلة، ويناقش تنزيل الحكم؛ هذا لا ينافي الرضا إذا بقي السؤال طالبًا للنور ولم يتحول إلى وسيلة لتعليق الانقياد. الرضا لا يلغي الفقه والاجتهاد، لكنه يمنع النفس من أن تشترط موافقتها السابقة قبل أن تقبل رسالة الرسول ﷺ.

## الألم الطبيعي والاعتراض الباطن

حزن يعقوب عليه السلام حتى ابيضت عيناه، ودخل النبي ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فذرفت عيناه، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» رواه البخاري (1303) ومسلم (2315). جمعت سيرته ﷺ مع ابنه إبراهيم بين قبلة

الأب في حياته، ودمعته عند فراقه، وبين عبودية اللسان والقلب. الرضا لا يمنع الدمع؛ يمنع أن يصير الدمع خصومةً مع الله.

وقد يخلط الإنسان بين الرضا والاستسلام السلبي. يُظلَم فيقول: أنا راضٍ، ويترك العلاج أو المطالبة بالحق. هذا ليس لازم الرضا؛ الله أمر بدفع الضرر والأخذ بالأسباب ونصرة المظلوم. ترضى بالله ربًا وأنت تسعى لتغيير ما أذن بتغييره، لكنك لا تجعل النتيجة إلهك: إن تحققت شكرت، وإن تأخرت ثبتَّ ولم تسقط في السخط المحرم.

ومن الاعتراض الباطن أن يطيع الإنسان وهو يروي الحكم للناس بلهجة اعتذار، كأن الشرع متهم وهو محاميه المتردد. قد يحتاج الحكم إلى بيان حكمته ودفع سوء الفهم، لكن المؤمن لا يستحي من حق ثبت عن الله. وفي المقابل لا ينسب إلى الله ما ليس منه، ولا يدافع عن اجتهاد بشري كأنه وحي. الرضا يورث عزةً منضبطة وصدقًا علميًا معًا.

وأحيانًا يختبئ السخط في السخرية. يلتزم المرء ظاهراً ثم يطلق النكات على حكم أو على أهل الطاعة، فيفرغ مقاومته بطريقة مقبولة اجتماعيًا. أو يكرر وصف الدين بأنه ثقيل كلما خالف هوى، حتى يتعلم من حوله أن الطاعة خسارة. القلب الراضي قد يذكر المشقة، لكنه يذكر معها شرف العبودية ووعد الله، فلا يزين النفور.

## كيف يتربى الرضا؟

يتربى الرضا بمعرفة الله، وباستحضار قصر النظر البشري، وبالوقوف عند حدود المسؤولية. كثير من السخط محاولة للسيطرة على ما لم يُكلّف الإنسان بالسيطرة عليه: يريد ضمان المستقبل، ومعرفة كل الحكمة، وإغلاق كل احتمال. فإذا عجز غضب. الرضا يرد إليه عبوديته: عليك الصدق والسعي والدعاء، وليس عليك أن تملك الغيب.

ويتربى بتكرار الكلمة مع حضور معناها. عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا؛ غُفر له ذنبه» رواه مسلم (386). يأتي الذكر عند النداء للصلاة؛ فكأن الرضا لا يبقى شعارًا، بل يتحول فورًا إلى استجابة.

ويتربى الرضا حين يعترف العبد بموضع مقاومته. لا يقل: أنا راضٍ على الإطلاق، ثم يهرب من كل امتحان. يسمّي الحكم الذي يثقل عليه، أو القدر الذي ما زال قلبه يعترض عليه، ويفرق بين الألم المشروع والكلمة المحرمة، ثم يسأل الله أن يشرح صدره للحق. الاعتراف لا يثبت الاعتراض؛ يفتح باب علاجه.

ويتربى بصحبة من يذكّره بالله لا بمن يغذي شكواه على الله. هناك فرق بين مواساة المبتلى، وبين تثبيت تفسيره الساخط للبلاء. الصاحب الصالح يسمع الألم، ويعين على السبب، ثم يعيد القلب إلى حسن الظن والافتقار.

### محك الرضا

راقب نفسك عند أمرين: حين يُمنع عنك ما تريد، وحين يأتي الحكم على خلاف مصلحتك. ما اللغة التي تتكلم بها عن الله ودينه في تلك اللحظة؟ هل تطلب فهمًا وهدايةً، أم تبحث منذ البداية عن إسقاط سلطان الحكم؟ وهل يتغير تقييمك للأشخاص والمبادئ بحسب ما أعطوك؟

اختر اعتراضًا واحدًا يتكرر داخلك. اكتب بصراحة: أنا أتألم من كذا، وأعلم أن حكم الله أو قدره لا يُتهم بسبب ألمي. ثم خذ سببًا مشروعًا، واقرأ النصوص المتعلقة بالمسألة من مصادرها، وقل عند الأذان جملة الرضا بقلب حاضر. لا تطلب أن يزول كل ألم فورًا؛ اطلب ألا يقود الألم وجهتك.

إذا استقر الرضا في القلب، بقي الامتحان الأعظم: محبوب مباح قريب، له وجه وذكريات وحقوق، أو مال بُنيت عليه حياة، أو وطن ومكانة ومسكن. هنا لا يكون الصراع بين الله وشيء مكروه، بل بين أمر الله وما تحبه النفس حقًا. وفي هذه اللحظة يظهر معنى أن تكون محبة الله ورسوله أعلى.

## الوحدة التاسعة: حين ينازع محبوبٌ أمرَ الله

### قائمة لا تُدين المحبوبات بل تكشف ترتيبها

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]. لم تجمع الآية أوثانًا وجرائم، بل جمعت أقرب ما يحبه الإنسان: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، ثم الأموال والتجارة والمساكن. كلها في أصلها نعم، وبعض محبتها واجب أو فطرة. لم يقل القرآن: لا تحبوها، وإنما وضعها في ميزان ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ حين تنازع الله ورسوله وما أوجب.

تكمن قوة الآية في أنها لا تسمح للقارئ أن يحصر فتنة المحبة في صورة شاذة. قد يكون منافس أمر الله وجه أبيك، أو دمعة ولدك، أو خوفك على تجارة صنعتها في عشرين عامًا، أو بيتًا استقر فيه أهلك، أو قبول عشيرة تمنحك هويتك. أشياء شريفة في موضعها، لكنها تتحول إلى فتنة حين تطلب الكلمة الأخيرة.

ولا تعني كل معصية لأجل محبوب أن العبد وقع في الشرك الأكبر. قد يقدم شهوته ضعفًا وهو يعلم أنه عاصٍ، فينقص إيمانه ويجب عليه أن يتوب. وقد تبلغ صورة من صور التقديم حدًا يناقض أصل الدين بحسب الاعتقاد والقصد وما مُنح للمحبوب من حق. الكتاب هنا يربي القلب على التقديم، ولا يحول الآية إلى أداة لتكفير العصاة أو تصنيف الأعيان.

المحبة الطبيعية لا تُقتل لتصح العبودية؛ تُهذّب وتُرتب. الله الذي أمرك بتقديمه هو الذي أمر ببر الوالدين، وصلة الرحم، والنفقة على الأهل، والوفاء بالعهد، وعمارة الأرض. لا يكون الولاء لله ذريعةً للقسوة، كما لا تكون الرحمة ذريعةً لمخالفة الله. التوحيد يعيد كل حق إلى موضعه.

## إبراهيم: حين جاء الأمر إلى موضع الحب

بعد طول انتظار بُشّر إبراهيم عليه السلام بغلام حليم. ثم بلغ الغلام السن التي يسعى فيها مع أبيه، حين يشتد تعلق الأب ويبدأ يرى ثمرة التربية والرفقة. عند هذا الموضع جاء الامتحان: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: 102]. لم يكن الأمر بمفارقة شيء زائد عن الحياة، بل بمواجهة أعمق محبوب طبيعي.

قال الابن: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾. التقى في المشهد قلبان يقدمان أمر الله: أب لا يجعل الأبوة حجابًا، وابن لا يجعل الحياة حجابًا. ولم يكن الصبر قوةً ذاتية مستقلة؛ قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. حتى في ذروة التسليم بقي الافتقار إلى مشيئة الله.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 103–107]. لم يكن المقصود إراقة دم الابن لذاتها، وإنما كان ابتلاءً عظيمًا ظهر فيه صدق الاستسلام لله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾. سلّم الأب محبوبه، وسلم الابن نفسه، فلما تحقق معنى العبودية جاء الفداء. القصة لا تعلم الآباء أن يقسوا على أبنائهم باسم الدين، ولا تبرر أوامر بشرية متوهمة؛ رؤيا الأنبياء وحي، وقد انتهى ذلك الحكم. وظيفتها أن تكشف أن نعمة الولد لا يجوز أن تصبح حجابًا عن المنعم.

وقد يقرأ الإنسان القصة بإعجاب بعيد، ثم يعجز عن امتحان أصغر: حكم شرعي في تربية ولده يخشى أن يغضبه، أو مال حرام يبرر أخذه لمستقبل الأسرة، أو تقصير في الصلاة لأنه لا يريد إزعاج أهل البيت في نومهم. لا يُطلب منه ذبح ولد، بل أن يرفض ذبح دينه من أجل راحته.

والاقتداء بإبراهيم لا يعني أن يبدأ المرء بالصدام، بل أن يبدأ بإصلاح محبته. يتلطف، ويشرح، ويصبر، ويبحث عن البدائل، ويحفظ الحقوق، لكنه لا يعطي أحدًا حق إلغاء أمر الله. المحبة التي تعين محبوبها على المعصية ليست رحمة كاملة؛ قد تحمي لحظته وتؤذي آخرته.

## الأهل: حذر لا يقتل الرحمة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 14-15]. جاءت ﴿مِنْ﴾ في الأعداء؛ فليس كل زوج أو ولد عدوًا، وقد يكون الأهل أعظم عون على الطاعة. والعداوة هنا قد لا تكون قصدًا وبغضًا، بل أثرًا: يثبط محبوبك عن واجب، أو يطلب منك حرامًا، أو يجعلك تؤجل التوبة حتى لا يتغير نظام البيت.

ثم لم تترك الآية الحذر يتحول إلى قسوة: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. هذا من إحكام الميزان القرآني؛ تحذر أن تقودك المحبة إلى المعصية، ثم تحذر أن يقودك الغضب على من عطلك إلى الظلم. تقدم أمر الله، وتحفظ حق الأهل، وتفتح لهم باب الفهم والتوبة.

قد يضغط الوالدان على ابن أو بنت في زواج لا يرضاه الشرع، أو يطلبان قطع رحم، أو مجاراة عرف ظالم. البر لا يعني الطاعة في المعصية، ورفض المعصية لا يبيح الإهانة. يخالف بأدب، ويستعين بالحكمة، ويصبر على الألم. هنا تتجسد محبة الله لا في شعار، بل في قدرة على جمع حقين دون أن يجعل أحدهما ذريعةً لإسقاط الآخر.

وقد يطلب الأب من الحرام ما يظن أنه يحمي به أبناءه. يقبل رشوة، أو يغش في عقد، أو يكذب في معاملة، ثم يقول: أفعل هذا لأجل الأسرة. حولت المحبةُ الجريمةَ في لغته إلى تضحية. القرآن يعيد الاسم: المال والولد فتنة؛ أي اختبار يظهر هل تشكر النعمة بالطاعة أم تعصي المنعم باسمها.

## المال والمكانة: حين يصير العطاء معيار الرضا

قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة؛ إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» رواه البخاري (2887). سماه عبدًا لا لأنه سجد لقطعة نقد، بل لأن رضاه وسخطه صارا تابعين للعطاء. المال أمسك بمفتاح قلبه: يمنحه الرضا ويأخذ منه السكينة.

الحديث لا يذم المال ولا التجارة. كان في الصحابة أغنياء أنفقوا ونصروا الدين. المذموم أن ينتقل المال من اليد إلى القلب، فيحدد الحلال والحرام، ويصنع قيمة صاحبه، ويصبح فقده أشد من فقد الطاعة. وقد يكون «الدينار» اليوم راتبًا، أو عقدًا، أو عددًا من المتابعين، أو منصبًا، أو لقبًا علميًا. وكل ما رضي الإنسان عن الحق إذا أُعطي منه، وسخط عليه إذا مُنع منه، فقد أخذ من معنى العبودية نصيبًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9]. الإلهاء لا يعني دائمًا ترك الذكر باللسان. قد يذكر الإنسان الله وهو يخطط لماله، لكن المال يلهيه عن طاعة واجبة، أو عن حق أهله، أو عن الصدق. الخسارة ليست في امتلاك المال، بل في أن يملك المال ترتيب الوقت والضمير.

ومن حيل النفس أنها لا تقدم المصلحة بصورتها العارية. لا يقول الباحث: سأخفي هذه النتيجة لأحفظ مكانتي، بل يقول: نشرها الآن يربك المجال. ولا يقول المدير: سأظلم الموظف لأحفظ منصبي، بل يقول: المصلحة المؤسسية. وقد تكون المصلحة معتبرة أحيانًا، لكن المحك: هل تستخدم المعيار نفسه إذا لم تكن منفعتك طرفًا؟

## كيف يعيد القلب تسمية التعارض؟

عند التعارض يبدأ العقل غالبًا بعد أن يكون القلب قد اختار. يحب النتيجة أولًا، ثم يجمع لها المبررات. إذا كان المحبوب شخصًا، ضخّم محاسنه وصغّر النص المخالف. وإذا كان مالًا، بحث عن أوسع قول بلا نظر في دليله. وإذا كان جمهورًا، سمّى التنازل حكمة. هذه ليست دائمًا مؤامرة واعية؛ النفس تحمي ما تعلقت به، وتمنع صاحبها من رؤية انحيازه.

وجاء الميزان النبوي حاسمًا في موضع ضغط الناس؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» رواه الترمذي (2414)، وصححه الألباني. لا يعد الحديث من قدم رضا الله بأن الناس سيرضون عنه فورًا؛ يحرره من أن يجعل قلوبهم المتقلبة مصدر أمنه وقيمته.

ومن العلامات أن يتغير السؤال. قبل حضور المصلحة يسأل: ما حكم الله؟ وبعد حضورها يسأل: هل يوجد أي قول يجيز؟ السؤال الثاني قد يكون مشروعًا إذا كان بحثًا فقهيًا صادقًا، لكنه يصبح حيلة حين لا يقبل الباحث إلا النتيجة التي تحفظ محبوبه، وحين ينتقل من مفتٍ إلى آخر حتى يسمع ما يريد.

وربما جعل الإنسان الكلفة دليلًا على خطأ الحكم: لو كان هذا واجبًا لما أضر بعلاقتي، أو لَما خسرت عملي، أو لَما غضب أهلي. لكن الآية نفسها بُنيت على الكلفة؛ ذكرت التجارة التي يخشى كسادها والمساكن التي تُرضى. وجود الثمن لا يثبت أن الطريق خطأ، بل قد يكون هو موضع الامتحان. ومع ذلك لا يُطلب من المسلم أن يتصرف بتهور؛ يفقه الحكم، ويقدر العواقب، ويأخذ بالرخصة الشرعية إذا وجدت، ويبحث عن البديل، ثم لا يجعل الحسابات تُحلل ما حرم الله.

ومن الحيل تأجيل الطاعة إلى وقت بلا خسائر: سأتوب حين يستقر عملي، وأصحح العقد بعد انتهاء المشروع، وأعلن الحق بعد أن أضمن موقعي. قد يحتاج التنفيذ إلى تدرج مشروع أو قدرة، لكن التأجيل المفتوح يجعل المحبوب يشتري كل يوم جديدًا. القلب الصادق يضع خطوةً مؤرخة، ويقطع سببًا، ويقبل أن يخسر شيئًا كي لا يخسر وجهته.

## الحب الذي يحفظ الفطرة ولا يعبدها

تقديم أمر الله لا يعني أن يخرج المؤمن من الامتحان بلا ألم. إبراهيم أحب ابنه، والآية لم تذم حبه. المؤمن قد يرفض طلب والده فيبكي، أو يترك كسبًا محرمًا فيضيق رزقه زمنًا، أو يعلن خطأ جماعته فيفقد صحبة. الألم شاهد على قيمة ما ترك، وليس دليلًا على ضعف التوحيد ما دام القرار لله.

والقرآن حين حذر من الأهل أمر بالعفو، وحين نهى عن الإلهاء لم ينه عن الكسب، وحين ذكر المساكن لم يأمر بهدمها. المقصود تحرير المحبة من السيادة، لا إلغاء نعم الله. بل إن تقديم أمر الله يصلح المحبوبات نفسها: يحول حب الأهل إلى بر لا إعانة على الإثم، وحب المال إلى كسب طيب وإنفاق، وحب الوطن إلى عدل وإصلاح، وحب العلم إلى أمانة لا تعصب.

وقد تكون طاعة الله هي الحفظ الحقيقي للمحبوب الذي يُخشى فقده. من رفض الحرام لأجل أسرته قد يقل دخله، لكنه لا يطعمهم سحتًا ولا يعلمهم أن النجاة بالكذب. ومن نصح صديقه قد يغضب منه، لكنه لم يتركه لخطئه. ومن رد باطل جماعته قد يخسر مكانة، لكنه يحمي جماعته من أن تتحول إلى عصبية.

لهذا لا يخرج المؤمن من الاختبار متعاليًا على من ضعف. يعرف قوة المحبة في النفس، فيرحم العاصي وينصحه، ولا يميع الحكم. وقد يسقط هو نفسه؛ فإذا سقط لا يعيد تعريف الحرام، بل يقول: غلبني ضعفي، ويعود. بقاء اسم المعصية باب التوبة، أما تغيير الاسم لحماية المحبوب فيغلق الباب وهو يزعم أنه وسّعه.

## محك المحبوب الذي يملك حق التعطيل

فتش عن الأمر الذي ترده أو تؤجله كلما اقترب من محبوب بعينه. ما الشيء الذي تسمح له عملياً أن يقول لأمر الله: انتظر؟ قد يكون رضا أب، أو مستقبل ولد، أو أرباح تجارة، أو راحة بيت، أو قبول جمهور، أو مكانة في تخصص. لا تحتقر المحبوب ولا تتهم الفطرة؛ سمّه، ثم انزع منه حق السيادة.

ضع أمامك آية التوبة، واقرأ قائمتها ببطء. أي كلمة فيها تمسك قلبك أكثر: آباؤكم، أبناؤكم، أزواجكم، عشيرتكم، أموال، تجارة، مساكن؟ اختر تعارضًا حقيقيًا، وثبت أولًا من الحكم الشرعي، ثم حدد خطوةً تحفظ الحق بقدر الاستطاعة: حوارًا صادقًا، أو ترك دخل، أو رد مظلمة، أو إعلان خطأ، أو قطع تأجيل.

واسأل الله ألا يجعل نعمته حجابًا عنه. المحبة لا تُصلح نفسها بنفسها؛ تحتاج إلى محبة أعلى تضبطها. فإذا قدمت أمر الله لم تفقد قلبك الإنساني، بل أنقذته من أن يعبد ما يحب. وعندئذ لا تبقى المحبة دعوى داخلية؛ تتحول إلى حركة ظاهرة: اتباع وطاعة واستجابة. ومن هنا يفتح السؤال التالي: إذا قلت إنك تحب الله ورسوله، فمن تتبع وتطيع حين يصل إليك الأمر؟

# المحور الثالث: من نتبع وتطيع؟

في المحور السابق ظهر أن القلب لا يستقيم حتى تكون محبة الله أعلى محبة، وأن محبة الرسول ﷺ ليست عاطفةً مضافة إلى الإيمان، وإنما تقديم ورضًا وثقة. لكن المحبة التي تبقى في الداخل ولا تتحول إلى اقتداء واستجابة لا تزال دعوى لم تدخل الامتحان.

لهذا ينتقل القرآن من سؤال: من تحب؟ إلى سؤال أشد كشفًا: من نتبع؟ ومن تطيع؟ قد يرفع المرء شعار الاستقلال وهو أسير جماعة أو شيخ أو عادة، وقد يكثر الحديث عن الطاعة وهو لا يطيع إلا ما وافق رغبته. ومن ترك نور الوحي الذي بُعث به الرسول ﷺ لم يبق بلا طريق؛ تلقفته طرق النفس والمألوف وخطوات الشيطان.

والتوحيد يثبت للرسول ﷺ حق البيان والقيادة فيما بلغه عن ربه، ولا يترك للهوى والبدعة حق إنشاء طريق تعبدي موازٍ. ومع ذلك تبقى طاعة الوالد والعالم والمسؤول في المعروف حقًا مشروعًا. فالعصيان ضعفًا مع الإقرار لا يساوي اتخاذ المخلوق مشرعًا، كما أن هذه الفروق لا تسوغ طاعة أحد في معصية الله.

## الوحدة العاشرة: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾

### المحبة حين تُطلب لها علامة

لا يترك القرآن دعوى المحبة سائبةً في القلب؛ لأن الإنسان يستطيع أن يحب الصورة التي صنعها عن التدين، وأن يطمئن إلى مشاعر صادقة في أصلها، ثم يختار من أمر الله ما يوافق عادته ويترك ما يهددها. لذلك جاءت الآية التي تقطع الطريق على المحبة المجردة من الاتباع:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 31-32]

لم يقل القرآن: إن كنتم تحبون الله فأكثروا من وصف محبتكم، وإنما جعل الطريق: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾.

وجعل الثمرة أعظم من إثبات صدق الدعوى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾. فالعبد يبدأ بمحبة ربه، ثم يسلك وراء الرسول ﷺ، فينال محبة الله ومغفرته. هكذا يخرج الاتباع من كونه قيدًا على الحرية إلى كونه طريقًا إلى أعظم مطلوب: أن يحبك الله.

وذكر المفسرون أن الآية جعلت اتباع النبي ﷺ علَمًا على محبة الله. وهذا الميزان لا يفتش عن كمال لا يخطئ صاحبه، وإنما يسأل عن الوجهة: حين تظهر لك سنة تخالف مألوفك، هل تتحرك نحوها، أم تبدأ في إعادة تعريف المحبة حتى تبقى حياتك كما هي؟ قد يضعف المؤمن، وقد يتأخر، لكنه لا يجعل ضعفه مذهبًا، ولا يزعم أن طريقًا اخترعه أقرب إلى الله من طريق رسوله.

والاتباع يجمع الإثبات والنفي: يثبت للرسول ﷺ حق القيادة فيما بلغ عن ربه، وينزع عن الذوق والبدعة والهوى حق إنشاء طريق تعبدي موازٍ. من ترك هديه لا يبقى بالضرورة مستقلًا؛ قد يتبع عادةً أو جماعةً أو نفسه أو خطوات الشيطان. لذلك لا تكون الحرية في غياب المتبوع، بل في التحرر من الطرق المتفرقة بلزوم النور الذي أُنزل معه.

ومن هنا لا يكون اتباع الرسول قيدًا يضاف إلى الحياة، بل نجاةً من طرق متفرقة تزعم كل واحدة أنها الحرية. من أعرض عن هديه قد تتلقفه عادة أو جماعة أو هوى وهو يظن أنه اختار بنفسه؛ أما من لزم النور الذي أُنزل معه فقد تحرر من أن تصنع له رغباته دينًا على مقاسها.

يبني القرآن منزلة الاتباع من حقيقة الرسالة نفسها. فالرسول ﷺ لم يأت بإشارات روحية عامة يملأ كل إنسان تفاصيلها من هواه، وإنما جاء بالكتاب والحكمة، يبيّن ويأمر وينهى ويحل ويحرم بإذن ربه:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 157-158]

تجمع الآيتان الإيمان والتعزير والنصرة والاتباع، ثم تسمي الوحي الذي جاء به نورًا. فلا يستغني من يدعي تعظيم الرسول عن اتباع النور الذي أُنزل معه، ولا يصدق من يتبع بعض هديه ثم يرد بعضه لأن بيئته لا ترتاح إليه. ومحبة النبي ﷺ لا تمنحنا حق أن نصنع له صورة توافق أذواقنا؛ هي تدعونا إلى أن نعرفه من سنته الصحيحة، ثم نزن أذواقنا بها.

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80]. فالطاعة هنا ليست منافسةً لطاعة الله، لأن الرسول مبلغ عنه، وطاعته من طاعته. ولهذا كان اتباع السنة عبادةً لله قبل أن يكون تعظيمًا لشخص الرسول الكريم. وكلما أدرك القلب هذه الحقيقة زال الوهم الذي يصور النص النبوي رأيًا تاريخيًا يمكن تجاوزه متى تغيّر الذوق، كما زال الغلو الذي يزعم محبته ﷺ ثم يخالف أمره باسم تلك المحبة.

ومن أجل ذلك قال ﷺ لمالك بن الحويرث وأصحابه: «وصلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي» رواه البخاري (631). وقال جابر رضي الله عنه إنه رآه يرمي في حجة الوداع ويقول: «لِتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه» رواه مسلم (1297). لم يكتف ﷺ أن يأمر بالصلاة والحج في الجملة؛ بيّن العبادة للأمة بفعله، وصارت هيئته المبيّنة جزءًا من الطريق.

## حين يريد المتعبد طريقًا أشد من طريق النبي

تنشأ مخالفة السنة أحيانًا من فتور، وأحيانًا من حماسة غير منضبطة. والثانية أخفى؛ لأن صاحبها يرى نفسه طالبًا للزيادة. جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها، فقال أحدهم: يصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: يصوم الدهر ولا يفطر، وقال الثالث: يعتزل النساء فلا يتزوج. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال:

«أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأُصلِّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» رواه البخاري (5063) ومسلم (1401).

لم يكن القوم يريدون معصية، وكان دافعهم تعظيم العبادة، لكنهم قاسوا القرب إلى الله بمقدار المشقة التي يصنعونها لأنفسهم، لا بمقدار موافقة أحب الخلق إلى الله. صحح لهم النبي ﷺ ميزان التقوى: هو أخشاهم وأتقاهم، ومع ذلك يصوم ويفطر، ويصلي ويرقد، ويتزوج. فالسنة لا تقف أمام حرارة الإيمان؛ هي التي تحفظها من أن تنقلب على الجسد أو الأسرة أو الفطرة ثم تُسمّى عبادة.

هذه الصورة تتكرر كلما أحب الإنسان الفكرة التي ابتكرها أكثر من الطريق الذي شرعه الله. ربما اختار أسلوبًا في الذكر أو الدعوة أو التربية لأنه أشد وقعًا في نفسه، ثم يضيق حين يُسأل عن هدي النبي ﷺ فيه. وربما تعامل مع الاعتدال النبوي كأنه منزلة للعامة، ويجعل ما ابتدعه لنفسه علامة الخاصة. هنا تكون الذات قد تسللت إلى الطاعة من باب طلب الكمال.

## العمل المقبول: قصدٌ صحيح وطريقٌ صحيح

الإخلاص الذي سبق في المحور الأول يجيب عن سؤال: لمن تعمل؟ والاتباع يجيب عن سؤال: كيف تعمل؟ ولا يغني أحدهما عن الآخر. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» رواه البخاري (2697) ومسلم (1718). وفي رواية مسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ».

الحديث لا يرد العمل لأن صاحبه قليل العاطفة، بل ولو كان صادق الرغبة؛ فالدين لله، والطريق إلى رضاه لا ينشئه الإنسان من عنده. وكلمة «أمرنا» ترد العبادة إلى مرجعها: ما كان من الدين فلا بد أن يقوم عليه دليل، أما شؤون الدنيا والوسائل والعادات فبابها أوسع، وتدخلها الخبرة والمصلحة المعتبرة ما لم تخالف شرعًا. بهذا القيد يمنع الحديث الابتداع، ولا يغلق باب الوسائل النافعة أو الاجتهاد المشروع.

وقال العرباض بن سارية رضي الله عنه إن النبي ﷺ وعظهم موعظةً وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، ثم قال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور» رواه أبو داود (4607) والترمذي (2676)، وقال: حسن صحيح. الموعظة كانت حارة، لكن وصيتها لم تكن انفعالًا مفتوحًا؛ كانت لزومًا لطريق معلوم عند اشتداد الاختلاف.

## الانتقائية: أن تتبع ما يشبهك

أصعب صور ترك الاتباع ليست دائمًا رفض السنة صراحةً؛ قد تكون انتقاءها. يقرأ الإنسان النصوص بعين تبحث عما يوافق طبيعته: الشديد يجد نصوص الحزم، واللين يجد نصوص الرحمة، والمنعزل يجد نصوص العزلة، والمنخرط يجد نصوص العمل. وكلها أبواب من الدين، لكن النفس تجمع من الوحي صورةً تشبهها، ثم تسمي تشابهها اتباعًا.

ويزداد الانتقاء حين ترتبط السنة بالهوية الاجتماعية. ربما قبل المرء السنة التي تمنحه علامة ظاهرة يعتز بها أمام جماعته، ويثقل عليه هدي النبي ﷺ في العدل والوفاء والرفق وضبط اللسان؛ لأن هذه الأعمال لا تمنحه الصورة نفسها، بل تكلفه مراجعة نفسه. ويدافع عن سنة في مجلس عام أحيانًا، ثم لا يقبل حكمها حين تنصف زوجته أو موظفه أو مخالفه.

الاتباع الصادق يطلب الصورة كاملة بقدر الاستطاعة. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]. فالأسوة لا تعني نسخ أحوال النبوة التي خُص بها، ولا إلغاء الفروق بين الواجب والمستحب والمباح؛ تعني أن يبقى هديه المرجع الذي يُتعلم منه القصد والعبادة والخلق والقرار. ولهذا يحتاج الاتباع إلى علم: التثبت من الحديث،

وفهم سياقه، وجمع نصوص الباب، وسؤال أهله. الحماسة بلا علم قد تنسب إلى السنة ما ليس منها، والعلم بلا انقياد قد يحولها إلى مادة محفوظة لا تقود صاحبها.

## أي صورةٍ للتدين نتبع؟

تأمل موضعًا واحدًا تكرر فيه قولك: «أحب النبي ﷺ»، ثم اسأل: ما أثر هذه المحبة في طريقة صلاتي، ومعاملتي لأهلي، ووفائي بالعهد، وحكمي على الناس؟ لا تبحث أولًا عن سنة نادرة تزيد بها معلوماتك؛ ابدأ بهدي صحيح تعرفه وتؤجله، أو خلق نبوي تمدحه ولا تسمح له أن يغيرك.

قد تكون حاجتك أن ترد عادةً تعبدية لم تثبت، أو أن تتعلم صفة عبادة تؤديها منذ سنوات بالتقليد، أو أن تقبل سنة تخالف ذوق جماعتك. اختر موضعًا واحدًا، وثبّت دليله من مصدر موثوق، ثم اتبعه لأنك تريد محبة الله. فالمحبة التي جعلت الرسول ﷺ محبوبًا لا تقف عند بابه؛ تمشي خلفه.

لكن الاتباع قد يبقى معرفةً بطريق النبي ﷺ من غير حركة عاجلة. يعرف القلب الطريق، ثم يؤجل الخطوة. وهنا يأتي السؤال التالي: ماذا يقول المؤمن حين يُدعى إلى أمر الله ورسوله؟

## الوحدة الحادية عشرة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

### بين وصول الصوت ودخول الأمر إلى القلب

يسمع الإنسان الحكم أحيانًا، ويفهم دليله، ويقر بصحته، ثم يعيش سنوات كأنه لم يسمع. فالسماع في لغة العبودية أوسع من وصول الصوت؛ هو تلقٍّ يفتح باب الطاعة. ولذلك لم يصف القرآن المؤمنين بأنهم يقولون: سمعنا وفهمنا، وإنما جمع المعرفة بالحركة:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: 47-52]

يفتتح السياق بدعوى الإيمان والطاعة، ثم يكشف فريقًا يتولى بعد ذلك. وحين يكون الحق له يأتي مذعنًا، وحين يظن أن الحكم عليه يعرض أو يرتاب أو يتهم الميزان. ثم تأتي صورة المؤمنين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. الفرق بين الصورتين ليس كثرة المعلومات؛ هو قبول سلطان الحكم حين تمس النتيجة مصلحة الإنسان.

وعبارة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تربي في القلب استجابةً لها لسان واحد عند وضوح الأمر. لا تعني أن المؤمن لا يسأل عن الدليل أو الحكمة، ولا أنه لا يراجع ثبوت النص وفهمه؛ فالتمييز بين الوحي وفهم البشر واجب. لكنها تصف ما يحدث بعد ثبوت الأمر وظهور دلالته: ينتهي التفاوض مع أصل السلطان، ويبقى سؤال الفهم والتنزيل. ثم يختم السياق بالفوز، ويجمع طريقه في الطاعة والخشية والتقوى؛ فالامتثال ليس نظامًا خارجيًا باردًا، وإنما حركة قلب يخشى الله، ويرجو فوزه، ثم يضع جوارحه حيث أمر.

وسمى القرآن هذه الاستجابة حياةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24]. فما يدعوك إليه الرسول لا ينتزع حياتك؛ هو الذي يرد إلى القلب بصيرته وإرادته ووجهته.

وفي ذكر الحيلولة بين المرء وقلبه تحذير من وهم التأجيل الآمن. قد تعرف الحق اليوم، وتظن أن قلبك سيبقى ينتظرك حتى تفرغ من مصالحك، ثم تأتي غفلة أخرى، وتتغير الرغبة، ويثقل ما كان قريبًا. لذلك كانت المبادرة جزءًا من الاستجابة: لا تملك قلب الغد، فاستجب ما دام باب اليوم مفتوحًا.

وقد يسمع القلب الأمر ولا يرده بلسانه، ثم يقيم بينه وبين الطاعة صورةً متضخمةً عن نفسه. هكذا أجاب إبليس حين سئل عن امتناعه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]. كان العائق كلمةً واحدة: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. لم ينقصه سماع الأمر، وإنما وقف الكبر بين المعرفة والسجود. وهذا باب خفي في النفس: قد لا تقول «لن أطيع»، بل تقول إن رأيك أنضج، أو مكانتك أعلى، أو صورتك لا تحتمل الرجوع؛ ثم يبقى الأمر معلومًا والجسد بعيدًا عنه.

### «من أطاعني دخل الجنة»

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» رواه البخاري (7280).

جعل الحديث العصيان صورةً من الإباء؛ لأن باب النجاة مفتوح بهدي الرسول ﷺ، ومن أعرض عنه فكأنه يرفض الدخول من بابه. وليس معناه أن كل معصية تُخرج صاحبها من الإسلام أو توجب له الخلود في النار؛ فهذا خلاف أصول أهل السنة. معناه أن الطاعة طريق الجنة، وأن كل معصية تحمل في قدرها معنى الإعراض، وتحتاج إلى توبة قبل أن تتحول من سقطة إلى عادة ثم إلى دفاع عن السقطة.

ويخفف القلب وقع العصيان أحيانًا بتغيير اسمه: يسمي التأجيل تدرجًا، والانتقاء فقهًا، والخوف حكمة، والتعلق بالعادات مراعاةً للواقع. بعض هذه المعاني صحيح في موضعه، لكن النفس تستعير الأسماء الصحيحة لتؤخر أمرًا واضحًا. المحك ليس جمال العذر، بل صدقه أمام الله: هل يقودك إلى امتثالٍ أقرب، أم يحفظ لك المسافة نفسها من الأمر؟

## الحديبية: حين ثقل الأمر ولم يُردّ

خرج الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ يريدون العمرة، يحملون شوقًا إلى البيت بعد سنوات من الصد. ثم انتهى الصلح إلى شروط ثقلت على نفوسهم، وأُمروا أن يرجعوا من عامهم. لم يكن المشهد درسًا نظريًا في الطاعة؛ كان انكسار توقعٍ عاشوه خطوة خطوة، ورؤيةَ ما بدا في اللحظة تنازلًا بعد أن كانوا يرجون الفتح والدخول.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من كتابة الصلح قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». فثقل عليهم الأمر حتى كرره ثلاثًا، ولم يقم منهم أحد في تلك اللحظة. دخل على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما وجد، فأشارت عليه أن يخرج فلا يكلم أحدًا حتى ينحر بدنه ويدعو حالقه. فلما رأوه فعل ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا. رواه البخاري في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في الحديبية (2731-2732).

هذه الوقفة لا تُقرأ طعنًا في جيل رضي الله عنه وزكاه؛ إنها تكشف بشرية القلب حين يصطدم الأمر بفقدٍ موجع، ثم تكشف كذلك أن ثقل النفس لم يتحول إلى مذهب في رفض أمر الرسول. ما إن رأوا الفعل النبوي حتى تحركوا. تأخر الجسد لحظة تحت صدمة الرجاء المكسور، ثم دخلت الجماعة كلها تحت الأمر.

وفي المشهد درس آخر: أحيانًا يحتاج القلب إلى أن يرى الطاعة مجسدة. خرج النبي ﷺ وفعل، فانكسرت حالة التردد الجماعي. لا يملك المربي دائمًا أن يزيل كل ثقل بالشرح، لكنه يستطيع أن يفتح الطريق بالفعل. والطاعة هنا لم تُلغ الحزن؛ قادته إلى ما أمر الله به حتى ظهر بعد ذلك أن الصلح كان فتحًا مبينًا.

## السحرة: من سلطان المشهد إلى سلطان الحق

كان السحرة قد جاؤوا في موكب السلطة، يسألون فرعون الأجر والقرب إن غلبوا. كانوا جزءًا من مشهد صُمم ليحفظ هيبته. ثم رأوا آية موسى عليه السلام، فعرف أهل الصنعة أن ما رأوه ليس سحرًا. لم يطلبوا مهلةً لحساب المصلحة، ولم ينتظروا إذن فرعون الذي جمعهم ووعدهم؛ قال تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 70-73]

وقعوا سجدًا قبل أن يصدر الأمر لهم بالسجود، وكأن المعرفة الصادقة دفعت أجسادهم إلى الأرض.

وحين قال فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ كشف منطقه: كان يظن أن الإيمان نفسه يحتاج إلى إذنه. لكن المرجعية انتقلت في قلوبهم؛ الذي كان يملك الأجر والتهديد لم يعد يملك تعريف الحق.

ليست كل طاعة عاجلة بطولةً درامية كهذا المشهد، لكن أصل الحركة واحد: يظهر الحق، فتتغير الجهة التي تقود القرار. في الحياة اليومية قد يكون الثمن اعتذارًا، أو مالًا حرامًا يترك، أو عادةً أسرية تُراجع، أو خطأً علميًا يُعلن. وربما بدا الثمن صغيرًا أمام قطع الأيدي والأرجل، لكنه يكشف في موضعه من يملك الأمر.

ويكشف المشهدان وجهين مختلفين للاستجابة. في الحديبية كان أصل التسليم راسخًا، لكن الأمر ثقل على نفوس مؤمنة كسرت آمالها اللحظة، ثم تحركت حين رأت القدوة تفعل. أما السحرة فانقلبت مرجعيتهم في لحظة ظهور البينة؛ فخرجوا من سلطان فرعون إلى سلطان رب هارون وموسى، ودفعوا ثمن التحول وهم حديثو عهد بالإيمان. الأول يعلّمك كيف تعود إلى الطاعة حين يثقل قلبك، والثاني يعلّمك ألا تستأذن الباطل حين يتبين لك الحق.

## السؤال الذي يتعلم والسؤال الذي يمانع

القرآن لا يذم السؤال، بل أمر بسؤال أهل الذكر، ودعا إلى التدبر. وقد سأل الصحابة النبي ﷺ عن أحكام كثيرة، وفهموا وتعلموا. الفرق يقع في وظيفة السؤال: سؤال يطلب الطريق إلى الامتثال، وسؤال يريد أن يجعل الامتثال معلقًا على اقتناع لا ينتهي.

السؤال المتعلم يقول: ما معنى النص؟ كيف أجمع بينه وبين غيره؟ ما شروطه؟ ما الذي يجب عليّ الآن؟ فإذا ظهر له الحكم بدأ. أما السؤال الممانع فينقل المعركة كلما أجيب: يطلب دليلًا، فإذا جاء طلب تفسيرًا، فإذا اتضح طلب استثناءً، فإذا لم يجده اتهم تنزيل الحكم بالقسوة أو عدم الواقعية. هو لا يبحث عن الحقيقة بقدر ما يبحث عن إذن بالبقاء.

ومن علامات الممانعة أن يتغير معيار الإثبات بحسب النتيجة. يقبل الإنسان قول عالم واحد حين يوافقه، ثم يطالب بالإجماع حين يخالفه. يحتج بظاهر النص إذا نصر رغبته، ثم يفتح أبواب المقاصد والواقع إذا ضايقه. هذا لا يعني أن الترجيح والاجتهاد باطلان، يعني أن القلب يحتاج إلى مراقبة دوافعه وهو يمارسهما.

## التأجيل الصامت

ليست كل معصية إعلانًا للرفض. كثير من الأوامر تُعطل بصمت: «حين أستقر»، «بعد انتهاء المشروع»، «عندما يقتنع الأهل»، «إذا تحسنت الظروف». تمر الأعوام ويبقى الأمر في خانة النية. ومع التكرار يتعلم القلب أن المعرفة لا تستلزم حركة، فيضعف وقع النص كل مرة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]. قبل ثبوت الحكم يتعلم المؤمن ويسأل ويجتهد في فهم الواقع، فإذا ثبت قضاء الله ورسوله لم تبق له خيرة تنازع أصل الأمر. وقد تبقى مشقة، أو خوف، أو حاجة إلى تدرج مشروع في إزالة مانع، لكن القلب لا يحول ضعفه إلى حق في المراجعة على الله ورسوله.

وقال المؤمنون في ختام البقرة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. جمعوا السمع والطاعة، ثم سألوا المغفرة. لم يدّعوا قوةً مستقلة ولا عصمة، دخلوا تحت الأمر مفتقرين إلى عفو ربهم. وهذه تربية دقيقة: الاستجابة لا تنتظر شعور الإنسان بالكمال، والتوبة ليست بديلًا عن الطاعة، هي زاد من يطيع ويقصر ثم يعود.

اختر حكمًا ثابتًا تعرف أنك تؤجله، وسمِّ العائق باسمه من غير تجميل. إن كان يحتاج إلى سؤال فاسأل سؤال تنفيذ، وإن كان يحتاج إلى رد حق فابدأ بأول خطوة، وإن كان تركه دفعة واحدة فوق طاقتك فضع مسارًا صادقًا يقربك منه ولا يحوله إلى وعد مفتوح. وتذكر قول النبي ﷺ: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». المقصود أن يقل الزمن بين «سمعت» و«أطعت»، وأن يلقى قلبك أمر الله وهو يرجو الجنة لا وهو يفتش عن مهرب.

غير أن الاستجابة لله ورسوله لا تعني أن كل من يملك أمرًا بشريًا يُطاع بلا حد. فالأسرة والعمل والعلم والمجتمع لا تستقيم بلا طاعة، لكن الطاعة نفسها تحتاج إلى ميزان. من هنا ينتقل السؤال: كيف نطيع البشر من غير أن نمنحهم حقًا ليس لهم؟

## الوحدة الثانية عشرة: «إنما الطاعة في المعروف»

## طاعةٌ لله داخل طاعة البشر

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: 59]

تكرر فعل الطاعة مع الله والرسول، ثم عُطف أولو الأمر؛ فطاعتهم داخلة في طاعة الله ورسوله ومقيدة بها، كما تكشف بقية الآية حين يأمر بالرد إلى الله والرسول عند التنازع. يبدأ الميزان من أعلى: الله يأمر بطاعات بشرية تحفظ الحقوق وتجمع المصالح، لكنه لا يسلم لأحد ضمير العبد ولا حق تغيير حكمه.

والإنسان لا يعيش وحده. الأسرة تحتاج إلى مسؤوليات، والعمل إلى إدارة، والعلم إلى أهل خبرة، والمجتمع إلى نظام، والأمة إلى ولاة أمر. ولو جعل كل فرد رغبته سلطة نهائية تعطلت المصالح وتحولت الحرية إلى تنازع دائم. لهذا كانت الطاعة المشروعة عبودية لله في أصلها؛ يبر الابن والديه لأن الله أمره، ويلتزم الموظف نظامًا عادلًا وفاءً بالعقد، ويأخذ المريض بتوجيه الطبيب في اختصاصه. لا تستعبد هذه الطاعة الإنسان للمخلوق؛ إنها تضع علاقاته تحت أمر الخالق.

وأولو الأمر يشملون ولاة الشأن والعلماء في مجالاتهم، ولكل طاعة نطاقها. لا يطاع العالم لأنه ينشئ حكمًا من عنده، وإنما لأنه يدل على الوحي باجتهاد معتبر، ولا يطاع المسؤول لأنه يملك الضمائر، وإنما لتنظيم

أمر مشروع وتحقيق مصلحة مأذون فيها. فإذا أطعت في المعروف لله، صارت الطاعة التي تثقل على نفسك قربى، لأنك لم تنحن لشخص، بل امتثلت أمر ربك في حقه.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» رواه البخاري (7144) ومسلم (1839).

يضع الحديث حدين معًا. الأول يمنع أن يحصر الإنسان الطاعة في القرارات التي تعجبه، فمعنى السلطة يختفي إذا لم تلزم إلا عند موافقة الرغبة. والثاني يمنع أن تتحول السلطة إلى باب يعلو أمر الله، فإذا جاءت المعصية انقطع وجوب الطاعة في هذا الأمر. وبين الحدين تتربى النفس على الانضباط من غير ذوبان، وعلى الوعي من غير فوضى.

يظن الإنسان أحيانًا أنه صاحب مبدأ حين يرفض كل ما يكرهه، بينما هو يعبد راحته. يتأخر عن نظام العمل، ويهمل قرارًا مشروعًا في الأسرة، ويرفض توجيه خبير، لأنه لا يحب أن يقوده أحد. ثم يرفع رفضه باسم الكرامة أو الاجتهاد. والحديث يرد هذا الهوى: الطاعة فيما أحب وكره ما دام الأمر في المعروف.

وفي الجهة الأخرى ينفذ المرء أحيانًا أمرًا محرمًا ثم يقول: أنا موظف، أو هذا قرار الجماعة، أو والدي أمرني، أو الشيخ قاله. ينقل ذنبه إلى صاحب السلطة ليخفف حمله الداخلي. لكن التكليف لم يسقط عنه، والطاعة لا تمحو مسؤوليته أمام الله.

## النار التي لم يدخلوها

بعث النبي ﷺ سريةً وأمّر عليهم رجلًا من الأنصار، فغضب عليهم وأمرهم أن يجمعوا حطبًا ويوقدوا نارًا ثم قال: ادخلوها. همّ بعضهم بالدخول، ومنع بعضهم بعضًا، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف» رواه البخاري (7257) ومسلم (1840).

المشهد بالغ الدلالة؛ فالأمير كان معينًا بأمر النبي ﷺ، والطاعة له أصل مشروع، لكن أمره حين خرج إلى المعصية لم يكتسب الشرعية من منصبه. ولو دخلوا النار بدعوى الوفاء بالطاعة لما أعفاهم ذلك من المسؤولية. المنصب لا يحوّل المنكر معروفًا، والنية في طاعة القيادة لا تصلح فعلًا حرمه الله.

وفي الوقت نفسه لم يجعل النبي ﷺ خطأ الأمير ذريعة لإسقاط كل إمرة أو كسر النظام. صحح الحد: «إنما الطاعة في المعروف». وهذا القيد يحفظ الجانبين: يبقي للطاعة معناها، ويمنع أن تصير مطلقة. والخطأ الشائع أن يختار الإنسان أحد الطرفين: إما طاعة عمياء تريح ضميره من التفكير، وإما تمرد دائم يريح هواه من الانضباط.

## الوالدان وبريرة: حقٌّ لا يذوب واختيارٌ لا يُنتزع

اختار القرآن أقوى علاقة طبيعية ليبين دقة الميزان. قال تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: 15]

حتى مع المجاهدة على الشرك قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، ثم لم يقل اقطعهما أو أهِنهما، بل قال: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾. انقطعت الطاعة في المعصية، وبقي البر والصحبة والإحسان. وهذا يبين أن رفض الأمر المحرم لا يمنح النفس رخصةً في القسوة.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: 8]. فالإنسان قد يواجه ضغطًا لا يأتي في صورة عداوة، بل في صورة دموع الوالدين، وخوفهما عليه، وذكر حقهما القديم. هنا تشتد الكلفة؛ لأن النفس لا تريد أن تؤذي من تحب. والقرآن لا يستهين بهذا الألم، لكنه يضع له حدًا: لا طاعة في الشرك أو المعصية، مع بقاء الحسنى والمعروف.

وينطبق الأصل على صور أدنى: اختيار زواج محرم، أو مال مشتبه، أو قطع رحم، أو شهادة زور لحماية قريب. ليس كل خلاف مع الوالدين بطولة، وكثير منه سوء أدب أو هوى؛ لذلك يحتاج الابن إلى تثبت، وإلى اختيار ألين القول، وإلى الاستعانة بأهل الحكمة. لكن إذا ثبتت المعصية بقي رضا الله مقدمًا، وبقي البر واجبًا.

ومن أدق مشاهد السنة في معرفة نوع الخطاب قصة بريرة ومغيث. كان مغيث يحب بريرة حبًا ظاهرًا، يطوف خلفها في طرق المدينة ودموعه تسيل، فشفع له النبي ﷺ عندها وقال: «لو راجعته». فسألت بوعي عجيب: «يا رسول الله، تأمرني؟» قال: «إنما أنا أشفع». قالت: لا حاجة لي فيه. رواه البخاري (5283).

لم يكن سؤالها ترددًا في طاعة الرسول ﷺ، كان بحثًا عن وصف الكلام. لو كان أمرًا لانتقلت القضية إلى مقام الطاعة، فلما بيّن أنه شفاعة بقي لها الاختيار. وهذه القصة تعلم المسلم ألا يسوي بين النص الملزم، والفتوى الاجتهادية، والنصيحة، والمشورة، والرغبة الشخصية لصاحب المكانة.

كم من إنسان يحمل كلام أبيه أو شيخه أو مديره فوق ما أراده قائله، إما خوفًا أو تعظيمًا، ثم ينسب إليه حكمًا ملزمًا لم يلزمه به. وكم من صاحب سلطة يخلط الرأي بالأمر، فيجعل من يخالف اقتراحه كأنه

عاصٍ. وضوح نوع الخطاب يحفظ القلوب والعلاقات: هذا واجب، وهذا نظام مشروع، وهذا رأي خبير، وهذا مشورة، وهذا تفضيل شخصي.

## أهل الاختصاص والمؤسسات: ثقةٌ منضبطة

احترام الخبرة من مقتضى العقل والشرع. قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]. لا يستطيع الإنسان أن يكون طبيبًا وفقيهًا ومهندسًا وخبيرًا في كل شأن، فيحتاج إلى الثقة المنضبطة. لكن الثقة لا تعني العصمة، ولا تنقل إلى الخبير حق الحكم خارج اختصاصه.

يخطئ طرفان: طرف يحتقر العلم باسم أن الرجال لا يُتبعون، فيختار من الآراء ما يشتهي ويزعم استقلاله. وطرف يسلّم لشخص واحد عقله ودينه وحياته؛ لأنه نجح في مجال، فيمنحه سلطةً في كل مجال. الصواب أن يُعطى كل صاحب علم قدره، وأن يُسأل عن دليله بحسب المقام، وأن تُعرف حدود القطع والظن والاجتهاد.

وفي المؤسسات قد تتسع الطاعة بسبب العقد والنظام، لكنها تبقى في المعروف. لا يجوز للموظف تزوير رقم، أو ظلم متعامل، أو كتمان خطر؛ لأن القرار جاء من أعلى. ولا يجوز له كذلك أن يعطل كل قرار إداري لأنه يفضّل بديلًا آخر. يسأل: هل هذا محرم؟ فإن لم يكن، التزم بالنظام ولو خالف مزاجه، أو اعترض بالطرق المشروعة من غير تخريب.

## ضميرٌ منضبط لا تابعٌ أعمى ولا متمرد

راجع علاقات الطاعة في حياتك: والدان، شيخ، مسؤول، جماعة، مؤسسة. هل توجد سلطة تطيعها في كل شيء لأن مواجهتها تؤلمك؟ وهل توجد سلطة مشروعة ترفضها في كل شيء لأنك لا تحتمل الانقياد؟ الطرفان قد يصدران عن هوى واحد: نفس تريد أن تتخلص من مسؤولية الاختيار، أو أن تتخلص من كلفة النظام.

اختر علاقة واحدة وأعد ضبطها لله. إن كنت تتمرد على معروف، فأدِّ الحق الذي عليك واحتسب ثقل الانقياد عند ربك. وإن كنت تنفذ معصية، فتوقف عنها بأدب وحكمة، ولا تحول رفض المعصية إلى عدوان على صاحبها. وإن كنت لا تميز بين الأمر والنصيحة، فاسأل كما سألت بريرة: أهذا ملزم أم مشورة؟ واجعل العبارة النبوية ميزانك عند اضطراب الخوف والرغبة: «إنما الطاعة في المعروف». ففيها حفظ حق الناس، وحفظ قلبك عبدًا لله وحده.

لكن بعض الطاعات تتجاوز معصيةً عارضة. وربما منح الناس عالمًا أو زعيمًا حق تغيير الحلال والحرام، ثم يتبعونه لأن قوله صار عندهم مصدر الحكم. هنا لا يعود السؤال: هل أطيع في هذه المعصية؟ بل: هل أعطيت المخلوق حقًا من خصائص الرب؟

## الوحدة الثالثة عشرة: الأحبار والكبراء

### عبادةٌ بلا سجود

حين يسمع الناس كلمة العبادة يتجه ذهنهم إلى السجود والدعاء والنسك. وهذه عبادات لا تصرف إلا لله، لكنها ليست الطريق الوحيد الذي وصف القرآن به اتخاذ الأرباب. قال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: 31]

جمع السياق بين اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا وبين اتخاذ المسيح ابن مريم، ثم أعاد الأمر إلى أصله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾. فالمشكلة ليست مجرد احترام العلماء أو طاعتهم في المعروف؛ إنما انتقال حق التحليل والتحريم إلى البشر، حتى يصبح قولهم مقدمًا على حكم الله بوصفه حقًا لهم.

كان عدي بن حاتم رضي الله عنه نصرانيًا قبل إسلامه، فسمع النبي ﷺ يقرأ الآية، فقال له النبي ﷺ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئًا حرّموه». رواه الترمذي (3095)، وحسنه الألباني.

صحح الحديث تصور العبادة عند عدي: لم تكن القضية سجودًا لكل حبر وراهب، وإنما اتّباعهم لهم حين قلبوا حكم الله؛ فما أحلوه عُدَّ حلالًا، وما حرموه عُدَّ حرامًا. فالرب هو الذي له الخلق والأمر، ومنح مخلوق حقًّا من خصائص التشريع اعتقادًا ورضًا من اتخاذه ربًّا من دون الله. وهذه دلالة عظيمة تحتاج إلى ضبط؛ حتى لا تتحول إلى تكفير لكل عاصٍ أطاع إنسانًا في ذنب.

### ثلاث طاعات لا يجوز تسويتها

المرتبة الأولى طاعة المخلوق في المعروف؛ وهي مشروعة، وقد تكون واجبة. يطيع المسلم والديه، وولي أمره، ومسؤوله، وأهل العلم والاختصاص في نطاق الطاعة التي أمر الله بها. هذه عبودية لله، لا تأليه للمخلوق.

والمرتبة الثانية أن يطيع إنسانًا في معصية مع اعتقاده أن الفعل حرام، فيغلبه خوف أو شهوة أو مصلحة. هو آثم بطاعته، ولا يجوز تهوين ذنبه، لكنه لم يجعل المخلوق ربًا مشرعًا ما دام مقِرًّا بحكم الله، عالمًا أنه خالفه، غير مستحل للمعصية. يعالج بالتوبة ورد الحقوق وقطع سبب الضعف.

والمرتبة الثالثة أن يعتقد أن للمخلوق حقًا مستقلًا في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل، أو يعتقد مشروعية حكمه المخالف لحكم الله ويرضى به من هذه الجهة. هذه هي الصورة التي تفسر اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا. أما مجرد الوقوع في الحرام طاعةً لهوى أو خوف أو مصلحة مع الإقرار بحكم الله فمعصية لا تُسوّى بهذه المرتبة. والحكم على الوصف العام شيء، وتنزيله على معين شيء آخر؛ يحتاج إلى ثبوت اعتقاده وقصده، وقيام الحجة، وانتفاء الجهل والتأويل والإكراه وسائر الموانع المعتبرة.

إذا سويت المراتب اتسعت دائرة الشرك حتى دخل فيها كل عاصٍ، وهذا مسلك الغلو. وإذا ألغيت المرتبة الثالثة صار حق التشريع شأنًا بشريًا لا صلة له بالتوحيد، وهذا تمييع لمعنى الربوبية والعبودية. العدل أن يثبت لكل صورة حكمها.

## ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾

يرسم القرآن مشهدًا متأخرًا بعد فوات زمن الاختيار:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 66-68]

يتمنى الأتباع لو أطاعوا الله والرسول، ثم يلقون اللوم على السادة والكبراء. لا ينكر القرآن أن القادة أضلّوهم؛ دعا الأتباع عليهم بضعفين من العذاب. لكنه لم يقبل منهم نقل المسؤولية كاملةً. كانوا يملكون قدرًا من السمع والعقل والاختيار، واختاروا أن يجعلوا عظمة المتبوع حجةً بدل الدليل.

والمضل لا ينجو بإلقاء التبعة على من تبعه؛ قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: 13]. يحمل وزره، ويحمل من إثم الإضلال بقدر ما فتح للناس طريقه، من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم. صاحب العلم أو المنصب أو الجمهور يُسأل أمام الله عن كلمته، وعمّا أحدثته من تأثيرٍ وسلطة، وعن الذين هوّن لهم الباطل أو زيّنه.

ويستريح التابع حين يسلّم ضميره لشخص آخر. عناء التحقق، والخوف من الخطأ، وكلفة مخالفة الجماعة كلها تخف إذا قال: الشيخ يتحمل، أو المدير أمر، أو الجميع فعل. لكن يوم القيامة لا يحمل أحد عن أحد أصل تكليفه. المتبوع مسؤول عن الإضلال، والتابع مسؤول عن اتباعه فيما لا يحل؛ وكلاهما يقف فردًا بين يدي الله.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [الشعراء: 151-152]. أمر المسرفين يُقدَّم أحيانًا في صورة قوة وخبرة وقدرة على الإنجاز، لكن القرآن يكشف ثمرته: فساد لا إصلاح. ليست الطاعة محكومة بحضور الشخص وهيبته، بل بميزان المعروف والحق. وقد ينجح القائد في تنظيم الناس ثم يفسد ميزانهم، أو يحسن في أبواب ويضل في باب؛ فلا تُحوّل فضائله الجزئية إلى عصمة شاملة.

## كيف يصنع القلب من الشخص مرجعًا؟

لا يبدأ منحُ الإنسان حقًّا من خصائص الرب عادةً بقرار صريح: سأجعل قوله فوق حكم الله. يبدأ بتراكمات صغيرة. يعجب المرء بعلم شخص أو شجاعته أو أثره، ثم يرتبط بهويته؛ فيصبح نقده نقدًا للذات والجماعة. بعد ذلك يقرأ الأدلة من خلاله: ما وافقه واضح، وما خالفه يحتاج إلى تأويل. ومع الزمن لا يعود يسأل: ماذا قال الله ورسوله؟ بل: كيف أحفظ صورة من أتبع؟

وتعمل الجماعة على توزيع المسؤولية. إذا فعل الفرد وحده منكرًا شعر بثقله، فإذا فعله الآلاف خلف قائد خف الإحساس؛ لأن الذنب ذاب في الحشد. ثم تصنع اللغة ستارًا: تسمى العصبية وفاءً، والكتمان حكمةً، والظلم نصرةً، وتبديل المعايير مراعاةً للمصلحة. ولا يكتشف الإنسان التحول لأنه وقع خطوة خطوة.

وفي البيئة الرقمية يصنع التكرار أحيانًا سلطةً لا تستند إلى علم. يتكلم المؤثر بثقة، ويقدم إجابة سريعة في شأن دقيق، فيتلقى المتابع قوله لأنه ألف صوته لا لأنه عرف دليله. عدد المتابعين لا يصنع أهلية، كما أن الخطأ لا يسقط كل فائدة لصاحبه. الواجب أن يُعرف قدر الشخص، وأن يبقى الحق فوقه.

## العلماء ورثة الأنبياء لا بدائل عن الوحي

تحرير خطر التأليه لا يجوز أن يتحول إلى إسقاط العلماء. الأمة لا تستغني عن فقههم، والجاهل الذي يفتح المصحف والحديث ثم يستقل بالفهم قد يتبع هواه وهو يظن أنه ترك التقليد. العالم المعتبر يجمع النصوص، ويعرف لسانها وأصول الاستدلال ومراتب الأحكام والواقع الذي تنزل عليه. الرجوع إليه من سؤال أهل الذكر، واحترامه دين وأدب.

لكن منزلة العالم قائمة على دلالته إلى الوحي، لا على استقلاله عنه. يصيب ويخطئ، ويؤخذ من قوله ويرد، مع حفظ قدره وعدم تتبع زلاته أو التشهير به. وحين يختلف العلماء لا يجعل المقلد هواه حكمًا بينهم، فيختار الأيسر دائمًا أو الأشد دائمًا، يسأل الأعلم والأورع في نازلته، ويصدق في طلب حكم الله لا في طلب الترخيص.

وقد يقال للإنسان: أنت غير مؤهل لفهم الدليل، وهذا صحيح في مسائل كثيرة، لكنه لا يعني أن يغلق قلبه وعقله. يتعلم قدره، ويسأل عن مستند الفتوى، ويفرق بين النص القطعي والاجتهاد، وبين اتفاق العلماء والخلاف المعتبر. التواضع للعلم غير إلغاء المسؤولية، واحترام العالم غير اعتقاد العصمة.

## خطأ المتبوع لا يمحو مسؤولية التابع

التابع قد يكون ضعيفًا أو جاهلًا أو مكرهًا، وهذه أحوال معتبرة في الحكم على الأعيان، لكن الكتاب يخاطب القلب قبل القضاء على الناس. اسأل نفسك: هل اخترت هذا الشخص لأن عنده الحق، أم صار الحق عندك ما يختاره؟ إذا خالف الدليل، أيهما تعيد تفسيره؟ وهل تستطيع أن تقول لمن تحبه: أخطأت هنا، من غير أن تسقط منزلته كلها؟

وتقع الطاعة أحيانًا في الأسرة لا في مؤسسة دينية: عادة توارثها الكبار، فيُقال للجيل الجديد إن مخالفتها عيب ولو خالفت الشرع. وتقع في البحث العلمي: أستاذ يمنع نتيجةً لأنها تهدد مدرسته، فيختار الطالب ولاءه له على أمانة الدليل. وتقع في العمل: قائد ناجح يجعل الولاء لشخصه معيار الكفاءة، فيدافع أتباعه عن ظلمه خوفًا على الجماعة. في كل صورة يبقى السؤال واحدًا: من منح هذا الإنسان حق إعادة تعريف الحق والباطل؟

اختر شخصًا أو جماعة يصعب عليك نقدها. لا تبدأ بتصيد أخطائها، بل اختبر مرجعيتك: اختر مسألة واحدة ظهر فيها الدليل، واقرأها من مصدر مستقل، ثم أعط كل طرف حقه. إن كان متبوعك مصيبًا فاتبعه لله لا لشخصه، وإن أخطأ فرد خطأه مع حفظ فضله، وإن كنت أنت المخطئ فارجع من غير أن تجعل كرامتك حجابًا.

بهذا يسترد القلب مسؤوليته: لا يعيش بلا علماء ولا نظم ولا قيادات، ولا يمنح واحدًا منهم حق الرب. يوقر أهل الفضل، ويؤدي حقوق الطاعة، ثم يبقى قلبه خاضعًا لله، يرجو رضاه ويخاف أن يلقاه وقد قدّم قول مخلوق على أمره. وحين يظهر التنازع، لا يكفي أن تقول: لا أتبع الأشخاص؛ فلا بد من جهة يُرد إليها الأمر. وهنا يفتح المحور التالي سؤاله: إلى من ترد الأمر؟

# المحور الرابع: إلى من ترد الأمر؟

انتهى المحور السابق إلى أن المحبة تُمتَحن بالاتباع، وأن الطاعة لا تستقيم حتى تكون في المعروف. لكن يبقى سؤال أعمق: حين تختلف الأقوال وتتشابك المصالح ويزعم كل فريق أن الحق معه، إلى أي مرجع يعود القلب؟ ومن يملك الكلمة التي تعلو على ذوق الأسرة وضغط البيئة ومكانة العالم وحساب المصلحة؟

المرجعية ليست قضية بعيدة لا تظهر إلا في المجالس العلمية أو أنظمة الحكم. تعمل حين يختلف زوجان، ويراجع باحث نتيجةً أحبها، وتُعرض على موظف صفقة، ويسمع الإنسان حكمًا لا يوافق مألوفه. وقد يقول إن مرجعه القرآن والسنة، ثم يبدأ بحثه من النتيجة التي يريدها، فيبقى الوحي في الكلام ويفقد حق الحسم.

أن ترد النزاع إلى الله والرسول يعني ألا تجعل العرف أو الخبرة أو السلطة أو الهوى صاحب حق في تحليل الحرام ورد النص. وهذه الأدوات لا تُلغى: العقل يفهم، والخبرة تصف الواقع، والعرف ينظم ما سكت عنه الشرع، والعالم يدل على الدليل؛ لكنها كلها تعمل تحت الوحي ولا تقف فوقه.

ومن مداخل العدو أن يحول طلب الفهم إلى بحث عن مخرج، وأن يجعل المصلحة أو المزاج «بداهةً» يُحاكم إليها النص. لا تقاوم ذلك بالريبة في كل اجتهاد، بل بإخلاص الطلب، وثبات معيار الدليل، وقبول النتيجة حين تخالف حظك. عندها يكون الرد إلى الله ورسوله عبادةً، ويكون تمامها أن يقبل القلب الحكم.

## الوحدة الرابعة عشرة: ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم

### هداية تأتيك من فوق هواك

يبدأ القرآن بناء المرجعية بأمر قصير حاسم:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]

سمّى الله مصدر الهداية: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. فالحق الديني لا يصنعه القلب من داخله، ولا تمنحه الجماعة شرعيته بكثرة المقتنعين به، ولا يتحول إلى حق لأن الإنسان أحبه طويلًا. يأتي الوحي إلى الإنسان من خارج رغباته ليهديه، ويعلو عليه ليحرره من عبودية نفسه. ومن هنا كان التلقي عبادة: أن تستقبل كلامًا لم تكتبه، ثم تسمح له أن يراجعك بدل أن تجعله مادةً تراجع بها غيرك.

وجاء النهي في الآية متصلًا بالأمر: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾. فالولاية ليست مشاعر ونصرة فحسب؛ قد تكون مرجعيةً تمنح شخصًا أو ثقافةً حق تحديد ما يقبل وما يرد. حين يصير صوت المألوف

أعلى من الوحي المنزَّل، أو يصبح المؤثر هو الذي يحدد للإنسان ما يستحي منه وما يفتخر به، فقد دخلت الولاية إلى باب التلقي، وإن بقيت عبارات التعظيم للوحي على اللسان.

وقال تعالى:

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: 55]

لم يأمر باتباع بعض ما أُنزل، ولا بأخذ ما يوافق الذوق ثم ترك الباقي للمراحل المريحة. وصف المنزل بأنه ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾؛ لأن الذي أنزله أعلم بالإنسان من نفسه، وأرحم به من هواه، وأبصر بعاقبة اختياراته. وقد يرى الإنسان الحكم ثقيلاً في لحظته، لكنه لا يرى الشرّ الذي يحفظه منه ولا الخير الذي يقوده إليه.

## كتابٌ يعصم من الضلال

في حجة الوداع، والناس يسمعون وصايا النبي ﷺ الأخيرة الجامعة، قال جابر رضي الله عنه في حديثه الطويل إن رسول الله ﷺ قال: «وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتابَ الله» رواه مسلم (1218).

لم يقدم النبي ﷺ الكتاب تذكارًا مباركًا يُحفظ في البيوت، بل عصمةً من الضلال عند الاعتصام. والاعتصام أعمق من التلاوة المجردة؛ هو أن يمسك الإنسان بالوحي حين تتجاذبه الطرق، وأن يعيده إلى موضع القيادة في المعرفة والاختيار. قد يقرأ المرء القرآن طلبًا للسكينة، لكنه إذا جاءه حكمه في تجارة أو علاقة أو موقف علمي بحث عن مرجع آخر. هذا انتفاع ببعض نور الكتاب مع ترك وظيفته الحاكمة.

والسنة داخلة في هذا الاعتصام؛ لأن القرآن نفسه أمر بطاعة الرسول واتباعه، وجعل بيانه وحيًا وهدى. فلا يصح أن يُرفع شعار القرآن ليُعزل بيان النبي ﷺ، كما لا يصح أن تُروى السنة بعيدًا عن القرآن الذي جاءت السنة مبينةً له. الوحي في بنائه واحد: كتابٌ منزل، ورسولٌ يبلغه ويبينه بقوله وفعله.

والاعتصام لا يعني أن القارئ الفرد يستغني عن العلماء، أو أن كل فهم يخطر له يصبح حكم الله. إنما يعني أن العلماء يُتلقّى عنهم لأنهم أدلاء على الوحي، وأن أقوالهم تُحترم من غير أن تُنقل من مرتبة الفهم البشري إلى مرتبة النص المعصوم. العامي يسأل من يثق بعلمه ودينه، وطالب العلم ينظر في الأدلة على قدر أهليته، والمجتهد يبذل وسعه؛ وكلهم يقفون تحت الوحي لا فوقه.

## حين يستدير الصف كله

جعل الله تحويل القبلة امتحانًا ظاهرًا لسلطة الأمر الإلهي. قال سبحانه:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 142-144]

لم تكن القبلة اتجاهًا هندسيًا محايدًا، كانت عبادةً وهويةً وذاكرة. وقد علم الله أن التحول سيطلق ألسنة السفهاء، وأنه سيكون كبيرًا إلا على الذين هدى الله. ثم كشف وظيفة الامتحان: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾. فالقبلة التي يتجه إليها الجسد كشفت القبلة التي يتجه إليها القلب: أهو أمر الله أم ثقل المألوف وكلام الناس؟

ويروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنزِل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة» رواه البخاري (403) ومسلم (526).

كانوا في الصلاة نفسها، ولم ينتظروا اجتماعًا لتحسين صورة القرار، ولا انتهاء الركعات حتى يبقى النظام القديم مكتملًا. بلغهم أمر ثابت عن رسول الله ﷺ، فتحرك الصف وهو قائم بين يدي الله. إن منظر الأجساد وهي تستدير في الصلاة يلخص حقيقة المرجعية: لا يكفي أن أعرف أن الاتجاه تغير، ينبغي أن يدور وجهي حيث وجّهني الله.

وتظهر مقاومة القلب للحق أحيانًا في طلب مهلة لا يحتاجها الفهم، بل تحتاجها النفس لتتعايش مع فقد مألوفها. ليست كل مهلة تهربًا، فقد يلزم التثبت والسؤال وترتيب القدرة. لكن الفارق يُعرف من مسارها: هل تقربك من الامتثال، أم تجعل كل جواب بداية سؤال جديد يحفظ الاتجاه القديم؟ أهل قباء لم يعبدوا السرعة لذاتها، ثبت عندهم الخبر، فعبدوا الله بالتحول.

## الآباء والأكثرية وصناعة البداهة

يقابل القرآن التلقي عن الوحي بصورة مكررة في تاريخ البشر:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]

لا تكمن المشكلة في الانتفاع بإرث الآباء، ففيه علم وتجربة وخير كثير. المشكلة أن يصبح مجرد الوراثة دليلًا، وأن يُرد المنزل لأن البيئة لم تألفه. المألوف يلبس في النفس ثوب البداهة، فالإنسان لا يشعر أنه اختار رأيًا، بل يراه هو «الطبيعي»، ثم يبدو النص المخالف غريبًا يحتاج إلى دفاع.

وهذا يحدث في الأسرة حين تُقدّم عادة اجتماعية على حق ثابت، وفي العلم حين يصبح قول المدرسة أو الشيخ حدًا لا يجوز تجاوزه، وفي العمل حين تتحول ممارسة قديمة إلى معيار أخلاقي لمجرد أن الجميع يفعلها، وفي البيئة الرقمية حين تصنع كثرة التكرار وهم الإجماع. لا يقول أحد صراحة: الأكثرية معصومة؛ لكن القلب يأنس بما تكرر حتى يفقد القدرة على رؤيته من خارج الجماعة.

والقرآن لا يطلب من الإنسان أن يعاند الناس ليشعر بالاستقلال. قد يكون الحق مع الآباء، وقد تهدي الخبرة الجماعية إلى صواب، وقد يخطئ الفرد في فهمه. المطلوب تغيير دليل القبول: يُقبل الموروث إذا وافق الحق، ويُراجع إذا خالفه؛ ويُحترم العالم من غير أن يُعصم؛ ويُستأنس بالكثرة من غير أن تُمنح حق إنشاء الدين.

من أخطر صور التقليد أن يبحث الإنسان في الوحي بعد أن يحسم النتيجة. يبدأ من ولائه للشخص أو المذهب أو الجماعة، ثم يجمع الأدلة التي تحميه. وقد يقرأ كتب المخالف لا ليفهمها، بل ليعثر على العبارة التي يدينه بها. عندئذ لا يكون الوحي قائدًا للبحث، يكون ذخيرةً في معركة الهوية.

## العقل والعرف والخبرة: أدوات تحت النور

إقامة الوحي مرجعًا أعلى لا تعني تعطيل العقل. كيف يفهم النص بلا عقل؟ وكيف يميز الصحيح من السقيم، والعام من الخاص، والمطلق من المقيد، والمقصد من الوسيلة؟ والقرآن نفسه يكرر الدعوة إلى التعقل والتدبر والنظر. إنما يفسد العقل حين يتجاوز وظيفته، فيرد نصًا قطعيًا لأنه لم يدرك حكمته، أو يجعل محدود خبرته معيارًا على علم الله.

والخبرة تصف الواقع وتقدّر الوسائل والعواقب. الطبيب يعرف الدواء، والمهندس يعرف البناء، والاقتصادي يصف أثر السياسة المالية، والمربي يقدر مراحل التعليم. لكن الخبير لا يملك بمجرد خبرته أن

يحلل محرمًا أو يحرم حلالًا. وظيفته أن يبين ما يقع وما يرجح من النتائج، ثم يدخل ذلك في اجتهاد شرعي معتبر. وقد يخطئ المتدين حين يهمل الخبرة باسم النص، كما يخطئ الخبير حين يجعل تقديره حكمًا فوق النص.

والعرف معتبر في أبواب واسعة: يفسر ألفاظ العقود، ويحدد طرائق المعاش، وتتغير به وسائل كثيرة. لكنه لا يقلب الحرام حلالًا لكثرة الاعتياد، ولا يسقط حقًا ثابتًا لأن المجتمع يستثقله. وحين يقول الإنسان: «الناس هنا لا يرون في هذا بأسًا»، فالسؤال التالي: هل ترك الشرع هذا الباب للعرف، أم جاء فيه بحكم؟ بذلك يبقى العرف حيًا في مجاله، ولا يتحول إلى مشرّع صامت.

والعقل الصحيح لا يجد كرامته في الوقوف ضد الوحي، بل في فهمه، وجمع نصوصه، وتنزيله على واقع محرر. وهو يدرك حدوده: قد يفهم الحكمة وقد تخفى عليه، وقد يدرك المآل وقد يعجز عنه. التسليم للقطعي ليس إلغاءً للعقل؛ هو اعتراف العقل بحدوده أمام علم من لا يخفى عليه شيء.

## مرجعٌ لا يضيق بحياتك

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]. لم يقل: يهدي إلى جانب من الحياة، وإنما إلى التي هي أقوم؛ إلى أقوم الاعتقاد والعبادة، وأقوم العلاقة والعدل، وأقوم النظر في النفس والناس. وكلما حُصر القرآن في التبرك أو الوعظ الفردي، تُركت مساحات القرار لتملأها مرجعيات أخرى من غير أن يشعر الإنسان أنه غيّر قبلته.

ويظن بعض الناس أن الرجوع إلى الوحي يضيّق واقعه؛ لأنه يتخيل أن النصوص لا ترى تعقيد الحياة. لكن المنزل جاء من العليم بالسرائر والمآلات، وترك للاجتهاد والخبرة مساحتهما. الضيق الحقيقي ينشأ حين يُطلب من النص أن يبارك كل واقع بدل أن يهديه، أو حين يُختزل الواقع في مصلحة عاجلة ويُغفل أثرها على القلب والأسرة والعدل والآخرة.

تصور مديرًا ناجحًا بُنيت سمعته على سرعة الإنجاز. ظهرت في مشروعه مخالفة واضحة، وتصحيحها سيؤخر التسليم ويكشف خطأً سابقًا. لم يقل: لن أطيع الله. بدأ بجمل تبدو مهنية: «المشروع لا يحتمل»، «سنصلحها لاحقًا»، «المصلحة العامة تقتضي الصمت». ثم بحث عن فتوى عامة في الضرورات، ولم يذكر للمفتي أن الضرر متوقع لا محقق، وأن البديل ممكن لكنه مكلف. خرج بجواب يريحه، وأقنع نفسه أنه رجع إلى الشرع. في الحقيقة كان قد اختار النتيجة، ثم استدعى من الوحي ما يحرسها.

هذه الصورة لا تختص بالعمل. قد يفعلها أب في زواج ابنته، وباحث في نتيجة دراسته، وداعية في خطأ جماعته. المرجعية لا تُختبر بكثرة ما تقتبسه من النص، بل بقدرة النص على تغيير القرار الذي أحببته.

## من أين تبدأ؟

تأمل مسألة تمس مصلحةً لك أو شخصًا تحبه. قبل أن تبحث، اكتب النتيجة التي تتمناها، ثم راقب مسارك: ألا ترى إلا الكلمات التي تخدمها؟ هل يتغير معيار قبول العالم والحديث بحسب الجواب؟ هل تطلب من النص أن يهديك، أم أن يوقّع على قرار اتخذته؟ هذه المراجعة لا تتهم كل رغبة، وإنما تمنع الرغبة من أن تختبئ في ثوب الدليل.

إن كانت المسألة دقيقة، فعبوديتك أن تسأل أهل العلم الموثوقين، وأن تصف الواقعة كاملة لا الجزء الذي يضمن الفتوى المرغوبة. وإن كان الحكم واضحًا، فعبوديتك أن تبدأ منه لا من سؤال: كيف أتجاوزه؟ وإذا تعددت فيها اجتهادات معتبرة، فلا تجعل الاختلاف سوقًا للرخص ولا سلاحًا لتبديع المخالف.

استعد صورة أهل قباء: بلغهم الأمر الثابت، فاستدار الصف كله. المرجعية تبدأ حين يسمح القلب للحق أن يدير وجهه وقراره، لا حين يكتفي بتعظيمه من بعيد. غير أن إعلان المرجع لا ينهي اختلاف البشر؛ فكل فريق يستطيع أن يقول: معي الدليل. ومن هنا يأتي السؤال التالي: كيف نرد الأمر إلى الله ورسوله من غير أن نجعل فهمنا نحن هو الوحي؟

## الوحدة الخامسة عشرة: فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ

### النزاع يكشف المقصود من الدليل

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]

بدأت الآية بالطاعة، ثم لم تفترض أن المؤمنين لن يختلفوا. قالت: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾. النزاع جزء من حياة البشر؛ تختلف أفهامهم ومعارفهم ومصالحهم وصور الوقائع. لكن الإيمان يظهر في الاتجاه الذي يسلكه النزاع: هل يصير بابًا للرجوع، أم مناسبةً لتعبئة الجماعة وحماية الذات؟

ربطت الآية الرد بالإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾. لأن الرد ليس مهارة قانونية فقط؛ هو اعتراف بأن الحكم لله، وأن الخصومة ستقف يومًا بين يديه بعد أن تنتهي قدرة الإنسان على تحرير روايته. ومن استحضر اليوم الآخر لم يسأل فقط: كيف أربح النقاش؟ بل: بأي جواب ألقى الله؟

ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. قد يرى كل طرف في لحظة النزاع أن مصلحته في انتصاره، لكن الخير والعاقبة الأجمل في رد الأمر إلى مرجع أعلى من الطرفين. الوحي لا يحمي الحق المجرد وحده؛ يحمي المتنازعين من أن تصبح رغباتهم قضاةً في القضية نفسها.

وقال تعالى:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: 10]

لا يقول المؤمن: حكمي فيه إلى غضبي، أو إلى مكانة القائل، أو إلى ما تستحسنه الجماعة. يقول: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثم يتوكل عليه وينيب؛ لأن قبول الحكم يحتاج إلى استعانة وتوبة من حظ النفس، لا إلى معرفة مجردة بالنصوص.

## الرد إلى الرسول بعد وفاته

كان الرد إلى الرسول ﷺ في حياته بالرجوع إليه وسؤاله والتحاكم إليه، وبعد وفاته يكون إلى سنته الصحيحة. ولذلك قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» رواه البخاري (2697) ومسلم (1718)، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

كلمة «رد» تعيد ميزان القبول إلى أمر الرسول، لا إلى حسن نية العامل ولا كثرة المعجبين بالفعل. وهي كذلك تحمي باب النزاع من أن يصبح كل قول ممكنًا ما دام صاحبه يصفه بالمصلحة. ما كان دينًا وحكمًا شرعيًا احتاج أن يقوم عليه دليل، وما كان من الوسائل والاجتهادات الدنيوية بقي أوسع، تضبطه الأصول والمقاصد ولا يُطلب له نص خاص باسمه.

والرد إلى السنة يقتضي التثبت منها؛ فليس كل ما نُسب إلى النبي ﷺ ثابتًا، ولا كل لفظ مشهور محفوظًا. ومن تعظيم السنة ألا يُستدل بالضعيف وكأنه صحيح، وألا يُركب معنى من روايات مختلفة ثم يوضع بين علامتي اقتباس. كما يقتضي فهمها في ضوء مجموع النصوص وكلام أهل العلم، لا انتزاع حديث من سياقه لتسوية نزاع معقد.

يكون النزاع أحيانًا في ثبوت النص، أو دلالته، أو تحقيق الواقع الذي ينزل عليه، أو تعارض مصالح معتبرة. وكل نوع يحتاج أهله وأدواته. من الظلم أن نسمّي كل اختلاف ردًا للوحي؛ فقد يختلف عالمان وكلاهما يريد مراد الله، لكن أحدهما رجح دليلًا أو فهم دلالةً غير ما فهم الآخر. ومن التمييع أن نجعل كل قول اجتهادًا معتبرًا ولو صادم نصًا صريحًا أو صدر ممن لا يملك آلة النظر.

## النص المعصوم والفهم البشري

الوحي معصوم، أما فهم الإنسان له فليس كذلك. هذه الجملة تحمي من تعصبين: تعصب يذيب النص في احتمالات لا تنتهي حتى يفقد سلطانه، وتعصب يجعل رأي الإنسان هو النص نفسه، فمن خالفه اتُّهم بمخالفة الله.

حين يقول العالم: هذا حكم الله، فهو يقصد ما ظهر له بدليله، وقد يكون في المسألة نص قطعي لا يسوغ خلافه، وقد تكون اجتهادية تحتمل أكثر من وجه. الأمانة تقتضي بيان المرتبة. فالقطعي لا يُعرض كاختيار، والظني لا يُرفع إلى منزلة القطعي، والمسألة التي تحتاج تصويرًا دقيقًا لا يُقذف فيها بحكم قبل معرفة واقعها.

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 43]

الرجوع إلى أهل الذكر ليس تفويضًا مطلقًا للضمير، بل رجوع من لا يعلم إلى من يملك أدوات العلم. السائل مأمور أن يختار الأوثق علمًا ودينًا قدر استطاعته، وأن يذكر الواقعة بصدق، وألا يتنقل بين المفتين حتى يجد الرخصة. والعالم مأمور أن يقول لا أعلم، وأن يفرق بين حكم النص وتقديره للواقع، وألا يحمل الناس على اجتهاده الخاص وكأنه وحي.

وفي البحث العلمي أو المؤسسي قد تُستعمل عبارة «هذا رأي الشرع» لإغلاق النقاش، بينما المعروض تفسير بشري أو تقدير مصلحة. وقد يقع العكس؛ فيسمى النص القطعي «قراءة تراثية» حتى يُنزّل إلى مستوى الأذواق. التوحيد يرفض الحيلتين: لا يقدس الفهم البشري، ولا يذيب كلام الله ورسوله في التاريخ.

## بنو قريظة: النص الواحد وفهمان

بعد انصراف النبي ﷺ من الأحزاب قال لأصحابه: «لا يُصلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظة». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال فريق: لا نصلي حتى نأتيها، تمسكًا بظاهر الأمر؛ وقال فريق: بل نصلي، لم يُرَد منا تأخير الصلاة، وإنما أراد الإسراع. فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنّف واحدًا منهم. رواه البخاري (4119).

هذا المشهد لا يقرر أن كل تفسيرين صحيحان، ولا أن النص بلا معنى محدد. يقرر أن المجتهدين قد يتفقون في تعظيم النص ويختلفون في فهم مراد المتكلم: أيقصد اللفظ على ظاهره، أم يقصد الحث على الإسراع؟ لم يكن أحد الفريقين يريد التخلص من الأمر؛ كلاهما كان يتحرك تحته، ولهذا لم يعبهما النبي ﷺ.

كان كل فريق يخشى أن يضيّع مراد رسول الله ﷺ، لا أن يخسر رأيه أمام الفريق الآخر. هذه هي المسافة بين اجتهاد العابد وجدال المنتصر لنفسه: الأول يطلب المراد ولو ظهر على لسان غيره، والثاني يطلب الغلبة ثم يستدعي النصوص لتثبيتها.

الفرق كبير بين اختلاف ولد من بذل الوسع في طلب المراد، وخلاف يصنعه الهوى بعد معرفة الحكم. الأول يورث تواضعًا ورحمةً وأدبًا؛ لأن صاحبه يعلم أنه قد يخطئ. والثاني يورث مراوغةً؛ لأن صاحبه لا يريد أن يعرف ما دل عليه النص، بل أن يحمي نتيجة سابقة.

ومن هنا لا يصح أن يُستدعى مشهد بني قريظة لتبرير كل قول شاذ أو رد صريح النصوص، كما لا يصح أن يُلغى به الاجتهاد. له شروطه: أهلية النظر، واحتمال الدلالة، وبذل الوسع، وعدم اتباع الهوى. وحين تتوافر أسبابه يبقى الحق واحدًا في نفس الأمر، وقد يؤجر المجتهد المصيب أجرين والمخطئ أجرًا.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكمُ فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» رواه البخاري (7352) ومسلم (1716).

الحديث لا يمنح الأجر لكل متكلم؛ قيده بالحاكم المجتهد، أي المؤهل الذي بذل وسعه. كما لا يجعل الخطأ صوابًا؛ سماه خطأً مع إثبات أجر الاجتهاد. وبذلك يجمع الإسلام بين ثبات الحقيقة ورحمة الطريق إليها: لا نسبية تساوي الأقوال، ولا قسوة تجعل كل خطأ خيانةً للنص.

## الرد يبدأ من صدق تصوير الواقع

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]. قبل أن تسأل: ما حكم الله؟ اسأل: ماذا وقع فعلًا؟ فقد يكون النص ثابتًا، والاستدلال منضبطًا، ثم يفسد الحكم لأن الصورة التي نُزّل عليها مبتورة أو كاذبة.

يبدأ الرد الصادق قبل فتح الكتب: يبدأ بأن يسمع الإنسان الرواية التي لا تخدمه، ويذكر من الواقعة ما يدينه كما يذكر ما يدين خصمه. كم من فتوى تغيرت حين ظهرت تفاصيل العقد، أو طبيعة الضرر، أو قصد المتكلم، وكم من حكم بُني على قصة رواها طرف واحد ثم سقط حين اكتملت الصورة. ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ لا تعني رد واقعة متخيلة، بل رد الواقع كما هو إلى الوحي كما نزل.

ثم يُسأل: هل في المسألة نص ثابت صريح؟ وما درجة دلالته؟ وهل توجد نصوص تقيده أو تخصصه؟ أهذا باب عبادة أم عادة، وحكم ثابت أم وسيلة متغيرة؟ من أهل الاختصاص الشرعي والواقعي؟ وما مساحة الاجتهاد المعتبر؟ هذه الأسئلة لا تُلقى على الحكم الواضح لتغريقه في التعقيد، وإنما تحرس اللسان من أن ينسب إلى الله ما لم يقله.

وقبل هذا كله يحتاج الباحث والمفتي والمتخاصم إلى افتقار خفي: يا رب، أرني الحق حقًا ولو نقض ما أحببت، ولا تجعل مكانتي أو غضبي حجابًا بيني وبين هداك. فمن استغنى بعقله عن هداية الله امتلك أدوات كثيرة، وبقي أسير أهوائه وهو يظن أنه يحقق الحق.

في الخلاف الأسري قد يجمع الزوج النصوص التي تثبت حقه ويغفل ما يلزمه بالمعروف، بينما تجمع الزوجة ما يؤكد مظلمتها وتترك ما عليها من حق.

الرد إلى الله ورسوله يجمع الميزان كله: لك حق وعليك واجب، وقد ظلمك الآخر ولم يُبح لك ظلمه.

وفي البحث العلمي أو المؤسسي لا تكون الأمانة في ذكر الدليل المؤيد وحده، بل في عرض أقوى ما يعارضه، والتمييز بين ما ثبت وما استنتج، وبين خبر الثقة وإشاعة الجمهور. وفي زمن المقاطع المقتطعة قد يُبنى مدح وذم، وربما تفسيق وتبديع، على ثوانٍ لا يظهر فيها ما قبل الكلام ولا ما بعده. يسبق الغضب التثبت لأن الخبر وافق صورة جاهزة، ثم يصير الاعتذار أثقل من الخطأ؛ فقد دخلت القصة في هوية الجماعة.

التثبت لا يعني تعطيل الأحكام حتى يستحيل العلم، ولا الشك المرضي في كل خبر. معناه أن تكون درجة الجزم بقدر الدليل، وأن يُعبد الله في إثبات الواقعة كما يُعبد في الحكم عليها. فالرد إلى الوحي أمانة مركبة: صدق في نقل الواقع، وعلم بثبوت النص، وفهم لدلالته، وعدل في تنزيله. وإذا اختل واحد منها، أمكن أن يتكلم الإنسان باسم الشرع وهو يظلم الشرع والناس معًا.

## أدب الاختلاف من تعظيم الوحي

إذا كان المرجع هو الله، فلست مضطراً إلى هدم أخلاقك لتنتصر له. الكذب على المخالف، وبتر كلامه، وتحميله ما لم يقل، والشماتة بزلاته؛ كلها إعلان عملي أن الغاية تبرر الوسيلة، مع أن المرجع الذي تدافع عنه حرّم الظلم. ومن فقد العدل في طريق إثبات الحق فقد جعل غضبه شريكًا في الحكم.

ومن أدب الرد أن تفرق بين الخطأ وصاحبه، وبين المخالف المتأول والمعاند، وبين المسألة القطعية والاجتهادية. قد يكون قولك أرجح، ولا يكون مخالفك فاسقًا ولا جاهلًا. وربما كان الخطأ جسيمًا، وتصحيحه لا يحتاج إلى ازدراء صاحبه. وقد يجب التحذير من قول، مع حفظ حق قائله وعدم اختراع نيات له.

والرجوع فضيلة لا هزيمة. من قال بعد بحث: أخطأت، فقد انتصر للمرجع على نفسه. ومن حمى قوله لأنه صار جزءًا من هويته، جعل صورته طرفًا في النزاع. من أجمل ثمار العلم أن يصبح الاعتراف بالخطأ أسرع، لا أن تصبح أدوات الدفاع عنه أكثر مهارة.

اختر نزاعًا حاضرًا في حياتك، واكتب موقف الطرف الآخر بأقوى صيغة عادلة قبل أن تجيبه. ثم اسأل: ما الواقعة المتفق عليها؟ وما النص الثابت؟ وأين يبدأ الاجتهاد؟ وما الحق الذي قد يكون له ولو أخطأ في غيره؟ عندها تنتقل من خصومة الانتصار إلى عبودية الرد.

من رجع إلى الحق لم يخسر؛ لقد استرد قلبه من نفسه. ويبقى وراء منهج الرد سؤال أصلب: لماذا يكون الحكم لله أصلًا؟ وما الفرق بين التشريع الذي هو حق الرب، وبين تنظيم الحياة بالخبرة والعرف؟

## الوحدة السادسة عشرة: أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا

### من الذي يملك حق التحليل والتحريم؟

قال الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 114-115]

السؤال في الآية ليس طلبًا لحكم ناقص يحتاج إلى استكمال، بل إنكارٌ أن يُبتغى حكم غير الله وهو الذي أنزل الكتاب مفصلًا. ثم ربط الحكم بكمال كلماته: ﴿تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. صدقًا في الخبر، وعدلًا في الأمر والحكم؛ فلا يملك أحد أن يكون أصدق منه علمًا، ولا أعدل منه تشريعًا.

والحكم لله ناشئ عن ربوبيته وألوهيته وعلمه. الذي خلق يعلم من خلق، والذي يرزق ويحيي ويميت هو الذي يملك أن يقول لعباده: هذا حلال وهذا حرام. الإنسان قد يقنن ما يراه نافعًا اليوم ثم تظهر له آثار لم يحسبها، وقد يحكم لمصلحة فئة أو تحت ضغط شهوة عامة؛ أما الله فلا تخفى عليه عاقبة، ولا يعود إليه نفع من طاعة العباد، ولا يلحقه ضرر من معصيتهم.

وفي ظلمة السجن، حيث لا سلطان ليوسف عليه السلام ولا مال ولا عشيرة، جاءه فتيان يطلبان تعبير رؤياهما. لم يبدأ بالجواب التقني المباشر؛ رأى قلبين تحكمهما أرباب متفرقة، فسبق تعبيرَ الرؤيا بدعوةٍ تعيد أصل الوجهة:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 39-40]

كان يوسف مقيد الجسد، حرَّ المرجع. لم يمنح السجن ولا الملك ولا الموروث حق تسمية الأرباب أو إنشاء الدين. جمع بين توحيد العبادة وتوحيد الحكم: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. فحق الأمر والنهي ليس ملحقًا منفصلًا عن الألوهية، كما أن الألوهية لا تُختزل فيه. الإله الذي تدعوه وتسجد

له هو الذي تتلقى عنه الدين؛ والحاكمية جزء من عبوديته الواسعة، لا كل التوحيد ولا شعارًا سياسيًا يطغى على سائر حقوق الله.

وهنا يظهر الكفر بالطاغوت في باب المرجعية. ليس معناه إطلاق وصف الطاغوت على كل اجتهاد بشري أو كل مخطئ، وإنما رفض أن يُمنح غير الله حق إنشاء دين مضاد، أو تحليل ما حرم، أو تحريم ما أحل، أو الحكم على الوحي من مقام مستقل. ويبقى للعالم والاجتهاد والعرف والتنظيم سلطانها المشروع تحت إذن الله؛ الذي يُخلع هو حق المنافسة لا حق الفهم والتنزيل.

## حدود الله لا تتبدل بالأسماء

قال النعمان بن بشير رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس؛ فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري (52) ومسلم (1599).

جلس مسؤول مالي أمام تقرير يعرف أن رقمه الأخير غير صادق. لم يُطلب منه أن يسرق مالًا بيده؛ طُلب أن يؤخر إثبات خسارة حتى ينجح الإعلان عن النتائج، وقيل له: «هذه معالجة محاسبية، وسنصححها لاحقًا». كان توقيعه يعني مكافأةً وترقيةً ورضا الإدارة، ورفضه قد يجعله هو المشكلة. في الدقائق الأولى لم يناقش الحكم؛ ناقش الاسم: أهو كذب أم «مرونة»؟ أهو غش أم «حماية للمؤسسة»؟ كل اسم جديد كان يبعد الفعل خطوةً عن حقيقته، حتى كاد ضميره يهدأ من غير أن يتغير الرقم.

هنا يعمل تصوير النبي ﷺ: راعٍ يقترب من الحمى، وقلب تتقرر فيه سلامة الجسد أو فساده. المعركة لم تكن بينه وبين معلومة فقهية يجهلها، بل بين حد الله وأمنه الوظيفي. فإذا جعل المصلحة تعيد تسمية الحرام، لم تعد المشكلة في الورقة وحدها؛ صار القلب يتعلم أن حدود الله قابلة للتفاوض كلما ارتفعت الكلفة.

يبني الحديث الحاكمية في القلب والسلوك. هناك حلال واضح وحرام واضح، فلا يملك السوق أو القانون أو شيوع الممارسة أن ينقل الشيء من أحدهما إلى الآخر. وهناك مشتبهات تحتاج علمًا وورعًا، فلا يجوز أن يقطع الإنسان فيها بلا بينة، ولا أن يستعمل الاشتباه ذريعة للوقوع فيما يقربه من الحرام.

ثم ينتهي الحديث إلى القلب؛ لأن الحدود لا تُحفظ بالنصوص الخارجية وحدها. قد يعرف الإنسان الحكم، لكنه يقف عند حمى الحرام كل يوم حتى يضعف حاجزه. يعيد تسمية الرشوة «تسهيلًا»، والربا «تكلفة تمويل»، والكذب «إدارةً للصورة»، والظلم «حمايةً للمؤسسة». الأسماء لا تغير الحقيقة عند الله، لكنها تخفف ألمها في الضمير، حتى يصير القلب نفسه أداةً لشرعنة ما يريد.

ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: 116]

ليس التحليل والتحريم انطباعًا أخلاقيًا عابرًا، هو قول على الله. وقد يقع فيه من يشدد بغير دليل كما يقع فيه من يبيح بغير دليل. من حرم على الناس زينةً أو طعامًا أو عادةً مباحة لأن ذوقه ينفر منها، فقد نازع المرجع مثل من أحل محرمًا لمصلحة. والورع لا يعني توسيع دائرة الحرام، بل الوقوف حيث وقف الدليل.

## حكم الجاهلية ليس زمنًا مضى

قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 48-50]

أمر الله نبيه أن يحكم بما أنزل، وحذره من اتباع الأهواء، ثم ختم بالسؤال: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾. حكم الجاهلية في سياق الآيات هو ابتغاء حكم يخالف ما أنزل الله ويتبع أهواء البشر، ثم منحه منزلة تزاحم الحق المنزل. وليس المراد كل تنظيم بشري أو اجتهاد في مساحة أذن الشرع فيها؛ فذلك سيأتي في موضعه.

وتنزيل أوصاف الكفر والظلم والفسق يحتاج إلى علم وعدل؛ فالحكم بغير ما أنزل الله له صور وأحوال، وليست كل مخالفة سواء. من عصى لهوى أو رشوة، مع علمه بالحكم وإقراره بأن حكم الله هو الحق، ارتكب جرمًا عظيمًا، ولا يُسوّى بمن جحد حكم الله، أو استحل مخالفته، أو اعتقد أن تشريع البشر أحسن أو مساوٍ،

أو أن التحاكم إلى الله غير لازم. ووصف الفعل شيء، والحكم على المعيّن شيء آخر يقوم على ثبوت الشروط وانتفاء الموانع.

هذا كتاب يرد القارئ إلى عبوديته، لا أداة لتكفير حكام أو أنظمة أو جماعات من بعيد. السؤال الذي يلاحقه هنا أقرب: أين يستبدل يوميًا حكم العرف أو المصلحة أو الهوى بحكم الله؟ وأين يهوّن من حق الله، أو يوسّع أحكام الكفر بغير علم؟ حفظ الفرقين عبادة: إثبات حق الله كاملًا، وحبس اللسان عن الظلم والقول عليه بلا بينة.

فالأسرة قد تظلم امرأةً في ميراثها لأن «هذا عرفنا»، وقد يمنع قوم زواجًا مباحًا لعصبية، وقد تسكت مؤسسة عن غش لأن الخسارة المتوقعة كبيرة، وقد يبرر داعية الكذب لأن القضية التي ينصرها حق. هذه ليست مسائل بعيدة عن الحاكمية؛ إنها اللحظات التي يطلب فيها الإنسان حكمًا يعفي محبوبه أو جماعته من حد الله.

## التشريع والتنظيم: الفرق الذي يحفظ الحياة

ليس كل قانون أو لائحة أو نظام يصنعه البشر تشريعًا منازعًا لله. ترك الشرع مساحات واسعة للاجتهاد والتنظيم: ترتيب المرور، ومواعيد العمل، وإجراءات التوثيق، وسياسات السلامة، وتوزيع الاختصاصات، والعقوبات التعزيرية في إطارها الشرعي، وما لا يحصى من وسائل تحقيق المصالح. هذه أحكام تنظيمية بشرية تستند إلى الإذن العام بالمصلحة والشورى والوفاء بالعقود، وتتغير بتغير الحاجة.

الفرق أن التنظيم لا يدعي تحويل الحرام إلى حلال أو الحلال إلى حرام، ولا يصادم نصًا ثابتًا، ولا يمنح صاحبه حقًا مستقلًا في الدين. المدير يستطيع أن يحدد وقت الاجتماع، لكنه لا يستطيع أن يأمر بالتزوير. المؤسسة تستطيع أن تضع معيارًا للترقية، لكنها لا تستطيع أن تجعل الرشوة حقًا. الدولة تنظم الطرق والعقود والإجراءات، لكنها لا تملك أن تجعل ما حرمه الله طيبًا لمجرد أن المادة القانونية سمته مباحًا.

والعرف كذلك ينظم ما لم يرد تحديده، وقد يدخل في تقدير النفقة والأجور وصور القبض والضرر. لكنه يتوقف عند النص. هذه الحدود لا تضيق الحياة؛ هي التي تمنع القوة من أن تصنع الأخلاق بحسب منفعتها، وتمنع كل جماعة من بناء حلال وحرام يناسبان مصالحها.

ويستعمل بعض الناس حق التنظيم للتحايل على الشرع؛ يغير الاسم والشكل مع بقاء الحقيقة. ويستعمل آخرون شعار الحاكمية لرفض كل اجتهاد إداري لم يعرفه السابقون. الطرفان لم يميزا بين الثابت والمتغير: الأول أذاب الحد في الوسيلة، والثاني جمد الوسيلة كأنها عبادة توقيفية.

## حين يصنع البشر دينًا على مقاسهم

قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21]. سمّى القرآن من شرعوا للناس من الدين ما لم يأذن به الله شركاء؛ لأن الدين ليس مساحةً مفتوحةً لكل قوة تضيف إليها ما تشاء.

وقد يكون التشريع البشري الصريح واضحًا، لكن صورة أخفى تقع حين تتحول أذواق جماعة إلى دين عملي: يعيبون ما أباح الله حتى يستحي منه الناس، ويقدسون عادةً لم يأمر بها، ويضعون درجات للقرب والقبول لا أصل لها، ثم يعاملون من خالفها كأنه خالف الشرع. وربما كان ذلك في هيئة تشدد؛ فيظن أصحابه أنهم يعظمون الدين، وهم يضيفون إليه من عند أنفسهم.

وفي الجهة الأخرى قد تصنع الثقافة الحديثة حلالًا وحرامًا موازيين: ما صفق له الجمهور صار «حقًا» لا يقبل النقاش، وما استنكرته المنصة صار «جريمة» ولو لم يقم عليه ميزان عدل. يتغير اللفظ، لكن البنية واحدة: جهة بشرية تمنح نفسها حق تعريف الخير والشر خارج إذن الله.

لا يمنع هذا أن تتطور الأخلاق المهنية، أو أن تتعلم المجتمعات من تجاربها، أو أن تجرّم أضرارًا جديدة تدخل تحت أصول الشرع. المقصود ألا تتحول الخبرة إلى ربوبية، وألا ينسب إلى الدين ما لم يأذن به الله. المعيار ليس قِدم الحكم أو حداثته؛ المعيار موقعه من الوحي ومجاله.

## حين يتغير الحكم في قلبك بتغير مصلحتك

أشد منافسي حكم الله قربًا هو الهوى. لا يحتاج الإنسان إلى إعلان مذهب جديد؛ يكفي أن تختلف فتواه لنفسه عن فتواه لخصمه. يستنكر الواسطة حين تحرمه حقه، ويسميها خدمةً حين تنفع قريبه. يرفض التشهير إذا أصاب جماعته، ويعده شجاعةً حين يصيب مخالفه. يرى العقد ملزمًا إذا كان له، ويبحث عن الثغرات إذا كان عليه.

هذه الازدواجية تكشف أن النص لم يكن المرجع الوحيد؛ كانت المصلحة شريكًا صامتًا في القراءة. ولهذا يحتاج القلب إلى أن يسأل قبل الحكم: هل سأقول القول نفسه لو تبدلت الأسماء؟ هل معيار الإثبات ثابت مع القريب والخصم؟ هل أبحث عن حكم الله أم عن صيغة تمنح رغبتي غطاءً شرعيًا؟

وفي البيئة الرقمية تتكون أحكام كاملة في ساعات. يتكرر مقطع أو وسم حتى يصير موقفًا أخلاقيًا عامًا، ثم يخجل الإنسان من سؤال الدليل. قد تكون القضية عادلة، لكن الجماعة الرقمية تحدد من يستحق الإنصاف ومن تسقط حقوقه، وتنتقل من وصف فعل إلى إدانة أشخاص بلا تثبت. حينئذ لا يحكم الوحي الغضب؛ يحكم الغضب طريقة استدعاء الوحي.

تعظيم حد الله يبدأ من الصغائر التي لا يراك فيها الجمهور: فاتورة تعدلها، شهادة تخفي جزءًا منها، حق عامل تؤخره، كلمة على خصم لا تثبت منها. من لا يقبل حكم الله في مصلحته اليومية لن ينفعه كثرة الحديث عن حاكمية كبرى لا تكلفه شيئًا.

## كلمة الله صدقًا وعدلًا

لا يقدم المؤمن حكم الله لأنه ينتمي إلى شعار، بل لأنه يعرف ربه. حكمه صادر عن علم لا يجهل، وحكمة لا تعبث، وعدل لا يحابي، ورحمة لا تظلم، وغنى لا ينتفع بطاعتنا. وإذا خفيت حكمة حكم جزئي، بقي في القلب ما هو أرسخ من إدراك التفصيل: ﴿تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

السؤال والبحث لا يناقضان التسليم؛ إنهما يطهران حين يكون مقصدهما الفهم والعمل. فرق بين من يقول: علّمني كيف أفهم مراد الله وأحسن تطبيقه، ومن يشترط في باطنه: لن أقبل حتى يثبت لي أن الله اختار ما كنت سأختاره. الأول يستعمل عقله عبدًا لله، والثاني ينصبه محكمةً على ربه.

راجع عادةً أو معاملةً تبدل موقفك منها لأن القانون أجازها أو الناس ألفوها. ابحث عن حكمها من مصدر موثوق، ثم سمِّ المسافة بين معرفتك وفعلك. إن كانت معصية ضعف، فباب التوبة مفتوح؛ لا تحولها إلى عقيدة تحمي بها نفسك. وإن كانت شبهة، فتعلم ولا تتكلم على الله بلا بينة. رد أمر الحلال والحرام إلى الله، ولا تمنح المصلحة حق إعادة رسم حدود الله.

قد ينقاد الجسد ويبقى في الصدر خصام: يفعل الإنسان لأنه اضطر، ويتحدث عن الشرع كأنه قوة انتزعت منه حقه. عند هذه العتبة لا تكفي فتوى صحيحة ولا إجراء نافذ؛ يبقى أن يدخل الحكم إلى القلب، وأن يتحول الانقياد من قهرٍ داخلي إلى تسليم لله.

# الوحدة السابعة عشرة: ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا

## حين يدخل النزاع إلى القلب

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 60-65]

تبدأ الآيات بقوم يزعمون الإيمان بما أنزل، ثم يريدون التحاكم إلى الطاغوت. لم تكن دعوى الإيمان كافية؛ لأن المرجع الذي اختاروه عند الخصومة كشف موضع الولاء الحقيقي. وحين دُعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا، ثم إذا أصابتهم نتيجة اختيارهم جاءوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلا إحسانًا وتوفيقًا.

هذا من أدق تصوير القرآن للنفس: الإنسان لا يصف انحرافه غالبًا باسمه. يريد مخرجًا من حكم لا يناسبه، ثم يسميه إحسانًا، أو تقريبًا بين الأطراف، أو مراعاةً للواقع. قد تكون هذه المقاصد صحيحة في ذاتها، لكنها تتحول إلى ستار حين تستعمل لإقصاء حكم الله.

ثم تبلغ الآيات ذروتها بالقسم الرباني:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]

ترسم الآية ثلاث حركات متتابعة: التحكيم، ثم انتفاء الحرج، ثم التسليم. قد يأتي الإنسان إلى الحكم ظاهريًا، لكنه يدخل وهو يشترط النتيجة؛ فإذا خسر لم يقبل المرجع نفسه. وقد ينفذ القرار مضطرًا، ويظل في قلبه اعتراض على أصل حق الشرع في الحكم. والإيمان المطلوب أعمق: أن يدخل النزاع تحت حكم الرسول، ثم لا يبقى في القلب حرجٌ أو منازعة من القضاء، ثم ينقاد لله ظاهرًا وباطنًا.

## ماءُ كشف ما في النفوس

خاصم رجل من الأنصار الزبير بن العوام رضي الله عنه في ماء شراج الحرة التي يسقون بها النخل. فقال النبي ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك». كان هذا حكمًا فيه مسامحة من الزبير؛ فأمره أن يسقي قدر حاجته ثم يرسل الماء. فغضب الأنصاري وقال: أن كان ابن عمتك؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ، ثم استوفى للزبير حقه فقال: «اسقِ يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». قال الزبير:

والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾. رواه البخاري (2359) ومسلم (2357).

المشهد صغير في موضوعه: ماء يسقي نخلًا. لكنه يكشف أن الحاكمية لا تبدأ من القضايا الكبرى؛ تبدأ حين يمس الحكم ملكك ومصلحتك. قبل القضاء يستطيع كل طرف أن يعلن ثقته بالرسول، وبعده يظهر هل كانت ثقته مطلقة أم مشروطة بأن يوافقه.

والأنصاري لم يكتف بعدم الرضا؛ اتهم عدل الحكم بسبب القرابة. حين خسر القضية أعاد تفسير القضاء كله. هذه آلية تتكرر: ما دام الحكم في صالحي فهو شرع وعدل، فإذا مس مصلحتي صار تشددًا أو تحيزًا أو عدم فهم للواقع. قد يقع القاضي أو العالم في الخطأ فعلًا، ولا عصمة لأحد بعد الرسول ﷺ؛ لكن النفس تحتاج أن تفرق بين اعتراض يقوم على دليل، واعتراض ولد في اللحظة التي خسرت فيها.

وفي القصة رحمة أخرى: كان حكم النبي الأول أرفق بالأنصاري، فلما قابل الإحسان بالاتهام أعطى الزبير حقه كاملًا. الهوى لا يكتفي أحيانًا برد الحكم؛ يضيع كذلك المساحة التي فتحها العدل للإحسان.

## الحرج الطبيعي ورد الحكم

انتفاء الحرج لا يعني أن كل حكم شرعي يصبح محبوبًا للنفس من اللحظة الأولى، أو أن الألم والرهبة والحزن تزول. قد يشق على الإنسان فراق علاقة محرمة، أو رد مال تعلق به، أو قبول حد في خصومة، أو التزام واجب يكلفه مكانة. هذه مشاعر بشرية لا تُخرج من الدين، وقد صاحب الطاعة في سيرة المؤمنين خوف وحزن وثقل.

الحرج المذموم هو الضيق من أصل الحكم، أو اتهامه، أو تمنّي ألا يكون لله حق الإلزام. أما قول العبد: الحكم حق وأنا ضعيف، فأستعين بالله لأمتثله؛ فهذا اعتراف يفتح باب التوبة. والمعصية مع الإقرار ليست كالجحود والاستحلال، وإن كانت خطرًا يجب ألا يهون.

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51]

سموا مؤمنين لأنهم دخلوا تحت الحكم بقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. لم تقل الآية إنهم فهموا كل حكمة قبل الطاعة، ولا إن الحكم وافق مصلحتهم. جعلت الفلاح في استقبال النداء بوصفه حكم الله ورسوله.

وقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

نفي الخيرة هنا لا يلغي الاجتهاد قبل ثبوت الحكم، ولا اختيار الوسائل المباحة، ولا السؤال عن الدليل. ينفي أن يبقى للمؤمن خيار ينازع قضاء الله ورسوله بعد ثبوته. يمكنه أن يسأل كيف يمتثل، أو أن يطلب إعانةً على ضعفه، لكن لا يحول رغبته إلى مرجع موازٍ.

## الرضا الذي يذوق به القلب الإيمان

قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا» رواه مسلم (34).

يربط الحديث طعم الإيمان بالرضا. والرضا ليس ترديد عبارة مريحة؛ هو أن يقبل القلب ربوبية الله وأمره، وأن يرى الإسلام طريقه لا قيدًا وافدًا، وأن يقبل محمداً ﷺ رسولًا وحاكمًا ومبينًا. حينئذ لا تكون الطاعة حركة جافة؛ يصبح لها طعم، لأن العبد يعرف إلى من يسلم ولماذا يثق.

وهذا الرضا يتغذى من معرفة الله. من رأى الحكم منفصلًا عن الحاكم قد يراه قائمة أوامر ثقيلة، ومن عرف أن الحاكم هو الرحمن العليم الحكيم استند قلبه إلى أسمائه وهو يمتثل. لا يعني ذلك أن يفهم كل تفصيل، لكنه يعرف الأصل الذي لا يتغير: الله لا يظلم، ولا يشرع عبثًا، ورسوله ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وقد بلغ عن ربه أصدق البلاغ وأبينه.

ويعود الحرج أحيانًا بعد الرضا في لحظات الضعف؛ فالقلب يتقلب. لذلك لا يكتفي المؤمن بقرار قديم، بل يجدد تسليمه بالدعاء والتعلم والعمل. كل امتثال صغير يربي فيه الثقة، وكل تحايل يترك في القلب أثرًا يجعله أسرع اعتراضًا في المرة التالية.

## حين يتحول السؤال واللغة إلى مقاومة

يسأل المؤمن عن صحة الدليل، ووجه الجمع، والحكمة، وكيفية التطبيق. هذا السؤال عبادة حين يقوده إلى الفهم والامتثال؛ فقد سأل الصحابة وراجعوا ما لم يتبين لهم، ولم يطلب الدين عقولًا ميتة.

يتغير السؤال حين يصبح شرطًا للاعتراف بحق الله: «لن أقبل حتى أفهم كل الحكمة»، أو «لن يكون الحكم ملزمًا حتى يوافق تصوري للرحمة والعدل». عندها لا يعود العقل طالبًا للنور؛ يصير جهةً تمنح الوحي شهادة الصلاحية.

ومن علامات السؤال الصادق أنه يهدأ حين يظهر الجواب، أو ينتقل إلى سؤال التطبيق. أما الممانعة فتغيّر ميدانها كلما أجيبت: من الثبوت إلى الدلالة، ثم إلى صلاحية الحكم للعصر، ثم إلى نية الناقل. فراقب قلبك: أتريد العلم، أم تريد سقوط الإلزام؟

وفي المسائل الاجتهادية لا يجوز أن يُرفع رأي بشري إلى منزلة النص. التسليم لله لا يعني التسليم لكل متكلم باسمه، والتمييز بين الوحي وفهم البشر أصل باقٍ.

غير أن هذا الفرق لا يُستعمل لإنتاج شك مصطنع في كل واضح أو للهروب من حكم ثابت.

وقد يمتثل الإنسان بيده، ثم يربي لسانه قلبه على السخط: يصف الحكم بأنه عبء لا معنى له، ويسخر من الملتزمين به، ويصور كل تنازل للنفس بطولة عقلية. مع التكرار تصبح اللغة بيئةً داخلية تفسر الطاعة قهراً والمعصية تحرراً.

والشكوى من المشقة باب آخر. قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]. للعبد أن يقول: الأمر يشق علي، وأن يبكي من الكلفة، وأن يطلب من يعينه. الفارق أنه يشكو ضعفه إلى الله، لا يشكو حكم الله كأنه ظلم.

وفي المجال العام يُفصل بين الحكم وتطبيقه. قد يسيء الأب استعمال حقه، أو يخطئ القاضي في تنزيل حكم، أو يقسو داعية في البيان؛ فيُنقد الظلم ولا يُجعل ظلم المطبق حجةً على الوحي.

وفي المقابل لا تُستعمل قداسة الحكم لحماية رأي بشري أو واقعة لم تثبت. من ألزم المتضرر بتفسيره الخاص ثم سماه شرعًا، فقد رفع فهمه إلى مقام النص. التسليم الصادق دقيق وعادل؛ لأنه يخشى أن ينسب إلى الله ما ليس منه.

## ميثاق السمع والطاعة ومراقبة الصدر

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: 7]. جمعت الآية بين القول الظاهر وعلم الله بالصدر. قد يقول اللسان: سمعنا وأطعنا، ويظل القلب يفتش عن ساعة ينقض فيها الميثاق من غير أن يبدو ناقضًا. ولهذا ختمت بالتقوى والعلم بذات الصدور.

التسليم لا يُقاس فقط بما فعلته تحت الرقابة، بل بما تقوله لنفسك حين تنفرد. هل ترى الطاعة فضلًا من الله عليك أم خسارةً فرضت عليك؟ هل تنتظر زوال الضغط لتعود إلى ما تركت؟ هل تحزن لأنك

عصيت، أم لأنك لم تستطع الوصول إلى مرادك؟ هذه الأسئلة تكشف الطبقة التي لا يراها القاضي ولا المفتي.

ومع ذلك لا يُطلب من الإنسان أن يفتش في قلبه حتى يشلّه الوسواس. الأصل أن يعمل بما ظهر له من الحق، ويجاهد ما يجد من حرج، ويستغفر من التقصير. الخواطر العابرة لا يُحكم بها على الإيمان، والكره الطبعي للمشقة ليس ردًا للحكم. الخطر حين يستقر الاعتراض، ويتحول إلى تبرير، ثم إلى دعوةٍ لإسقاط سلطان النص.

ومن رحمة الله أن التسليم ينمو. قد يبدأ العبد بطاعة فيها ثقل، ثم يرى أثرها، ويتعلم حكمةً منها، ويذوق سكينة الصدق بعد صراع طويل. ليست كل حرارة إيمانية سابقةً للعمل؛ أحيانًا يولد النور في الطريق بعد أن يخطو الإنسان لله وهو لا يزال يقاوم نفسه.

## من الانقياد القسري إلى التسليم التعبدي

اختر حكمًا ثابتًا يثقل عليك، واقرأ نصه في سياقه، واسأل أهل العلم عما أشكل، ثم افتح له بابًا من معرفة الله: حكمته، وعدله، وعلمه، ورحمته.

سمِّ ما يقاومه فيك بصدق: أجهلُ هو؟ أم شهوة؟ أم خوف على صورة أو مصلحة؟ أم ألم مشروع يحتاج إلى صبر؟ ما دام الاعتراض مجهول الاسم، بقي قادرًا على لبس ثياب كثيرة.

ابدأ بخطوة امتثال لا تحتمل التأجيل: رد حقًا، أوقف معاملة، صحح كلمة، اطلب تحكيمًا عادلًا، أو تعلم الحكم من مصدره. لا تنتظر أن يزول كل ثقل؛ فكثيرًا ما يأتي السكون بعد أن يتحرك العبد إلى الله وهو لا يزال يجاهد نفسه.

وقل بقلب حاضر: «رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا». لا تجعلها عبارة تعزل الألم، بل عهدًا يدخل الألم نفسه تحت الربوبية. أنت لا تسلم لمجهول، وإنما لرب خلقك ورزقك وهداك، ولرسول كان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

حين يثقل عليك الحكم، لا يكن سؤالك الأول: كيف أخرج منه؟ بل: كيف أدخل تحته وأنا أستعين بربي؟

بهذا تتحد المرجعية والعبادة: نص فوقك، وسنة تهديك، وعقل يتدبر، وعلماء تسألهم، وقلب يتهم حظه، وتوبة تعيدك إذا انحرفت. وبعد أن عرفت إلى من ترد الأمر، يأتي امتحان أدق: بأي ميزان تحب الأشخاص والأفعال والأفكار، وكيف يمنعك الولاء للحق من تقديس من تحب أو ظلم من تكره؟

# المحور الخامس: بأي ميزان تحب وتكره؟

انتهى المحور السابق إلى أن الوحي هو المرجع في التلقي والرد والحكم، وأن تمام التحاكم أن يسلم القلب ولا يجعل الحكم الشرعي خصمًا داخليًا. لكن المرجعية تنزل أعمق من الأحكام المعلنة؛ إلى الموضع الذي تتكون فيه الأذواق، وتوزع فيه القلوب محبتها وبغضها، وتمنح الأشخاص والأعمال والأفكار قيمتها.

يعرف الإنسان الدليل، ثم يحبه إذا جاء على لسان من ينتسب إليه، ويثقله إذا نطق به خصمه. ويشتد في وصف فعل حين يفعله البعيد، ثم يلتمس له الأعذار حين يقع فيه القريب. ويرى الحرام قبيحًا، ثم تكثر صوره حتى يفقد إنكاره. هنا لا تنقصه معلومة فقط؛ يكون الهوى أو الانتماء قد جلس في موضع الميزان.

أن يكون الوحي ميزانًا يعني ألا تمنح الرغبة والكثرة والمصلحة حق تسمية الجميل والقبيح. تبقى للعاطفة طبيعتها، وللقرابة أثرها، وللخبرة دلالتها؛ لكنها لا تملك قلب الحكم. ولهذا يعلم القرآن المؤمن أن يحب في الشخص ما يحبه الله، ويبغض منه ما يبغضه، ثم يعطيه حقه وعدله ورحمته.

والشيطان لا يقول غالبًا: ارفض الوحي. يزيّن الميل، ويسمي العصبية وفاءً، والانتقام غيرةً، والتنقل بين الرخص فقهًا. والنفس تحب القصة التي تحمي صورتها؛ فإذا اجتمع الميل والتزيين صار الباطل مألوفًا. فلا يعفي العبد نفسه باسم الشيطان، ولا يغفل عن عدو سماه الله.

ومن هنا تتحرك وحدات المحور: تحبيب الإيمان، ثم اجتماع الحب والبغض في الشخص الواحد، ثم رد جمال الأفعال وقبحها إلى المعروف والمنكر والطيب والخبيث، ثم تحرير الأفكار من أسر الأسماء، حتى يبلغ الهوى الذي لا يكتفي بأن يرغب، بل يريد أن يحكم.

## الوحدة الثامنة عشرة: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ

### قلب لا يكتفي بأن يطيع

قال الله تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: 7-8]

جاءت الآية في سياق يعلّم المؤمنين ألا يدفعوا رسول الله ﷺ إلى أن يتبع رغباتهم وأخبارهم؛ لأنهم لو صاروا المرجع في كثير من الأمر لناالهم العنت. ثم نقلت العلاج من تصحيح القرار إلى إصلاح الذوق

الذي يصنع القرار: الله حبب الإيمان، وزينه في القلوب، وكره إليها الكفر والفسوق والعصيان. فالرشد ليس أن يفعل الإنسان الصواب تحت ضغط خارجي فقط، بل أن تتربى سريرته حتى ترى في الإيمان جمالًا، وفي الخروج عنه قبحًا.

وهذه منة أعمق من مجرد معرفة الحكم. يعرف المرء أحيانًا أن الصلاة واجبة، والصدق محمود، والنظر المحرم معصية؛ لكن المعرفة وحدها لا تمنع القلب أن يضيق بالطاعة، أو يحن إلى صورة الحرام، أو يتحدث عن أيام المعصية كأنها أزهى عمره. يقول بلسانه: تركت، ويظل يمنح ما تركه لغةً براقةً، ويصف أهل الاستقامة بألفاظ توحي بالحرمان. الجسد خرج، والذوق ما زال يقيم هناك.

لذلك نسب الله التحبيب والتزيين والتكريه إليه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾. لا يصنع العبد قلبه من الصفر، ولا يملك أن يقلب محبته بأمر لفظي؛ لكنه يطرق أبواب الفضل: يتعلم أسماء الله، ويتدبر كلامه، ويصحب من يذكره به، ويكرر الطاعة حتى يألفها، ويقطع عن قلبه الصور التي تزين المعصية. وكلما رأى ميلًا إلى ما يبغضه الله لم يحتقر نفسه حتى ييأس، ولم يبرر الميل حتى يستسلم؛ بل عرف أن تزكية الذوق عبادة تحتاج سؤالًا ومجاهدةً وزمنًا.

## حلاوة تولد في طريق الطاعة

قال أنس بن مالك رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد بهن حلاوةَ الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار» رواه البخاري (16) ومسلم (43).

لم يقل: عرف تعريف الإيمان، ولا: انتسب إلى أهله، بل «وجد حلاوة الإيمان». للحقيقة الإيمانية أثر يذوقه القلب حين تنتظم محبته: الله ورسوله فوق سواهما، والناس يُحبون لله، والكفر مكروه لا لمجرد خسائره الدنيوية، بل لأنه عودة من نور النجاة إلى نار البعد. والحلاوة هنا لا تعني دوام الانشراح أو غياب المشقة؛ قد يبكي المؤمن ويتعب ويجاهد، لكنه يجد في أعماقه أن الطاعة بيتُه، وأن المعصية غربةٌ وإن لذّت في أول الطريق.

والحديث يجمع الحب والبغض في بنية واحدة. الحب الأعلى لله ورسوله، والحب في الله للعبد المؤمن، والكراهة للعودة إلى الكفر. فإذا انفصلت هذه القوى اختل الميزان: قد يدعي الإنسان محبة الله ثم يختار صحبة تزين له ما يبغضه الله، أو يحب الناس لذواتهم حتى يصبح رضاهم أغلى من الحق، أو يكره الخطأ في خصمه ويعجز عن كراهيته في نفسه. حلاوة الإيمان ليست عاطفةً رخوة؛ إنها ترتيب يعيد لكل محبوب قدره.

ويطلب العبد أحيانًا الحلاوة قبل أن يبذل أسبابها، فيجعل غياب اللذة عذرًا لترك الطاعة: لا أخشع، فلا أصلي قيامًا؛ لا أحب الحجاب، فلا ألتزمه؛ لا أشعر بالإقبال، فأؤخر التوبة. لكن القلوب تتعلم كما تتعلم الجوارح. كم من طاعة بدأت ثقيلة ثم صارت ملجأ، وكم من شهوة بدأت لذيذة ثم أورثت وحشة. ليس كل ما تحبه النفس الآن خيرًا لها، ولا كل ما تكرهه شرًا عليها.

قال الله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]

الكراهة الطبيعية لا تبطل الإيمان، كما أن الحب الطبيعي لا يثبت صلاح المحبوب. قد تنفر النفس من كلفة واجب، أو تحب راحةً تضرها؛ فجاء الوحي ليمنع الشعور العاجل من احتكار الحكم. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: هنا يبدأ تدريب الذوق. لا يُطلب منك أن تكذب شعورك، بل ألا تمنحه علمًا لا يملكه.

من أخطر الأوهام أن يظن الإنسان أن صلاح القلب يعني ألا يبقى فيه صراع. يثقل عليه الفجر أحيانًا، أو يشتهي ما حرم الله، أو يتألم من رد مال ليس له. وجود الميل ليس حكمًا نهائيًا على الإيمان؛ السؤال: أي صوت يتبعه، وأي ميل يغذيه، وأي فعل يكرر حتى يتحول إلى عادة؟ المجاهدة نفسها من علامات الحياة؛ القلب الميت لا يقاوم لأنه سلّم القيادة.

ومعيارهذه المجاهدة لا ينفصل عن العمل؛ فالقلب الحي يُترجَم نبضُه سعيًا واستعدادًا. وفي غزوة تبوك، وضع التنزيل ميزانًا صارمًا للصدق حين كشف شأن المنافقين؛ إذ زعموا إرادة النفير، فنفى الله إرادتهم بحجة بيّنة: تركهم العُدّة؛ إذ لو كانت النية صادقة لما تخلفت الجوارح عن بداءات السعي. ومن هذه الآية يدرك المؤمن خطورة القعود الباطن الذي يعقبه حرمان التوفيق والتثبيط:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 46]

ليست كل حركة ظاهرة دليل محبة، ولا كل سكون دليل زهد. ويعمل الإنسان في موضع صالح أحيانًا لطلب الصورة أو النفوذ، فيكون قلبه أثقل من جسده، ويتأخر الصادق أحيانًا لعذر ويبقى مشتاقًا إلى الخير. الذي يعلم السرائر لا ينظر إلى المشهد الخارجي وحده؛ ولذلك يخاف المؤمن أن ينشط فيما يرفع مكانته، ويتثاقل فيما لا يراه الناس.

وحين يكرر المرء الطاعة وهو يطلب وجه الله، تنفتح في القلب معرفة لم تكن تأتي من الكلام وحده. الصدق المؤلم يورث راحة لا يعرفها الكاذب، وغض البصر يحرر القلب من صور كانت تستهلكه، والإنفاق يذيق العبد غنى الاعتماد على الله. ليست الطاعة صفقةً يطالب فيها بلذة فورية؛ هي عبودية، والحلاوة فضل يهبها الله متى شاء. لكن من لا يطرق الباب لا يلومن قلبه إذا بقي بعيدًا.

## حين تظل المعصية جميلة في الذاكرة

ترك شاب علاقةً محرمة بعد سنوات، وأغلق أبوابها الظاهرة. صار يحافظ على الصلاة ويحدث أصدقاءه عن التوبة، لكنه إذا اجتمع بمن يعرف ماضيه تغيّر صوته. يروي التفاصيل ضاحكًا، ويصف جرأته القديمة بإعجاب، ويقارن «حرية» ذلك الزمن بضيق حياته الجديدة. لا يدعو أحدًا إلى المعصية صراحةً، لكنه يكسوها في كل حكاية ضوءًا، ثم يصف توبته كأنها خسارة فرضها العمر.

كان يتألم إذا رأى أصحابه يسلكون الطريق نفسه، لكنه لا يعرف: أيتألم خوفًا عليهم، أم غيرةً من شيء لا يزال يحبه؟ وحين نصحه أحدهم أن يقطع لغة التجميل، أجاب: «أنا فقط أحكي الواقع، وقد تركت كل شيء». نعم، تركت الجوارح، لكن القلب لم يسحب وسام الجمال من الفعل. وما دام الحرام يُروى كقصة مجد، فإن الباب لم يغلق كاملًا.

التوبة ليست إنكارًا لوجود لذة عارضة في المعصية؛ ففي الحديث: «حُفّت النار بالشهوات» (رواه مسلم (2822). لكنها تعني أن ترى اللذة في موضعها: طُعمًا يخفي نارًا، لا جمالًا سُرق منك. وأن تكره ما أبعدك عن الله ولو بقيت الذاكرة قادرةً على استدعاء لحظات المتعة. وكلما عاد اللسان يزين الماضي، ردّه القلب إلى الحقيقة: كان ذلك عصيانًا ستره الله، ولم يكن بطولةً أحتاج أن أحفظها لنفسي.

## ما الذي يربّي الذوق؟

القلوب تتأثر بما تكرره العين والأذن. ولهذا لا يكفي أن تدعو الله أن يحبب إليك الإيمان، ثم تملأ يومك بصور تسخر من الطاعة وتجمّل الفسوق. الصحبة، والمحتوى، واللغة، والعادات الصغيرة؛ كلها تعيد تشكيل ما يبدو طبيعيًا وجميلًا. قال النبي ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة» رواه البخاري (2101) ومسلم (2628).

لم يقل إن الجليس يأمرك دائمًا، قد لا يأمرك حامل المسك بشيء، لكنك تجد الريح. وكذلك البيئة: تسمي بعض الأفعال «شجاعة» حتى تحبها، وتسمي بعض الطاعات «عقدة» حتى تستثقلها. ومن عاش طويلًا بين لغة تستهزئ بالعفاف أو الأمانة أو توقير الوحي، قد يبقى محافظًا على حدود ظاهرة، بينما يتسرب إلى قلبه خجل من الخير وإعجاب بمن يخرقه.

وتربية الذوق لا تعني الانغلاق عن الناس أو الخوف من كل صورة. تعني أن تعرف أن قلبك يتعلم حتى حين تظن أنك تتسلى. فتختار ما يكثر فيك تعظيم الله، وتصحب من إذا رأيته ذكّرك بحقيقة الطريق، وتقاوم التكرار الذي يجعل القبيح مألوفًا. ومن رحمة الله أن القلب كما يتأثر بالفساد يتأثر بالنور؛ تلاوة صادقة، وصحبة تقية، وسجدة في خلوة، وترك معصية في وقت القدرة؛ كلها قطرات تعيد للحاسة الإيمانية قوتها. وما أرحم الله بقلب يرى قبح ذنبه بعد أن كان يراه زينة؛ فتلك الكراهة الجديدة أول مذاق العافية، وباب رجاء أن يبدل الله الوحشة أنسًا به.

## محك الذوق

لا تسأل اليوم فقط: ما المعصية التي أتركها؟ اسأل: أي معصية ما زلت أتحدث عنها بلغة الإعجاب؟ وأي طاعة أصفها في داخلي كأنها حرمان؟ راقب كلماتك حين لا تعظ أحدًا، ونبرتك حين تذكر الملتزمين، وما تضحك له، وما تخشى أن يراك الناس متمسكًا به. هناك يظهر الذوق الذي يقودك قبل الفعل.

اختر بابًا واحدًا ترى أن قلبك لا يزال يمنح فيه الحرام جمالًا. اقطع عنه مصدر تزيين واحدًا، وأدخل مكانه نصًا أو صحبةً أو عملًا يريك حقيقته. ثم اسأل الله بصدق أن يحبب إليك الإيمان ويزينه في قلبك. فالذي منحك أصل الهداية قادر أن يبدل طعم الطريق، حتى تصبح الطاعة التي بدأت ثقيلة أحب إليك من شهوة كنت تظن أنك لا تعيش بدونها.

وحين يتعلم القلب الحب والبغض لا يواجه أعمالًا مجردة فقط؛ يواجه أشخاصًا تجتمع فيهم أوصاف متباينة. فكيف يحب المؤمن شخصًا من وجه، ويكره منه وجهًا آخر، من غير ظلم ولا تمييع؟

# الوحدة التاسعة عشرة: الشخص الواحد بين الحب والبغض

## الإنسان أكبر من خطئه، وأصغر من أن يُعصم

يميل العقل إلى الصورة الكاملة السريعة: صالح أو فاسد، معنا أو علينا، محبوب كله أو مكروه كله. هذه الصورة تريح الغضب والحب؛ لأنهما لا يضطران إلى التفصيل. لكن الإنسان قد يجمع إيمانًا يوجب المحبة، ومعصيةً توجب البغض، وإحسانًا يستحق الشكر، وظلمًا يجب رده. ومن عدل الوحي أن يعطي كل وصف حكمه، فلا تبتلع الحسنةُ السيئة، ولا تمحو السيئةُ كل حق وخير.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]

جاءت الأخوة بعد ذكر طائفتين من المؤمنين اقتتلتا. لم يسقط عنهما اسم الإيمان بمجرد الاقتتال، ولم يمنع بقاء الأخوة من وجوب قتال الفئة الباغية حتى تفيء في الآيات السابقة. فالوحي لم يقل: ما داموا مؤمنين فلا تُسمّوا البغي، ولم يقل: ما داموا بغاةً فلا حق لهم في الأخوة. أمسك الحكمين معًا؛ وبذلك أقام العدل الذي يضيعه التهوين كما يضيعه الإلغاء.

هذه القاعدة تحمي الأسرة والجماعة والمجتمع. يخطئ الأب خطأً مؤلمًا وتبقى له حرمة الأبوة، ويظلم الصديق ويظل له سابق إحسان، ويفسق المسلم بمعصية ولا تُهدر بذلك حقوق الإسلام كلها. الاعتراف بالحق لا يقتضي إنكار الخطأ، وتسمية الخطأ لا تمنحك حق محو الإنسان.

## لا تلعنوه؛ إنه يحب الله ورسوله

كان على عهد النبي ﷺ رجل اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ. وقد جُلد في شرب الخمر، ثم أُتي به مرةً فأمر النبي ﷺ بجلده. فقال رجل: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله» رواه البخاري (6780).

لم يمنع حبُّه لله ورسوله إقامة الحد عليه، ولم تجعل معصيته المتكررة لعنَه حقًا. عوقب الفعل، وحُفظ ما في القلب من أصل المحبة. هذا ميزان لا تقوى عليه النفس حين تغضب؛ فهي تريد أن تجعل الخطأ تعريفًا كاملًا لصاحبه، وتستريح إذا نسبت إليه الشر من كل جهة. فرأى النبي ﷺ المعصية والمحبة معًا، فأقام شرع الله في الظاهر، ومنع الظلم في اللسان.

الحديث لا يهوّن الخمر ولا يجعل المحبة دعوى تمحو آثار العمل. من أحب الله ورسوله حقًا وجب أن يجاهد ما يخالفهما، وقد يضعف ويعود ويحتاج إلى توبة وعلاج وعقوبة. لكنه يمنعنا أن نتصرف كأن القلب صفحة واحدة لا يجتمع فيها إيمان وضعف. وربما كان في تذكير العاصي بما بقي فيه من خير ما يعينه على النهوض، بينما تدفعه اللعنة العامة إلى أن يصدق أنه لا ينتمي إلا إلى معصيته.

ومن هنا يختلف النصح عن الفضيحة. الناصح يرى أخاه أكبر من زلته، فيردّه إلى أحسن ما فيه، ويطلب أن ينجو. أما المتشفي فيحتاج إلى أن يبقى المخطئ مخطئًا؛ لأن سقوطه يمنحه شعورًا بالطهر. قد يستعملان العبارة نفسها، لكن قلب أحدهما يريد التوبة، وقلب الآخر يريد الإدانة.

## محبة طبيعية لا تصبح إقرارًا دينيًا

قال الله لنبيه ﷺ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: 56]

جاءت الآية في سياق أبي طالب، وقد فسر كثير من أهل التفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ بمن أحببت هدايته، وذكر آخرون محبة القرابة. وعلى كلا التفسيرين يظهر حرص النبي ﷺ على هداية عمه ونجاته، مع علمه أن هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب بيد الله وحده. فلا تجعل المحبةُ الطبيعية ولا الحرصُ الصادق باطلَ القريب حقًا، ولا تمنح الإنسان قدرةً على هداية من أحب.

والمحبة الطبيعية للوالد والولد والقريب والمحسن ليست هي المودة الدينية المبنية على الرضا بدينه وباطله. القلب الإنساني لا يصير حجرًا حين يعرف التوحيد؛ يظل يحن إلى قريب، ويحفظ معروف جار، ويشكر طبيبًا أو معلمًا غير مسلم، مع بقاء البراءة من الكفر ورفضه. وما أرحم هذا الميزان: لا يأمرك أن تكذب فطرتك، ولا يسمح لفطرتك أن تكذب على عقيدتك.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8-9]

جمع القرآن البر والقسط مع النهي عن التولي المحرم. البر أوسع من العدل المجرد؛ فيه إحسان وصلة ولطف. والقسط حق لا يسقط باختلاف الدين. أما التولي المنهي عنه فله سياق ووصف: نصرة المحاربين ومظاهرتهم على المؤمنين وما يدخل في الموالاة المحرمة، لا كل معاملة أو إحسان أو مودة طبيعية. وطمس الفرق يفتح بابين متقابلين: قسوة تظلم الناس باسم البراءة، وتمييع يذيب الفاصل العقدي باسم الإنسانية.

وجاءت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إلى النبي ﷺ تستفتيه في أمها المشركة، فقالت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ فقال: «نعم، صِلِي أمك» رواه البخاري (2620) ومسلم (1003).

لم يطلب منها أن تؤجل الأمومة حتى تؤمن أمها، ولم يجعل الصلة رضا بالشرك. هنا يظهر التوحيد من غير قسوة: تعرف من تعبد، وتعرف ما تبغض من الباطل، ثم تبر أمك لأن الله الذي نهاك عن الشرك أمرك بالبر.

## أبو بكر: حين لم يمحُ الجرحُ حقَّ المسيء

في حادثة الإفك كان مِسطح بن أُثاثة رضي الله عنه ممن خاض في الكلام الذي آذى عائشة رضي الله عنها وأباها وأهل بيت النبي ﷺ. وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لقرابته وفقره وهجرته. فلما برأ الله عائشة، قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئًا بعد الذي قال لعائشة. غضب أبٌ طُعن في ابنته،

ومحسنٌ استعمل عطاؤه في قلبه جرحًا، وكان في نفسه من الألم ما يفهمه كل من أصابه أذى من قريب أحسن إليه.

فنزل قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 22]

لم تنكر الآية جريمة الإفك، ولم تقل إن مسطحًا لم يخطئ. ذكرت أوصافًا لم يمحها خطؤه: قرابة، ومسكنة، وهجرة في سبيل الله. ثم نقلت أبا بكر من حساب الإساءة وحدها إلى سؤال أوسع: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. فقال: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، ورد إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. ثبت ذلك في حديث الإفك الطويل، رواه البخاري (4750).

هذا ليس ضعفًا أمام المسيء؛ هو قوة أن يبقى ميزان الله حاضرًا والجرح مفتوح. يستطيع الإنسان أن يوقف ضررًا، ويطالب بحق، ويحذر من قول، ثم لا يجعل الألم يمنعه من رؤية كل خير في الطرف الآخر. العفو قد لا يكون واجبًا في كل حق شخصي، وقد يفسد إذا مكّن الظالم من ظلم جديد؛ لكن القلب الذي لا يستطيع تصور أي فضل لمن آذاه صار أسيرًا للإساءة.

ومشهد أبي بكر لا يدعو إلى الثقة الساذجة. عودته إلى الإنفاق لم تجعل حديث الإفك مقبولًا، ولم تمنح مسطحًا عصمةً من المحاسبة. إنما رفض أبو بكر أن يجعل فعلًا واحدًا يمحو هجرةً وقرابةً وحاجة، وأن يجعل غضبه هو المرجع الوحيد في العطاء. لقد رد باطل من أخطأ، وحفظ حقه، وبقي يحب مغفرة الله أكثر من راحة الانتقام.

## الحب الذي يمنعك من النصيحة ليس حبًا كاملًا

قال تميم الداري رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم (55).

النصيحة دليل أن المحبة لا تعني التصفيق. من يحب أخاه يريد سلامته، فلا يتركه لخطئه حتى لا يخسر رضاه. ويتستر الجبن أحيانًا بثوب الوفاء: «لا أتكلم فيه، فهو صاحب فضل»، «لا أواجهه، أخشى أن يتألم»، بينما الحقيقة أني أحب صورتي عنده أكثر من نجاته. النصيحة تحفظ الأدب والسر والقدر، وتختار الوقت والطريق؛ لكنها لا تجعل القرب حصانةً ضد الحق.

وفي الجهة الأخرى تتحول «النصيحة» أحيانًا إلى منفذ لبغض قديم. يتتبع الإنسان عثرة من لا يحبه، وينشرها، ثم يقول: هذا من الدين. النصيحة التي لا تمنى الإصلاح ليست نصيحة؛ هي عقوبة نفسية بلغة شرعية. لذلك قرن الحديث النصيحة لله وكتابه ورسوله؛ أي أنها عبادة محكومة بمراد الله، لا بأثر الغضب.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «تأخذ فوق يديه» رواه البخاري (2444). فالنصرة التي تترك المحبوب يظلم ليست وفاءً؛ هي تسليم له إلى ذنبه وتبعاته. ومن أشد صور المحبة صدقًا أن توقفه حين يريد منك تصفيقًا، وأن تحمل غضبه المؤقت كي لا يحمل ظلمه يوم القيامة.

ومن محبة المؤمنين أن تحب لهم ما تحب لنفسك. قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخاري (13) ومسلم (45). وهذا يفضح الغيرة التي تفرح بسقوط القريب، والتنافس الذي يريد احتكار الصواب، والنقد الذي يشتد لأن نجاح الآخر يهدد مكانة الناقد. تبغض فعل أخيك أحيانًا، لكنك تحب له التوبة والخير والرفعة، كما تحب لنفسك أن يسترك الله ويأخذ بيدك.

## مرآة العلاقات القريبة

كان الأخ الأكبر في أسرة كبيرة بمنزلة الأب لإخوته: أنفق على تعليمهم، وقف معهم في الشدائد، وحمل من أعباء البيت ما لم يحمله غيره. وبعد وفاة الوالد تولى إدارة عقار الأسرة، ثم طلب من أخواته أن يتنازلن عن جزء من أنصبتهن بحجة أنه الذي حفظ المال ونمّاه. أحبّه أخوه الأصغر حبًا صادقًا، وكان يعرف فضله، لكنه عرف كذلك أن الامتنان لا يغيّر حكم الحق.

حاول أولًا أن يسكت: لا أريد كسر الأسرة، وقد فعل لنا خيرًا كثيرًا. ثم رأى أن صمته يجعل فضل أخيه طريقًا إلى ظلم أخواته. واجهه سرًا، فغضب واتهمه بنكران الجميل. لم يرد الأخ أن يمحو عشرين سنة من الإحسان بخطأ، ولم يرض أن يمحو حقًا ثابتًا بعشرين سنة من الإحسان. أثنى على فضله، وأصر على رد الأنصبة، وسعى إلى إصلاح يحفظ الكرامة والحقوق. تألمت العلاقة زمنًا، لكن المحبة بقيت محبةً للإنسان لا طاعةً لظلمه.

وفي المقابل، إذا كان المخالف شخصًا لا نحبه، يسهل أن نقرأ نيته من خطئه، ونستخرج من زلته تاريخًا كاملًا. هنا يحتاج القلب إلى سؤالين متعاكسين: ما الحق الذي ما زال لهذا الإنسان رغم خطئه؟ وما الخطأ الذي يجب أن أسميه رغم محبتي له؟ العدل لا يساوي بين الأوصاف؛ يعطي كل واحد حقه، ويجعل الوقوف مع الحق صورةً من صور الرحمة بالطرفين.

### محك الشخص المركب

اختر شخصًا يمتلئ قلبك تجاهه بحب أو نفور شديد. اكتب ثلاثة أوصاف ثابتة فيه لا يحق لعاطفتك أن تمحوها: خيرًا يجب الاعتراف به، وخطأً يجب تسميته، وحقًا يجب حفظه. لا تجعل هذا تمرينًا على الحياد البارد؛ اجعله عبادةً تقاوم بها ظلم الحب وظلم الكراهية.

ثم راقب لسانك: هل تحتاج إذا نقدت محبوبك أن تسقطه كله حتى يصدق نقدك؟ وهل تحتاج إذا أنصفت مكروهك أن تبرئه من كل باطل؟ من وحد وجهته لله لا يخاف من التفصيل؛ لأن الحق لا يضعف حين تعترف بفضيلة المخالف، ولا يختفي حين تسمي خطأ القريب.

وقال النبي ﷺ: «المرء مع من أحب» رواه البخاري (6169) ومسلم (2640). فاختر من تحب، لكن لا تجعل محبتك غطاءً يحجبك عن حقيقة عمله. المحبة ترفع صاحبها إلى صحبة من أحب، ولذلك لا يكفي أن تسأل عن حرارة تعلقك؛ اسأل عن الطريق الذي يسوقك إليه محبوبك. والقلب الذي تعلم أن يزن الأشخاص بأوصافهم يحتاج بعد ذلك أن يزن الأفعال نفسها: من الذي علّمه ما هو جميل وما هو قبيح؟

## الوحدة العشرون: الأفعال: من يحدد الجميل والقبيح؟

### كثرة الخبيث لا تجعله طيبًا

قال الله تعالى:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100]

تضع الآية القلب أمام قوة تؤثر فيه قبل الحجة: الكثرة. قد يعجب الإنسان من انتشار الفعل وربحه وحضوره، فيبدأ خبيثًا ثم يصير «واقعًا»، ثم يتحول الواقع إلى مبرر، ثم يصبح من ينكره غريبًا. لكن القرآن قطع الطريق: لا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبتك كثرة الخبيث. الكثرة قد تشرح سبب الاعتياد، ولا تمنح الفعل طهارةً لم تكن فيه.

والخبيث والطيب أوسع من الطعام والمال؛ يمتد ميزانهما إلى القول والعمل والكسب والعلاقة. قد يكون الإعلان ناجحًا وخبيثًا لأنه يقوم على كذب، وقد تكون صفقة رابحة وخبيثة لأنها تظلم، وقد يبدو الصدق خسارةً عاجلة وهو طيب يحمل بركته معه. الوحي لا ينكر أن الخبيث قد يلمع، بل ذكر الإعجاب به؛ لكنه يمنع اللمعان أن يصير حكمًا.

ولهذا ختمت الآية بالتقوى والعقل: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. العقل لا يؤدي وظيفته حين يحصي المنتشرين فقط، بل حين ينفذ وراء الصورة إلى حقيقة الفعل وعاقبته. والتقوى تحرره من سطوة الجمهور، فيسأل: ما وزن هذا عند الله؟ لا: كم شخصًا يفعله؟

## الرسول يعلّم القلب أسماء الأشياء

وصف الله رسوله ﷺ فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]

المعروف ما عرف حسنه الشرع واستقامت به الفطرة السليمة، والمنكر ما أنكره الوحي والفطرة، والطيب والخبيث ليسا ذوقًا فرديًا متروكًا لكل نفس. جاء الرسول ليكشف الأسماء الصحيحة حين تفسد أسماء البيئة: قد تسمي الشجاعة تهورًا، والخيانة ذكاءً، والفاحشة حريةً، والبخل حرصًا. والوحي لا يضع الأغلال، بل يضع عن الإنسان أغلال الشهوة والعرف الباطل، وإن أحس القلب في البداية أن التحرر من عادته قيد.

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]

جمعت الآية أصول الأخلاق الكبرى: عدل يمنع الظلم، وإحسان يتجاوز الحد الأدنى، وصلة تحفظ القربى، وفي المقابل فحشاء تفسد الطهر، ومنكر ترفضه الشريعة، وبغي يتجاوز الحقوق. لا يكتفي الإسلام بأن تكون المعاملة قانونية في عرف الناس، يسأل هل هي عادلة؟ ولا يكتفي بألا تظلم، يدعوك إلى الإحسان. بهذا يظل الميزان أعلى من الحد الذي يرضى به المجتمع.

## الحلال والحرام والقلب الذي يقف عند الحمى

قال النعمان بن بشير رضي الله عنهما إن النبي ﷺ قال: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري (52) ومسلم (1599).

عاد الحديث هنا بوظيفة أخرى: في محور الحكم قرر أن التحليل والتحريم حق لله، وهنا يكشف كيف تتعلم النفس جمال الأفعال وقبحها. فمن وقف طويلًا حول الحمى تغيّر شعوره قبل أن يقع؛ صار الاقتراب طبيعيًا، والتحفظ مبالغةً، والوقوع خطوة صغيرة. إن تطبيع الفعل يبدأ غالبًا من تخفيف قبح حدوده في القلب.

والمشتبه ليس حرامًا بيّنًا نتهرب من اسمه، ولا هو بابٌ للوسوسة التي تحرم المباح. هو ما خفي حكمه على كثير من الناس، فيطلب فيه العلم ويتقيه من لم يتبين له. أما الحرام الواضح فلا يصبح مشتبهًا لأن المصلحة تعلقت به، ولا يحتاج كل مرة إلى إعادة فتح السؤال بعد ثبوت الحكم.

ثم أعاد النبي ﷺ مركز الميزان إلى القلب. يظن الإنسان أحيانًا أن صلاح الذوق مسألة ثقافية خارجية، لكن تكرار الاقتراب يفسد المضغة التي تسمي الأشياء. فإذا صلحت بقي الحرام قبيحًا وإن شاع، وإذا فسدت تعلمت أن ترى الخبيث طيبًا، ثم استعملت العقل واللغة للدفاع عن الانقلاب.

## يوم سالت الخمر في طرق المدينة

نزل تحريم الخمر في مجتمع عرفها وتداولها، ولم تكن مجرد عادة فردية خفية. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 90-91]

لم يكتف القرآن بلفظ المنع، سمّاها رجسًا من عمل الشيطان، وكشف ما وراء المتعة: عداوة وبغضاء وصد عن ذكر الله والصلاة. أعاد تعريف الفعل من الداخل، ثم سأل القلوب: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

وحين بلغ الخبر بيت أبي طلحة رضي الله عنه، كان أنس رضي الله عنه يسقي القوم، فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها. قال أنس: فأهرقتها. رواه البخاري (5582) ومسلم (1980).

لم يحتج أبو طلحة إلى أن يصبح طعم الخمر قبيحًا على لسانه أولًا، ولم يقل: هذه هويتي الاجتماعية، أو قد بذلت فيه مالي، أو نحتاج مرحلةً طويلة لتغيير الثقافة. ثبت الحكم، فانقلب الفعل في موضع القرار، ثم جاء القلب يتربى وراء الطاعة. سال الشراب في الطرق، لكن شيئًا أعمق كان يغادر القلوب: حق العادة في أن تكون هي الميزان.

لا يعني هذا أن كل تغيير اجتماعي يقع في لحظة، أو أن من تعثر في ترك عادة صار منافقًا. بعض الإدمان يحتاج علاجًا، وبعض السلوك يحتاج بيئةً بديلة وخطةً وصبرًا. لكن الفرق بين المتعثر والمقاوم يظهر في وجهته: المتعثر يسمي الحرام حرامًا ويطلب الخلاص، والمقاوم يعيد تسميته حتى لا يضطر إلى تركه.

## النفور الطبعي ليس حكمًا شرعيًا

قد ينفر الإنسان من طعام مباح، أو أسلوب لباس، أو لهجة، أو مهنة، أو عادة ثقافية، ثم يكسو نفوره حكمًا دينيًا. هنا يظلم الناس باسم الطيب والخبيث. ما حرمه الله خبيث ولو أحبَّتْه النفسُ، وما أحله لا يصير حرامًا لأن الطبع استثقله. وقد يكون الشيء مباحًا مع تركه لأسباب صحية أو ذوقية، لكن لا يجوز نقل الذوق الشخصي إلى تشريع عام.

وفي المقابل قد يكون الشيء محرمًا ولا يشعر الإنسان بنفور منه. لا يشترط في صحة الحكم أن تقشعر النفس فورًا. الفطرة قد تضعف، والعادة قد تخدرها، والشهوة قد تغطيها. لذلك لا يجعل المؤمن شعوره هو المصدر، بل يعرضه على الوحي؛ فإن وافق حمد الله، وإن خالف جاهد حتى يستقيم.

والفرق مهم في التعامل مع الناس. قد تنكر فعلًا منكرًا شرعًا، لكنك لا تُهين شخصًا لأن مظهره لا يعجبك. وقد تعتاد فعلًا في بيئتك، لكنه يظل منكرًا يحتاج إلى إنكار منضبط بالحكمة والقدرة والمآل. الذوق الطبعي يتغير بين الأفراد، أما الحكم الشرعي فله دليله.

## إنكار المنكر يبدأ من القلب ولا ينتهي عنده

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم (49).

جعل الحديث إنكار المنكر من الإيمان، ورتب التغيير بحسب القدرة والولاية والحكمة. ليس لكل أحد أن يستعمل اليد في كل موضع؛ فاليد لأهل السلطة المشروعة وما يملكه الإنسان من نفسه وبيته بحسب

الضوابط، واللسان يحتاج علمًا ورفقًا ومراعاةً للمفسدة، والقلب لا يسقط في أي حال. فإذا عجز الإنسان عن التغيير الخارجي، بقي عليه ألا يمنح المنكر قبولًا داخليًا.

وقد يظن المرء أنه ينكر بقلبه، بينما هو يستهلك المنكر للتسلية، ويشارك مقاطعه، ويضحك له، ثم يقول: أنا لا أفعله. الإنكار القلبي موقف، لا مجرد معلومة. قد يبتعد به عن مجلس، أو يمنع به إعجابًا، أو يدفعه إلى دعاء ونصيحة. أما القلب الذي ألف حتى لم يعد يتألم فقد خسر آخر خط دفاع.

والإنكار لا يبيح الظلم ولا الفحش. يكون الفعل أحيانًا منكرًا، وطريقتك في تغييره منكرًا آخر. من يفضح مستورًا بلا مصلحة، أو يعتدي على حق، أو يتكلم بجهل، لم ينصر المعروف. الوحي الذي أمرك بكره المنكر أمرك بالعدل والإحسان؛ فلا تجعل غضبك يختار من الدين ما يخدمه ويترك ما يقيده.

## كيف يصنع التكرار أخلاقًا جديدة؟

في مؤسسة اعتاد الموظفون أن يضيفوا ساعات لم يعملوها إلى كشوف التكليف. بدأ الأمر بحالات قليلة، ثم صار «تعويضًا عن جهد لا يُقدّر»، ثم عرف المدير وسكت، ثم أصبح من يرفض يُتهم بأنه يفسد على زملائه حقوقهم. لم يجتمعوا ليقرروا أن الكذب جميل؛ اكتفى كل واحد أن يرى السابق يفعل، وأن يسمع الاسم الجديد، حتى اختفى الاسم الأول.

دخل موظف جديد، وشعر أول مرة أن التوقيع غير صحيح. قيل له: لا تكن مثاليًا، النظام نفسه يظلمنا، وهذه الطريقة يعرفها الجميع. ظل أسبوعًا يقاوم، ثم فعلها مرة وهو يقول: لن تتكرر. بعد أشهر صار يشرح للوافدين لماذا لا تعد كذبًا. لم يتغير النص الذي يحرم أكل المال بالباطل؛ تغير الإحساس الذي يستقبل النص.

هكذا يعمل التطبيع: يفصل الفعل عن اسمه، ثم يربطه بهوية الجماعة ومصلحتها، ثم يجعل إنكاره عدوانًا على الزملاء. العلاج لا يبدأ بقول: أنا أفضل منهم؛ بل باستعادة الاسم أمام الله. هذا مال لم أستحقه، وهذا توقيع لا يطابق الواقع، وهذه كثرة لا تجعل الخبيث طيبًا.

## محك الفعل

انظر إلى فعل كنت تنفر منه قبل سنوات، ثم صار عاديًا لكثرة ظهوره. ما الذي تغير: الدليل أم البيئة؟ وما الاسم الذي منحته له حتى خف قبحه؟ لا تبحث أولًا عن أفعال بعيدة تثير غضبك؛ ابحث عن المنكر الذي تستفيد منه، أو يفعله قومك، أو يخفف عليك كلفة.

اختر فعلًا واحدًا، ورد إليه اسمه الشرعي والأخلاقي من غير مبالغة ولا تلطيف. إن كان حرامًا فسمّه حرامًا، وإن كان مشتبهًا فاطلب حكمه، وإن كان مباحًا فلا تحرمه بنفورك. ثم غيّر أقرب دائرة تملكها:

عادة في نفسك، أو لفظًا في بيتك، أو مشاركةً رقميةً تعطي المنكر انتشارًا. حين يتعلم القلب اسم الفعل، يبقى سؤال أدق: ماذا يفعل حين تأتيه فكرة صحيحة من شخص لا يحبه، أو باطلة من شخص يعظمه؟

## الوحدة الحادية والعشرون: الأفكار: الحق لا يُعرف بالرجال

### العدل الذي لا يسأل عن هوية الخصم

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

الشنآن هو البغض، والآية لا تطلب أن يختفي البغض الطبيعي أو الديني قبل إقامة العدل؛ تأمر ألا يحملكم على تركه. فقد يكون القوم ظالمين أو محاربين أو أصحاب باطل، ويبقى في خبر بعينه أو حق معين ما يجب الاعتراف به. العدل عبادة لله، ولذلك بدأ الأمر: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾. إذا كان إنصاف الخصم متعلقًا بصفاته وحدها فلن يقع؛ إنما يقع حين يكون القلب قائمًا لله فوق غضبه.

وهذا أصعب ما يكون في الأفكار؛ لأن الفكرة تدخل في هوية صاحبها وقارئها. إذا قالها من نحبه رأينا مقاصدها الحسنة، وإذا قالها من نكره فتشنا عن أسوأ لوازمها. وتكون العبارة أحيانًا واحدة، ثم يتغير الحكم عليها بتغير الاسم تحتها. عندئذ لا يكون الميزان صحة الفكرة وقوة دليلها، بل هوية قائلها.

ولا يعني العدل مساواة الأقوال أو تزكية أصحاب الباطل. يمكن أن ترد أصل منهج، وتحذر من خطره، ثم تعترف بإصابة جزئية أو خبرة صحيحة. والاعتراف لا يبيض الباطل كله؛ كما أن وجود الباطل لا يحول كل كلمة إلى خطأ. من خاف أن يضعف الحق إذا أنصف خصمه لم يثق بقوة الحق.

ويكتمل الميزان من الجهة الأخرى بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النساء: 135]. فآية المائدة تمنع بغض الخصم أن يهدم العدل، وهذه تمنع حب النفس والوالدين والأقربين أن يحجبه. ليس الإنصاف مهارةً لتبدو موضوعيًا؛ هو قيام لله، وشهادة سيُسأل عنها القلب حين تنكشف الأسماء والروابط، ولا يبقى إلا الحق.

## يستمعون القول فيتبعون أحسنه

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 18]

مدحهم الله لأنهم يستمعون ثم يتبعون الأحسن. ليسوا أسرى أول صوت سمعوه، ولا يساوون بين كل قول، يملكون ميزانًا يميز الأحسن. والهداية هنا ليست انفتاحًا بلا ضوابط، بل قدرة على سماع الحجة من غير أن تخنقها هوية القائل، ثم ردها إلى الوحي والعقل الصحيح.

ويسيء الإنسان أحيانًا استعمال الآية، فيجعلها ذريعةً لاستهلاك كل شبهة بلا علم، أو يساوي بين كلام الوحي وكلام البشر. والاستماع الذي مدحه الله مرتبط باتباع الأحسن، لا بتجميع الأصوات.

ومن لم يملك علمًا يميز به قد يحفظ قلبه من مورد يفسده، ويسأل أهل الذكر، كما يحتمي المريض من دواء لا يعرفه.

فالحماية شيء، ورد الحق لأن قائله مكروه شيء آخر.

ومن علامات الرشد أن تستطيع الفصل بين أمرين: صحة الفكرة وصلاح القائل. الصالح قد يخطئ، والفاسق قد يصدق، وغير المسلم قد يحسن في طب أو هندسة أو إدارة. خبرته لا تمنحه حق الكلام في دين الله بلا علم، كما أن كفره لا يجعل معادلته الرياضية باطلة. لكل مجال دليله وأهله.

## «صدقك وهو كذوب»

وكّل النبي ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه بحفظ زكاة رمضان، فجاءه آتٍ يحثو من الطعام، فأمسكه ثم أطلقه لما شكا الحاجة. تكرر الأمر ثلاث ليال، وفي الثالثة قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فلما أخبر أبو هريرة النبي ﷺ قال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»، ثم بين له أنه شيطان. رواه البخاري (2311).

جمع النبي ﷺ الحكمين في كلمات قليلة: صدق في هذه، وهو كذوب في أصله. لم يقل: لأنه شيطان فكل جملة قالها باطلة، ولم يقل: لأنه صدق في آية الكرسي فهو موثوق. هذه الدقة هي ميزان الأفكار: تقبل الحق مع معرفة حال المصدر، فلا تنقل إليه ثقة لا يستحقها، ولا ترد الصواب بسبب ما فيه من فساد.

والحديث لا يفتح باب تلقي الدين عن الكذابين وترك الثقات؛ أبو هريرة لم يعتمد قوله وحده، بل عرضه على رسول الله ﷺ فأقر الحق وكشف القائل. وظيفته أن يعلم القلب ألا يخلط الأحكام. وتستفيد

أحيانًا من معلومة صحيحة في كتاب منحرف، لكنك تحتاج علمًا يحميك من بقية البناء، وتسمع أحيانًا نصيحةً صائبةً ممن أساء إليك، فلا يجعل إساءته الحق باطلًا.

في المقابل، يكون القائل أحيانًا عالمًا صالحًا، ثم يخطئ في مسألة. محبته وفضله يمنعان الظلم وسوء الأدب، ولا يمنعان رد الخطأ. من جعل صلاح الرجل دليلًا على صحة كل قول نقل العصمة من الوحي إلى الأشخاص. ومن جعل خطأه سببًا لإسقاط كل علمه وقع في ظلم معاكس.

## العدل في الخصومة والنصيحة

قال الله تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 125]

السبيل سبيل الله، ومع ذلك أمر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. لأن الغاية لا تبرر ظلم المخالف، ولأن القلب قد يدافع عن الحق بطريقة تشبع غضبه أكثر مما تهدي. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾: لست محتاجًا أن تختلق عليه خطأً أو تنسب إليه نيةً حتى تثبت ضلال قوله؛ الله يعلم، وأنت مأمور بالبيان والعدل.

والحكمة تضع الكلام في موضعه: ليس كل حق يقال بالطريقة نفسها لكل شخص، ولا كل خطأ يحتاج إلى مناظرة علنية. والموعظة الحسنة تخاطب القلب من غير إذلال، والجدال الأحسن يعرض قول المخالف كما يقصده، لا كما يسهل هدمه. من شوّه حجة خصمه انتصر على حجة لم يقلها أحد.

وهذا لا يعني أن تكون العبارات رخوةً في موضع يحتاج إلى بيان حاسم، أو أن يُترك الباطل بلا تحذير. وتكون الكلمة الشديدة أحيانًا أحسن إذا منعت ضررًا، ويكون الرفق أبلغ أحيانًا. الميزان ليس راحة المتكلم ولا استحسان الجمهور؛ هو ما يحقق البيان بالعدل والرحمة.

عاد حديث «الدين النصيحة» هنا بوظيفة فكرية: النصيحة لكتاب الله تقتضي ألا يُستعمل لتزيين قول نحبه، والنصيحة للرسول ﷺ تقتضي ألا تُنسب إليه ألفاظ لا تثبت، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم تقتضي تصحيح الخطأ من غير تشفّ ولا خيانة.

يظن الإنسان أحيانًا أن الولاء لمدرسته العلمية أو شيخه يقتضي الدفاع عن كل تفصيل. فإذا ظهر خطأ، قال: المخالفون سيستغلونه، أو لا ينبغي نشره، أو المقصود حسن. ربما كان توقيت التصحيح وطريقته يحتاجان حكمة، وتحويل حماية السمعة إلى حماية للخطأ يبدل الولاء من الحق إلى الاسم.

والعصبية الفكرية تعمل من الجهتين: تقبل الباطل من الموافق، وترد الحق من المخالف. تخلق قائمةً للأشخاص المسموح لهم بالصواب، وأخرى لا تقبل منهم شيئًا. ومع الزمن لا يعود الإنسان يقرأ الفكرة؛ يقرأ التوقيع. فإن كان التوقيع محبوبًا بحث عن التأويل، وإن كان مكروهًا بحث عن الإدانة.

وتنتقل القاعدة نفسها من الأفكار إلى الخبرات الدنيوية:

تحتاج الحياة إلى خبرات البشر: طب، وتقنية، وإدارة، واقتصاد، ولغات. وفي قصة تأبير النخل قال النبي ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه مسلم (2363). كان الكلام في خبرة زراعية تجريبية، لا في تشريع الدين؛ فدل المشهد على أن الخبرة الدنيوية تُعرف بأهلها وتجربتها، مع بقاء الوحي مرجع الحلال والحرام والغاية والميزان. ولا يشترط لقبول تجربة نافعة أن يكون صاحبها مسلمًا؛ فالحقائق التجريبية تُعرف بأدلتها، والخبرة تُختبر بنتائجها.

الخلل يقع حين تنتقل الثقة من مجال إلى آخر بلا دليل. يكون الطبيب أحيانًا بارعًا في تخصصه، فلا يصير بذلك مرجعًا في معنى الحياة أو أحكام الأسرة. وقد ينجح خبير في زيادة الإنتاج، لكن فلسفته عن الإنسان قد تقوم على المصلحة المادية وحدها. نأخذ الوصف النافع، ونعرض القيم والمقاصد على الوحي.

وفي الجهة الأخرى يرفض بعض الناس خبرة صحيحة لأنها جاءت من غير مسلم، فيضرون أنفسهم ويشوّهون الدين. الوحي لم يأمرنا أن ننكر الواقع، بل أن نقرأه من موقع العبودية. الحقيقة الطبية لا تصبح كفرًا بقائلها، كما أن الفكرة العقدية لا تصبح صحيحة بنجاح صاحبها الدنيوي.

## حين يتحول الاسم إلى جواب

وصل إلى أستاذ جامعي بحث من باحث لا يرتاح إليه، فقد خالفه علنًا في قضية قديمة. قرأ الملخص وفي نفسه حكم سابق: يريد أن يجد خللًا. كلما مر بحجة قوية قال: لا بد أن وراءها نقصًا، وكلما وجد عبارة ضعيفة وسّعها حتى صارت دليلًا على فساد البحث كله. ثم وصل إليه بحث آخر من تلميذ قريب، ففعل العكس: جمع له الأعذار، ونسب مواضع النقص إلى ضيق المساحة.

لم يزوّر الأستاذ بيانات، وكان يستطيع أن يشرح لكل حكم سببًا. غير أن المعيار تحرك قبل القراءة. الاسم دخل إلى غرفة التحكيم، وأعاد توزيع الصرامة والرحمة. ولو بدلت الأسماء لبقيت النصوص نفسها وتغيرت النتيجة.

العلاج لا يبدأ بادعاء الحياد الكامل؛ فالإنسان يتأثر. يبدأ بأن يعترف بانحيازه، ويضع خطوات تمنعه من الحكم وحده: قراءة بلا أسماء إن أمكن، عرض أقوى حجة للطرف الآخر، سؤال خبير مستقل، وكتابة معايير التقويم قبل رؤية النتيجة. هذه الوسائل لا تنشئ الحق؛ تساعد النفس على ألا تحجبه.

## محك الفكرة

اختر قولًا لشخص تحبه، وقولًا لمخالف تنفر منه. انزع الاسمين، واكتب الدليل المؤيد والمعارض لكل واحد. هل يتغير وزن العبارة حين يعود الاسم؟ وهل تستطيع أن تقول في مجلس قومك: أخطأ من نحب هنا، وأصاب من نخالف هنا، من غير أن تحول الإصابة إلى تزكية كاملة ولا الخطأ إلى إسقاط كامل؟

وحين تنصح، راقب مقصدك: أتريد أن يعود صاحبك إلى الحق، أم تريد أن تثبت أنك أبصر منه؟ وحين تنصف خصمك، لا تخف أن تخون جماعتك؛ الجماعة التي تطلب منك رد الحق بسبب قائله تطلب ولاءً لنفسها فوق الولاء لله. قل الحق وأنت خائف من ظلم عبد، راجٍ أن يطهّر الله قلبك من التعصب؛ فرب كلمة عدل ثقيلة على جماعتك تكون أثقل في ميزانك يوم تلقاه.

يبقى بعد الأشخاص والأفعال والأفكار منافس لا يحمل اسمًا ظاهرًا. يعرف الإنسان الدليل، ويقر بصحته، ولا يتعصب لشخص؛ ثم يجد في داخله رغبة تريد أن تكون هي الحكم. هنا يبلغ الميزان أعمق موضع: حين يصبح الهوى إلهًا.

# الوحدة الثانية والعشرون: حين يصبح الهوى إلهًا

## الرغبة التي تطلب حق الحكم

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]

ليس كل من اشتهى معصيةً قد اتخذ هواه إلهًا بالمعنى المكفّر، ولا كل ذنب يخرج صاحبه من الإسلام. المؤمن يضعف ويعصي، مع إقراره بأن حكم الله حق، ثم يستغفر ويجاهد. والآية تكشف منزلقًا أخطر: أن يصبح الهوى مرجع القبول والرد، فيختار الإنسان من الدين ما وافق رغبته، أو يمنح رغبته حق إعادة تفسير الوحي وإقصائه. ويبقى الحكم على الوصف غير الحكم على المعيّن؛ فلا يُكفّر مسلم بمجرد معصية أو ميل أو تأويل حتى تتحقق حقيقة القول أو الاعتقاد، وتقام الحجة، وتتحقق الشروط وتنتفي الموانع.

وليس الهوى هنا صنمًا ظاهرًا، هو ميل داخلي يطلب من صاحبه أن يتبعه حيث مال. لا يسأل: ماذا يريد الله مني؟ بل: ما الذي أريده، وكيف أجعل له لغةً شرعية؟ فإذا وافقه النص رفعه، وإذا خالفه شكك في ثبوته أو دلالته أو صلاحيته، لا طلبًا صادقًا للعلم، بل لأن النتيجة مقررة.

والآية تقول: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. ذكر المفسرون معنيين متلازمين في التحذير: أضله الله على علم منه سبحانه بحاله واستحقاقه، وقيل: بعد أن بلغه العلم وقامت عليه الحجة. فلا يخرج الضلال عن علم الله وحكمته، ولا يعصم العلمُ صاحبَه إذا سلّم إرادته للهوى. يعرف الإنسان النصوص، ويمتلك المصطلحات، ويستطيع إنتاج تأويل طويل، غير أن قلبه لا يأتي ليُهدى؛ يأتي ليحصل على ترخيص. وقد تزيد المعرفة التي لا تخضع لله قدرة صاحبها على حماية انحرافه.

وقال تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]

التعبير نفسه يعيد السؤال حتى لا يراه القارئ حالةً بعيدة. كل قلب فيه أهواء، وكل عبد معرض أن يمنح بعضها أكثر مما تستحق. لا يبدأ التأليه دائمًا بإنكار معلن؛ وقد يبدأ بأن يرفض الإنسان سماع أي قول يمس محبوبه، أو يعيد السؤال إلى مفتٍ جديد كلما لم تعجبه الإجابة، أو يغير قاعدته الأخلاقية حين ينتقل الفعل من خصمه إلى نفسه.

## الاستجابة التي تكشف المرجع

قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 50]

وضعت الآية طريقين: الاستجابة للرسول، أو اتباع الهوى بغير هدى. ليس في كل مسألة خلافية أن من خالفك اتبع هواه؛ فيخفى الدليل أحيانًا أو يحتمل النص أو يقع الاجتهاد. لكن حين تقوم الحجة ويثبت البيان، ثم يرفض الإنسان لأنه لا يريد النتيجة، يظهر المرجع الحقيقي. الهوى ليس مجرد شعور؛ هو طاعة للشعور عند تعارضه مع الهدى.

ومن حيل النفس أن تحول كل رفض إلى «قناعة شخصية». تقول: أنا غير مقتنع، من غير أن تسأل هل بذلت طريق الاقتناع؟ هل قرأت بأمانة؟ هل سألت من يخالف رغبتك؟ أم جعلت الاقتناع اسمًا لحق

النفس في ألا تلتزم حتى تشتهي؟ لا يكلف الله العبد بما لا يعلم، لكنه يحاسبه على الإعراض عن العلم وعلى استعمال الشك ستارًا للإرادة.

ويكون الهوى أحيانًا غضبًا لا شهوة لذيذة. يريد الإنسان معاقبة من ظلمه، فيستحل الكذب عليه. أو مصلحةً ماليةً تدفعه إلى تغيير الفتوى. أو رغبةً في المكانة تمنعه من الاعتراف بالخطأ. الهوى كل ميل يطلب القيادة خارج هدى الله، سواء بدا شهوةً أو حميةً أو خوفًا أو انتقامًا.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط» رواه البخاري (2887). لم يُذم المال لأنه مال، وإنما كُشف الموضع الذي صار فيه العطاء والمنع مالكًا للرضا والسخط. فإذا كان الإنسان مع الحكم ما دام يحفظ دخله، ثم انقلب عليه حين نقص ماله، لم يعد المال محبوبًا فحسب؛ صار يأمر قلبه فيطيع.

## داود: حين يدخل الهوى باب الحكم

قال الله تعالى لداود عليه السلام:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: 26]

جاء النهي لنبي ملك يحكم بين الناس: لا تتبع الهوى. فالمكانة والعلم لا يمنعان الحاجة إلى التحذير، والهوى لا يدخل فقط في الشهوات الخفية؛ يدخل مجلس الحكم، والفتوى، والبحث، والتربية. قد يميل الحاكم أو الأب أو العالم إلى طرف لأنه قريب أو موافق أو نافع، ثم يصوغ للميل أسبابًا عامة.

وربطت الآية الهوى بنسيان يوم الحساب. من استحضر أنه سيقف وحده أمام الله ضاق مجال المحاباة؛ أما من غاب عنه الحساب اتسعت عنده أعذار النفس. قد لا ينسى اليوم الآخر عقديًا، لكنه ينساه في لحظة القرار؛ كأن الحكم لن يعاد عرضه، وكأن المظلوم لن يقف معه بين يدي الله.

والعلاج ليس أن يدعي صاحب المسؤولية خلوه من الميل. الاعتراف أول الحراسة. القاضي يسمع الطرفين، والباحث يصرح بتعارض المصلحة، والمدير يضع معايير قبل معرفة الأسماء، والأب يسأل نفسه: لو فعل الابن الآخر هذا، هل أحكم الحكم نفسه؟ هذه الوسائل تترجم التقوى إلى أبواب تمنع الهوى من أن يتخفى في صورة العدل.

## من الآيات إلى الأرض: عالم انسلخ مما يعلم

قال الله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175-176]

أوتي الآيات، وكان يمكن أن ترفعه، لكنه انسلخ منها بإرادته، ثم قال القرآن: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾. ترتيب الألفاظ مهم: لم يُجبره الشيطان على الانسلاخ، لكنه لما خرج من حرز الآيات وأخلد إلى الأرض وجد العدو مدخلًا فاتّبعه وأحاط به. هنا يجتمع فعل العبد وعداوة الشيطان من غير أن يلغي أحدهما الآخر.

لم ينقص الرجل دليل؛ غلبه الإخلاد إلى الأرض واتباع الهوى، ثم صار العلم الذي كان يمكن أن يرفعه عاجزًا عن حمايته. وقد يحفظ الإنسان الدليل الذي يرد به على الناس، ثم يعجز عن تطبيقه حين يمس جاهه أو ماله. يبدأ الميل من الداخل، ويأتي التزيين من العدو ليمنحه قصةً تبدو معقولة، ثم يكررها القلب حتى يصعب عليه سماع الآية التي يعرفها.

ومثل الكلب الذي يلهث في كل حال يصور شهوةً لم تعد تشبع. إذا أعطي طلب المزيد، وإذا منع بقي أسير الطلب. الهوى حين يصير قائدًا لا يحقق الراحة التي يعد بها، والشيطان لا يكتفي بالخطوة الأولى؛ كل ترخيص يولد حاجةً إلى ترخيص آخر، وكل تنازل يحتاج قصةً جديدةً تحمي الصورة. والعلاج أن يعود العبد إلى الآيات التي انسلخ منها، ويستعيذ، ويقطع السبب، ولا يكتفي بتشخيص رغبته.

## الجنة خلف المكاره، والنار خلف الشهوات

قال النبي ﷺ: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» رواه مسلم (2822). وفي لفظ البخاري: «حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره» رواه البخاري (6487).

لا يقول الحديث إن كل ما تكرهه النفس خير، ولا أن كل لذة حرام؛ في المباحات لذات كثيرة، وفي بعض الأوهام والمشاق شر. لكنه يكشف قانون الامتحان: الطريق إلى الجنة تحفه أمور تشق على النفس، والطريق إلى النار تحفه شهوات تجذبها. لو كان الحق دائمًا موافقًا للهوى لم يظهر صدق العبودية.

المكروه هنا قد يكون قيامًا من فراش، أو رد مال، أو اعتذارًا يهدم صورة، أو صبرًا على ترك علاقة، أو قول حق يخسر صاحبه منفعة. والشهوة قد تكون مالًا أو نظرةً أو انتقامًا أو شهرةً أو راحةً من التكليف. لا يُطلب من المؤمن أن يحب الألم لذاته؛ يحب الله والجنة، فيعبر ما يكره من أجلهما. وكل خطوة يترك فيها شهوةً لله تقول في سره: يا رب، أنت أحب، ووعدك أصدق، وما عندك أبقى.

وحين تأتي المشقة، يخطئ القلب إذا جعلها دليلًا على أن الطريق غير صحيح. قد تكون المشقة من سوء طريقة تحتاج تعديلًا، وقد تكون عجزًا له رخصته، ومجرد ثقل الطاعة لا يبطلها. الميزان يعود إلى الدليل والقدرة، لا إلى مستوى الراحة.

## المعاذير التي تصنع ترخيصًا

قال الله تعالى:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: 14-15]

ينجح الإنسان أحيانًا في إقناع من حوله، ويجمع عبارات دقيقةً تفسر موقفه، ويبقى في داخله موضع يعرف الحقيقة. المعاذير لا تكون كلها كذبًا؛ يحتوي العذر أحيانًا جزءًا صحيحًا، لكن النفس تستعمله لتغطي الجزء الحاكم. يقول: الظروف صعبة، وهذا صحيح؛ ويسكت عن أنه رفض كل طريق حلال أصعب. يقول: المسألة خلافية، ويوجد خلاف أحيانًا؛ لكنه لم يطلب إلا القول الذي يوافقه.

وتكشف الهوى قابليةُ الرأي للتغير مع المصلحة. قبل أن يدخل الصفقة كان يشدد في التحذير، فلما صار شريكًا وجد تفصيلًا جديدًا. حين كان ابنه مظلومًا طالب بالشفافية، فلما صار هو المتهم رأى الستر أولى. يصح أن يتغير الحكم لظهور معلومات، ويحتاج القلب أن يسأل: هل تغير الدليل، أم تغير موقعي منه؟

ومن أكثر الحيل خفاءً أن يجعل الإنسان غضبه على مخالفه سببًا لإسقاط كل حق له. يقول: هو فاسد فلا حرمة لماله، أو صاحب بدعة فلا يلزمني الصدق عنه. هنا يعود المحور إلى بدايته: الوحي لا يسمح للكراهية أن تغير وزن الأشخاص والأفعال والأفكار. الهوى يطلب حكمًا واحدًا سهلًا، والعدل يفرض التفصيل. وعندما يريد القلب ترخيصًا لا يقول غالبًا: سأقدم هواي على الله؛ بل يبني قصةً تبدو معقولة، ويكررها حتى لا يسمع ما وراءها.

ارتبط رجل بمعاملة مالية تدر عليه دخلًا كبيرًا. سأل في بدايتها عالمًا يثق به، فبيّن له وجه التحريم وأرسل إليه قرارًا علميًا مفصلًا. ضاق صدره، ولم يناقش الدليل؛ قال: الشيخ لا يعرف الواقع. انتقل إلى آخر، فلما أجابه بمثل الجواب قال: هذا متشدد. ظل يبحث حتى وجد مقطعًا قصيرًا يحتمل الإباحة في صورة تختلف عن معاملته، فاقتطعه وأرسله إلى شركائه: المسألة فيها خلاف.

بعد ذلك لم يعد يسمع أي تفصيل. كل من سأله عن الفرق بين المعاملتين اتهمه بإغلاق أبواب الرزق. وكان قبل دخوله المشروع يحذر الناس من تتبع الرخص، أما الآن فصار يتحدث عن سعة الشريعة. لم يتغير علمه بالمبدأ، تغيرت الكلفة. وحين سأله صديق: لو لم تكن شريكًا، هل كنت ستفهم الكلام بالطريقة نفسها؟ غضب، لأن السؤال لم يناقش الفتوى فقط، بل اقترب من المرجع الخفي الذي منح مصلحته حق توجيه الفهم.

تكون بعض المسائل فعلًا اجتهادية، ويحق للعامي أن يقلد من يثق بعلمه ودينه. وليس اختلاف الفتوى دليل هوى في ذاته. الهوى يظهر في طريقة الطلب: هل تسأل لتعرف ما يلزمك، أم تتنقل حتى تجد ما يريحك؟ وهل تعرض الصورة كاملةً، أم تخفي ما يغير الحكم؟ وهل تقبل جوابًا يخالف مصلحتك من أصل؟

## كيف ينزل الهوى من كرسي الحكم؟

لا تُقتل الرغبات، فالإنسان يبقى محبًا كارهًا، راغبًا راهبًا. المطلوب ألا تجلس الرغبة في موضع الحكم، بل تبقى دافعًا يُهذَّب بالوحي. يبدأ ذلك بتسمية الرغبة قبل البحث: أنا أريد هذه النتيجة، وأخاف خسارتها. الاعتراف لا يحسم الحكم، لكنه يمنع الرغبة أن تتكلم باسم الحقيقة من غير أن تُرى.

ثم يعرض الإنسان المسألة على من لا ينتفع برضاه، ويذكر التفاصيل التي تضره، ويقرأ أقوى دليل مخالف. وإذا ثبت الحكم، ينتقل من الجدل إلى الاستعانة: يا رب، هذا يشق علي، لكني لا أريد أن يكون هواي أحب إلي من هداك. ويحتاج أحيانًا إلى قطع سبب، أو رد حق، أو صحبة تعينه، أو علاج لشهوة متجذرة. العبودية لا تحتقر الوسائل؛ تستعملها كي يبقى القرار لله.

ويحتاج القلب إلى تذكر الحساب. قال الله لداود: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾. كل قرار سيقف مرةً أخرى بلا جمهور ولا اسم ولا مصلحة. من استحضر ذلك خفَّ سحر اللحظة، ورأى أن خسارةً تحفظ وجهه عند الله أهون من مكسب يصير خصمًا عليه.

ارجع إلى رأي تغير عندك حين تغيرت مصلحتك. لا تتهم نفسك بلا بينة، لكن لا تبرئها بلا فحص. اكتب: ما الدليل الذي كنت أحتج به قبل المصلحة؟ وما الذي ظهر فعلًا بعد تغيرها؟ وهل سأقبل هذا الاستدلال لو استعمله خصمي؟

ثم اختر موضعًا تعرف فيه الحكم وتبحث عن ترخيص. توقف عن جمع الأجوبة الجديدة أيامًا، واعرض الصورة كاملةً على من تثق بعلمه وورعه، وتهيأ نفسيًا للجواب الذي لا تحبه. إذا ظهر الحق، فقل بقلب منكسر: يا رب، علمتَ ضعفي وعرفتَ رغبتي، فلا تكلني إليها. واطلب قوة الاستجابة، لا حيلة التأجيل؛ فالانتصار هنا ألا تنتصر رغبتك عليك.

توحيد الوجهة لا يعني أن يصير القلب بلا رغبة، بل أن تبقى الرغبة عبدًا. يحب ويكره، لكنه إذا تكلم الوحي عرف موضعه؛ فلا يحكم الهوى، ولا يصير الشخص ميزانًا، ولا تمنح الكثرة الباطل حقًا. يبقى الله وحده هادي الذوق وصاحب الكلمة الأخيرة في القلب.

# المحور السادس: لمن تكون الولاية؟

انتهى المحور السابق إلى أن الوحي يعيد تشكيل ذوق القلب: فيحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ولا يمنح الأشخاص والأفكار والأهواء حق تغيير الميزان. غير أن هذا الذوق لا يبقى ساكنًا؛ يصنع دوائر الانتماء، ويحدد ممن يطلب الإنسان عزته، ولمن يمنح ثقته، ومن ينصر حين تتعارض الروابط.

والولاية تبدأ من سؤال في باطن القلب: من الذي ترى الأمن والعزة في قربه؟ ومن الذي تخشى سقوطك من عينه؟ ومن الذي يعيد إعجابك به تشكيل ذوقك حتى تستحي من بعض دينك؟ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257].

فموالاة المؤمنين لا تعني محو كل محبة لغير المؤمن؛ فقد تبقى محبة القرابة، أو مودةٌ سببها إحسان أو خلق حسن، ويجب العدل والوفاء بالحقوق. الممنوع أن يُحب الكفر أو يُرضى به، أو تُقدَّم رابطة المحادة على رابطة الإيمان، أو تُطلب العزة والقدوة والنصرة من جهة تصرف القلب عن الله أو تعين باطلها على الحق.

ولا يستقيم الباب إذا بدأ من حقوق المخالف حتى غاب أصل الولاية، كما لا يستقيم إذا حوّل كل معاملة أو ميل طبيعي أو استفادة دنيوية إلى ردة. القرآن نهى عن الولاية المضادة، ثم أمر ببر غير المحارب والقسط إليه، وأبقى للوالدين المشركين حق الصحبة بالمعروف.

لهذا يبدأ المحور بولاية الله والمؤمنين، ثم يكشف طلب العزة في غير موضعها، ويفرق بين محبة الدين ومحبة القرابة، وبين الاقتباس النافع والذوبان، ثم يختم بالبر والقسط والعدل. فالبراءة من الكفر لا تبيح ظلم الإنسان، ونصرة المؤمن لا تعني إعانته على باطل.

## الوحدة الثالثة والعشرون: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ

### الله ولي الذين آمنوا

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 257].

قبل أن يأمرك القرآن أن توالي المؤمنين، يذكرك بمن تولاك. الله ولي الذين آمنوا: يهديهم، ويحفظهم، ويفتح لهم أبواب النور، ويردهم إذا ضلوا، ولا يتركهم أسرى للظلمات التي تصنعها الشهوة والخوف والجماعة والهوى. الولاية هنا ليست شعار قرب؛ إنها فعل رباني مستمر ينقل القلب من ظلمة إلى نور.

حين يعرف العبد أن الله وليه يخف خوفه من سقوطه من أعين الناس. قد يحرمونه منصبًا، أو يضيقون عليه طريقًا، أو يتركونه وحيدًا حين يثبت، لكنه لا يصبح بلا ولي. وهذه المعرفة لا تلغي حاجته إلى الناس، بل تمنع حاجته من أن تتحول إلى عبودية. يأخذ بالأسباب، ويطلب العون، ويبني العلاقات، وقلبه يعلم أن العزة والحفظ والهداية ليست في يد دائرة بشرية مهما عظمت.

والآية تقابل ولاية الله بولاية الطاغوت؛ لأن القلب لا يبقى بلا جهة. فإذا أعرض عن نور الله تسللت إليه تبعيات تخرجه من الوضوح إلى الظلمات: هيبة الجمهور، وخوف السلطة، وسحر القوة، وهيبة الثقافة الغالبة، وطلب القبول. ليست هذه الأشياء طواغيت بمجردها، ولكنها تصبح أبوابًا للظلمة حين تُمنح حق صرف القلب عن الوحي أو رد حكمه.

## ولاية الله ورسوله والمؤمنين

وقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: 55-56].

بدأت الآية بالله؛ فلا تكون ولاية المؤمنين رابطةً مستقلة عن عبادته. ثم جاءت ولاية الرسول ﷺ؛ فلا يزعم أحد أنه يتولى الله ثم يستثقل سنّة رسوله أو يتخلف عن نصر رسالته. ثم جاء المؤمنون موصوفين بالصلاة والزكاة؛ فالولاية لا تنشأ من عرق أو قوم أو حزب، بل من عبودية ظاهرة تصل الإنسان بربه وتفتح ماله لحقوق الخلق.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحول الولاية من تعريف محفوظ إلى اختيار يومي. قد ينتسب المرء إلى المؤمنين، لكنه يطلب عزه من غيرهم، ويستمد معاييره منهم، ويخشى رفضهم أكثر من خشيته مخالفة الله. وقد يعيش بين مخالفين، ويعاملهم بالعدل والإحسان، بينما يبقى قلبه وعزته ونصرته للحق وأهله. ليست العبرة بمكان الجسد وحده؛ بل بمن يملك الموقف حين ترتفع الكلفة.

وجاء وصف المؤمنين بالركوع في سياق إقامة الصلاة؛ والركوع من أظهر صور خضوعهم لله. فلا تنشأ ولايتهم من اسم الجماعة وحده، بل من عبودية تجعلهم جميعًا تحت أمره. والجماعة إذا خرجت من هذا

الخضوع قد تتحول إلى سلطة تطلب من أتباعها الدفاع عنها في الحق والباطل. أما من ركع لله فلا يسلم ضميره لجماعته؛ يوالي المؤمنين في طاعة الله، وينصحهم إذا أخطؤوا، ويأبى أن يجعل محبتهم حجابًا عن الحق.

## بعضهم أولياء بعض

قال الله تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

فسّر القرآن أثر الولاية: أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وصلاة، وزكاة، وطاعة. فالولي لا يكتفي بأن يشعر بالقرب؛ يحمل همّ دين أخيه وكرامته وحاجته. يفرح بطاعته، ويعينه على الاستقامة، ويبذل له من ماله وعلمه ومكانته، ولا يتركه حين لا تعود النصرة عليه بصورة أو منفعة.

وتأمل خاتمة الوصف: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾. حين يحمل المؤمنون بعضهم بعضًا إلى المعروف، لا يؤدون واجبًا اجتماعيًا باردًا؛ يسيرون إلى رحمة الله. لذلك تكون النصيحة رحمة، لا فضيحة، ويكون إنكار المنكر طلبًا للنجاة، لا مناسبةً للتفوق.

وقد يطلب الإنسان من صاحبه أن يريحه من مواجهة نفسه، فيسمي التبرير وفاءً، والصمت سترًا، والدفاع عن خطئه نصرةً. لكن القرآن جعل الأمر بالمعروف أول علامة للولاية بعد تقريرها. ومن نقص المحبة والولاية أن ترى أخاك يسير إلى ما يؤذيه في دينه ثم تؤثر سلامة العلاقة على سلامة قلبه.

## البنيان والجسد

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، وشبك بين أصابعه. رواه البخاري (481) ومسلم (2585).

لم يشبّه المؤمنين بحجارة متجاورة، بل ببنيان يتقوى بعضه ببعض. يحتاج المؤمن إلى علم عالم، ومال منفق، وصبر مصلح، وخبرة متقن، ودعاء قلب صالح. وما عنده ليس ملكًا خاصًا محضًا؛ فيه حق للبناء الذي جعله الله جزءًا منه.

وقال النعمان بن بشير رضي الله عنهما إن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». رواه البخاري (6011) ومسلم (2586)، واللفظ لمسلم.

الجسد لا يسأل العضو المتألم عن لغته أو طبقته أو قومه قبل أن يتداعى له. هنا تنكشف دوائرنا الضيقة: هل يحركك ظلم المؤمن لأنه ظلم، أم لا يتحرك قلبك إلا لمن يشبهك؟ وهل تتحول حرقة القلب إلى نصرة نافعة: دعاء، ومال، وبيان صادق، وإغاثة، وإصلاح؟ أم تستهلكك صور الألم ثم تترك الحقوق القريبة التي تستطيعها؟

وقد مدح النبي ﷺ الأشعريين فقال: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم». رواه البخاري (2486) ومسلم (2500).

لم تكن أخوتهم خطابًا؛ حين قل الطعام وضع كل واحد ما عنده في موضع واحد. وهنا يبلغ الولاء صورته اليومية: أن يصبح مالك وجاهك وخبرتك بابًا يسند المؤمنين، لا أن يبقى الانتماء حرارةً في اللسان وبرودةً في الحقوق.

## حين تضيق دائرة الأخوة

يعرف موظف أن مسلمًا في قسم بعيد تعرض لبهتان يهدد سمعته ورزقه. يملك رسالة تثبت الحقيقة، لكنه يتردد: التدخل سيغضب مديرًا نافذًا، والرجل ليس من دائرته، وربما لن يعرف من أنصفه. وفي اليوم نفسه يطلب منه صديق مقرب تزكيةً لمشروع ضعيف؛ فتتحرك الذكريات والخشية من فقد العلاقة، ويسهل أن ينصر القريب بما لا يستحق.

في تلك اللحظة لا يُختبَر مقدارُ لطفه، بل جهة ولايته. ولاية المؤمن لا تعني تصديقه في كل دعوى ولا تقديمه على صاحب حق؛ إن أخطأ رُد خطؤه، وإن ادعى طُلبت بينته. لكنها تمنع البرود الذي يرى مظلمته ثم يمر، وتمنع العصبية التي تمنحه ما ليس له.

كم من إنسان يرفع راية الأمة ثم يؤخر أجر عامل مسلم، أو يقطع قريبًا، أو يترك زميلًا وحده أمام ظلم يستطيع دفعه. الانتماء الكبير الذي لا يظهر في الحقوق الصغيرة قد يكون تعويضًا نفسيًا عن غياب العبودية. الولاية تبدأ حيث تستطيع: حق تؤديه، وكلمة صدق، ومواساة، ودعاء في غيب، ومكان تفسحه لمن لا يملك شبكةً تحميه.

## محك الولاية

انظر إلى من يحصل على قوتك لا إلى من تكثر فيهم كلماتك. من تنصر إذا لم تربطك به منفعة؟ ومن يستطيع أن يطلب منك النصيحة لأنه يعلم أنك لا تفضحه ولا تجامله؟ ومن حقه عليك مؤخر لأن قلبك لا يشعر نحوه بالقرب؟

اختر حقًا واحدًا لمؤمن خارج دائرتك الخاصة، فأده طلبًا لولاية الله: مظلمة تستطيع بيانها، أو محتاجًا تستطيع مواساته، أو غائبًا تستطيع الدفاع عن عرضه بالصدق. حين يتولى العبد ربَّه يخرج من سجن الدائرة الضيقة، ويجد في جسد المؤمنين موضعه ومسؤوليته.

لكن ولاية المؤمنين لا تكتمل حتى ينكشف نقيضها: أن يبحث القلب عن العزة في دائرة الكفر، أو يمنح نصرة الإيمان وثقته لمن يحاد الله ورسوله من دون المؤمنين.

## الوحدة الرابعة والعشرون: لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

## من دون المؤمنين

قال الله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28].

لم يقل القرآن: لا تعاملوا، ولا تتاجروا، ولا تحسنوا، بل نهى عن اتخاذ الكافرين أولياء ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. هذه العبارة تكشف الاستبدال: أن يترك القلب دائرة الإيمان أو يخذلها، ثم يجعل عزته وأمنه ونصرته وثقته في دائرة تخالف الدين أو تعاديه. ليست القضية مجرد معرفة أو منفعة؛ القضية أن يصير القرب منهم بديلًا عن ولاية المؤمنين، وأن يطلب المرء حمايته ومكانته بثمن يدفعه من دينه أو من حقوق أهل الإيمان.

ولهذا جاءت الخاتمة مزلزلة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾. الموضع ليس لعبة ألفاظ ولا ذريعةً للمزايدة على الناس. إنه باب يمس جهة القلب ونصرته، ولذلك يحتاج إلى صراحة تمنع التمييع، وإلى علم يمنع الغلو. فليست كل علاقة ولايةً، وليست كل ولاية في درجة واحدة، ولا يجوز أن يُنزّل الحكم على شخص بعينه بمجرد الظن أو المقطع المبتور.

وقد يكون الإنسان قريبًا من المؤمنين بجسده، لكنه يستحي من الانتساب إليهم، ويطلب قبوله عند جهة تحتقر دينه. يفسر لهم نفسه بلا توقف، ويعيد ترتيب أحكامه ليحظى بقبولهم، ويقسو على المؤمنين ليثبت أنه «ليس مثلهم». هنا تبدأ الموالاة قبل أن تبلغ نصرةً عسكرية أو كشف سر؛ تبدأ حين تنتقل العزة من الله إلى عينٍ بشرية.

## أين تطلب العزة؟

قال سبحانه:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138-139].

كشف القرآن الدافع: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾. قد يخاف الإنسان أن يكون مع المؤمنين أقل مكانةً في أعين أهل القوة، فيبدل لغته، ويستثقل شعائر دينه، ويجد راحته في أن يُقبل منهم ولو كان الثمن أن يخذل إخوانه أو يبرر ظلمهم. يظن أن العزة في القرب من الغالب، وينسى أن القوة التي لا تستمد من الله قد تمنحه بابًا وتغلق عليه قلبه.

والعزة ليست شعورًا بالتفوق على الخلق. هي ألا تبيع دينك لتُرى، ولا تتنازل عن حق مؤمن لتقترب، ولا تحتمي بقوة تعادي الحق ثم تقول: لا خيار لي. قد تضعف، وقد تضطر، وقد تداري خوفًا معتبرًا، وقد تدخل في عقد أو مصلحة مشروعة؛ لكن القلب يظل يعرف أين العزة، ولا يحول الضرورة إلى إعجاب ولا المعاملة إلى انتماء.

وفي زمن الصورة العالمية قد تتشكل هذه الموالاة ببطء: يختار الشاب من يشبهه في اللباس والكلام، ثم من يحدد له الجميل والقبيح، ثم من يحق له أن يغضب لأجله، حتى يصير جرح المؤمن عنده خبرًا عابرًا، ورفض الجهة الغالبة له كارثةً تهز قيمته. لا يحتاج الذوبان إلى إعلان؛ يكفي أن تصبح نظرتهم مرآتك الوحيدة.

## البطانة التي تدخل إلى الداخل

وقال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118].

البطانة ما يلي الباطن: من تودعه سرك، وتستشيره في موضع الحسم، وتسمح له أن يرى نقاط ضعفك ويصنع قرارك. لا تنهى الآية عن الاستفادة من خبير مخالف أو موظف أمين، وإنما تحذر من إدخال من لا يألو المؤمنين خبالًا إلى موضع الثقة التي تمكّنه من إضرارهم.

وقد يختار الإنسان بطانته بناءً على الكفاءة وحدها، وينسى أن الكفاءة بلا أمانة قد تجعل الضرر أدق. وقد يرفض خبيرًا غير مسلم مأمونًا في شأن دنيوي مباح لمجرد هويته، بينما يسلم أسراره لمسلم يحمل حقدًا أو طمعًا. الميزان ليس الاسم المجرد؛ هو حقيقة العلاقة، ومقدار الثقة، وطبيعة السر، وأثره على المؤمنين.

والحاجة إلى البطانة تكشف حاجة نفسية أعمق: نريد شخصًا يطمئننا ويؤكد اختياراتنا. فإذا كان القلب مولعًا بقبول دائرة معينة، سلّمها تفسير واقعه قبل أن يشعر. يسمع منها أخبار المؤمنين، ويقرأ من خلالها تاريخه، ويستأذنها في الشعور بالفخر أو الخجل. هناك تصبح البطانة مرجعية، لا مجرد خبرة.

## وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: 51].

الوعيد متعلق بالتولي، لا بمجرد الجوار والمعاملة. فالتولي انضمام ونصرة ورضا بالجهة الدينية المعادية، لا بيعٌ ولا شراءٌ ولا إحسانٌ مأمورٌ به. ولهذا لا يجوز أن تتحول الآية إلى اسم فضفاض يوضع على كل علاقة، كما لا يجوز تفريغها حتى لا يبقى من النهي إلا صورة نادرة لا تمس واقع القلب.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ يكشف خطورة الانتقال من دائرة الإيمان إلى جهة الكفر والعداوة. من تولى طريقهم الديني ونصره على الإسلام ورضي به فقد ناقض أصل ولائه. أما الوقائع الجزئية فتحتاج إلى معرفة حقيقتها وباعثها؛ فلا يُسوَّى بين التولي المكفر وبين معصية أو إعانة محرمة صدرت لغرض دنيوي.

## حاطب: الفعل الخطير والقصد الدنيوي

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1].

ثم قال سبحانه:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۚ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: 2-3].

نزلت الآيات في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، حين أرسل إلى قريش يخبرهم ببعض أمر مسير النبي ﷺ إلى مكة. فأرسل النبي ﷺ نفرًا من أصحابه فأدركوا المرأة التي حملت الكتاب، وجيء به إلى رسول الله ﷺ. قال له النبي ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟»، فبيّن أنه لم يفعله كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، وإنما أراد يدًا تحمي قرابته في مكة. فقال النبي ﷺ: «صدق». فقال عمر رضي الله عنه: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق»، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». والقصة في صحيح البخاري (3007) وصحيح مسلم (2494)، واللفظ هنا لمسلم.

اجتمع في المجلس غضب عمر رضي الله عنه للدين، وخطورة فعل لا يحتمل التهوين، وعدل النبوة الذي لم يحكم على الباطن من ظاهر الفعل وحده. سماه القرآن ضلالًا عن سواء السبيل، ومع ذلك سأل

النبي ﷺ عن القصد والحال، وقبل صدق حاطب، ولم يجعل خوفه على أهله رضا بالكفر أو خروجًا من الدين. هكذا يبقى الباب شديدًا من غير ظلم، وتبقى الفروق منضبطةً من غير تمييع.

ومن هذا المشهد تثبت القاعدة: نصرة الكفر لأنه كفر، والرضا بغلبته على الإسلام، والانضمام إلى محادته للدين، من التولي المناقض لأصل الإيمان. أما الإعانة المحرمة التي تدفع إليها مصلحة دنيوية أو خوف على أهل ومال، مع بقاء محبة الإسلام وكراهية الكفر، فلا تكون كفرًا بمجرد صورتها، وإن بقيت خيانةً أو كبيرةً أو جريمةً عظيمة بحسب حقيقتها وأثرها.

والحكم على الوصف غير الحكم على المعيّن. لا يُعرف قصد شخص من صورة أو شعار، ولا تُختزل الوقائع المعقدة في لفظ عام. إثبات الحقيقة، وتحرير القصد، ومعرفة أثر الفعل، وتحقيق الشروط وانتفاء الموانع: كل ذلك من شأن العلم والقضاء، لا من شأن الغضب الرقمي.

## التعاون ضد المؤمنين: بأي معنى؟

إذا كان التعاون انضمامًا إلى من يحاد الله ورسوله، ونصرةً لدينه الكافر على الإسلام، ورضًا بغلبته، وتقديمًا لمعسكره الديني على المؤمنين؛ دخل في التولي المناقض لأصل الإيمان. أما قصة حاطب فتمنع من نقل كل إعانة إلى هذا الحكم؛ فالإعانة التي يحركها غرض دنيوي لا تُكفَّر بمجرد صورتها، لكنها تظل محرمةً خطيرة، ويشتد حكمها بقدر ما توقعه من خيانة وعدوان وضرر.

وقد يكون ما يسمى «تعاونًا ضد مسلم» تعاونًا على رد ظلم وقع منه، أو أداء شهادة، أو إنقاذ مظلوم غير مسلم؛ فهذا ليس نصرةً للكفر على الإسلام، بل قيام بالعدل. الهوية لا تحول الظلم حقًا، ولا تجعل منع المسلم الظالم خيانةً له. لذلك يحتاج السؤال دائمًا إلى تفصيل: على ماذا وقع التعاون؟ ولأي غرض؟ وما موقع الدين والنصرة والعدوان فيه؟

## محك العزة والموالاة

اسأل قلبك: من تخشى سقوطك من عينه حتى تخفف دينك؟ من تمنحه أسرارك؟ ولمن تقدم تفسير واقعك؟ هل قسوت على المؤمنين لتثبت لجهة غالبة أنك جدير بقبولها؟ وهل خذلت حقًا واضحًا لأن نصره يهدد مكانتك؟

اختر علاقة واحدة اختلط فيها طلب العزة بالمعاملة المشروعة. اكتب بصدق: ما الذي أحتاجه من هذه الجهة؟ وما الذي لا يحق لي أن أدفعه ثمنًا؟ ثم أعد قلبك إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. من عرف موضع العزة لم يحتج أن يبيع ولاءه كي يُرى.

لكن الموالاة لا تبدأ دائمًا من اتفاق سياسي أو كشف سر. قد تبدأ من محبة دينية تسكن القلب، أو من مودة لمن يحاد الله لأنه يحاد الله. وهنا يأتي السؤال الأدق: ما الذي تحبه في الإنسان، وما الذي لا يجوز أن يحبه قلب مؤمن؟

## الوحدة الخامسة والعشرون: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

### ماذا يحب القلب؟

قال الله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

الآية لا تتحدث عن كل مخالف يعيش معك بسلام، بل عن ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: من جعل نفسه في حد يقابل الحق ويحاربه. والمودة المذكورة ليست مجرد رحمة طبيعية أو إحسان عابر؛ هي محبة وقرب قلبي ينسج الولاء مع مَن حادَّ الله ورسوله. لذلك قرنت الآية نفيها بثبات الإيمان في القلب.

ليس المؤمن قلبًا من حجر. قد يحب أبًا أو ابنًا أو قريبًا غير مسلم محبةً طبيعية، ويحزن لمرضه، ويفرح بإحسانه، ويرجو هدايته. لكنه لا يحب كفره، ولا يرضى محادته، ولا يجعل القرابة أقوى من حكم الله إذا تعارضت. يجتمع الألم والبراءة: يتمنى له النور، ولا يزين له الظلمة.

وهذا التفريق يحرر القلب من طرفين. طرف يجعل كل ميل طبيعي نقضًا للإيمان، فيطالب الإنسان أن يكذب على فطرته. وطرف يترك المحبة بلا ميزان، حتى تمتزج محبة الشخص بالرضا بطريقه الديني ونصرته على الحق. الوحي لا يقتل الفطرة، لكنه يضعها تحت العبودية.

## إبراهيم: لطف الابن وبراءة الحنيف

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: 42-43]. تكررت ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وبقي خطاب الرحمة حاضرًا وهو يهدم أصل الشرك. لم يقل: لأنك أبي فسأخفف حقيقة الباطل، ولم يقل: لأنك مشرك فسأهدر حق الأبوة.

وجعل القرآن إبراهيم ومن معه أسوةً في أصل البراءة فقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 4]. موضع البراءة هنا الدين والعبادة والمحادة، لا كل حق إنساني ولا كل شعور طبيعي.

فالبراءة الحنيفية تخلع الرضا بالشرك والولاية عليه، ولا تحوّل القلب إلى قسوة عمياء. ظل إبراهيم أواهًا حليمًا، ووعد أباه بالاستغفار قبل أن يتبين له حكمه، فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: 114].

لم تناقض البراءة حلم إبراهيم؛ لأنها ليست لذة مفارقة ولا كراهيةً لكل ما في الشخص. هي قطع للرضا بالكفر والموالاة عليه، مع بقاء العدل والرحمة والدعوة والحقوق التي شرعها الله. وبذلك يظهر النفي والإثبات في الولاية: يخلع المؤمن ولاء الباطل، ويثبت قلبه ونصرته للحق، من غير أن يكذب على فطرته أو يظلم من خالفه.

## المحبة الطبيعية لا تغيّر حكم الدين

قال الله تعالى لنبيه ﷺ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

وفي سياق أبي طالب اجتمعت محبة القريب والحرص على هدايته، مع بقاء الهداية بيد الله وحده. لم تجعل صلة القرابة الباطل حقًا، ولم تمنح النبي ﷺ قدرةً على إدخال الإيمان في قلب من أحب. وهذه الآية تعلّم المؤمن أن يحب الخير لقريبه، ويبذل له الدعوة، ثم لا يغيّر حدود الدين ليضمن بقاء العلاقة.

وقد يحب المسلم في غير المسلم خلقًا حسنًا، أو وفاءً، أو علمًا، أو إحسانًا أسداه إليه. يحب الصفة بقدرها، ويشكره عليها، ولا يحول هذا إلى تزكية لدينه أو رضا بكفره. كما قد يبغض منه ظلمًا أو محادةً للحق، دون أن يسلبه كل حق إنساني. والإنسان لا تختزله صفة واحدة، والميزان القرآني لا يطلب من القلب أن يجعل الناس لونًا واحدًا.

لكن الخطر يبدأ حين لا يعود الإعجاب بالصفة محدودًا. يعجب الإنسان بنجاح شخص، ثم يغفل عن باطله، ثم يدافع عن طريقه الديني، ثم يستثقل نقده لأن نقده يهدد صورةً بناها في قلبه. هنا انتقلت المحبة من تقدير جزئي إلى سلطة تعيد تفسير الحق.

## المحبة طريق وعاقبة

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: سأل رجل النبي ﷺ عن الساعة، فقال له: «وماذا أعددت لها؟»، قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت». رواه البخاري (3688) ومسلم (2639).

المحبة في السنة ليست زينةً داخلية؛ لها صحبة وطريق وعاقبة. وما يختاره القلب محبوبًا أعلى يكثر ذكره، ويطلب قربه، ويأنس بهديه، ويرجو أن يكون معه. لذلك فرح الصحابة بهذا الحديث؛ فقد فتح لهم باب الرجاء، ولم يحول المحبة إلى دعوى منفصلة عن الوجهة.

ولا يجعل الحديث كل محبة طبيعية مودةً دينية. قد يحب الإنسان قريبًا مخالفًا، أو يحسن إلى صاحب فضل، وهو يبغض كفره ولا يتبعه. إنما يكشف الحديث خطورة المحبة المختارة التي تصنع القدوة والانتماء: من أحب طريقًا لأنه يعادي الحق، أو أحب غلبة الكفر، أو جعل أهل المحادة موضع اقتدائه وولائه، حملته محبته إلى جهتهم. ومن أحب الله ورسوله والصالحين، جاهد أن يوافق عملُه وسلوكُه هذه المحبة، ورجا صحبتهم برحمة الله.

## محبة الكفر ليست محبةً عابرة

محبة الكفر لأنه كفر، أو الرضا به، أو تفضيله على الإسلام، أو الفرح بانتصاره على دين الله: ليست خطأً وجدانيًا صغيرًا؛ فهي تناقض أصل الإيمان. القلب المؤمن لا يحب ما أبغضه الله من الشرك والجحود، ولا يتمنى غلبة الباطل لأنه يوافق هوى أو قوميةً أو غضبًا من بعض المسلمين.

وقد يكره الإنسان أخطاءً عظيمةً من مسلمين، فينتقل غضبه من الأشخاص إلى الدين نفسه أو إلى عموم المؤمنين، ثم يجد لذةً في إذلالهم أو انتصار من يعاديهم. هنا يجب أن يتوقف: عدلك مع المخطئ لا يبيح أن تحب محادة الإسلام، وكراهيتك لظلم بعض المسلمين لا تمنحك حق نصرة كفر عليهم.

ومحبة إنسان لكفره أو لعداوته للدين تختلف عن محبة قريبٍ أو صاحب إحسان مع بغض كفره. هذه الفروق ليست حيلًا لتخفيف النصوص؛ هي التي تمنع القلب من الكذب على فطرته، وتمنعه في الوقت نفسه من تحويل القرابة والإعجاب إلى ولاء ديني.

## قلب يريد أن يكون محبوبًا

قد لا يبدأ الأمر بمحبة المخالف، بل بحاجة المسلم أن يكون محبوبًا عنده. يدخل مجلسًا أو بيئةً مهنية، فيشعر أن بعض شعائر دينه تضعه في موقع دفاع. يخفف لغته، ويضحك من شيء يعظّمه المؤمنون، ويتبرأ من «صورته الدينية» قبل أن يطلب منه أحد ذلك. لا يريد دينهم، لكنه يريد حبهم، ومع الوقت يدفع من هويته ثمنًا لهذا الحب.

الحاجة إلى القبول بشرية، لكن إذا صارت حاكمةً بدأت تربي المودة في موضع لا يرضاه الله. قد يحسن المسلم إلى الجميع، ويتعامل بلطف، ويشرح دينه بهدوء؛ غير أنه لا يحتاج إلى أن يذوب كي يكون كريمًا. من عرف أن الله كتب الإيمان في القلب وأيده بروح منه، لم يستمد وجوده من إعجاب من يخالفه.

## محك المحبة

اختر شخصًا غير مسلم تحبه أو تعجب به، واسأل: ما الذي أحبه فيه تحديدًا؟ أهو خلق أو قرابة أو إحسان؟ أم أن إعجابي تمدد حتى صار دفاعًا عن باطل أو استحياءً من ديني؟ ثم اختر شخصًا مسلمًا تكرهه لخطأ أو أذى، واسأل: هل تحولت كراهيتي له إلى شماتة بالدين وأهله؟

لا تطلب من قلبك أن ينكر الفطرة، بل أن يسمي الأشياء بأسمائها. أحب الخير حيث كان، وابغض الكفر والظلم حيث كانا، وارج الهداية للخلق، ولا تجعل حب أحد جسرًا إلى الرضا بما يسخط الله. فالقلب الذي كتب الله فيه الإيمان لا يحتاج أن يطفئ رحمته، ولا يسمح لرحمته أن تطفئ توحيده.

لكن المحبة لا تبقى إحساسًا. ما يعظمه القلب يحاول أن يشبهه الجسد واللسان والذوق. ومن هنا تنتقل الولاية إلى التقليد: متى تكون الاستفادة حكمة، ومتى يصبح التشبه إعلانًا صامتًا عن ذوبان الوجهة؟

## الوحدة السادسة والعشرون: صبغة الله: حين يتحول التقليد إلى ذوبان

### صبغة تصنع الملامح

قال الله تعالى:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: 138].

الصبغة أثر يظهر على الشيء من داخله وخارجه. والإيمان لا يبقى فكرةً مخفية؛ يصبغ العبادة واللغة والذوق والعادات ومفهوم النجاح. لذلك كان التقليد أخطر من استعارة شكل عابر؛ قد يكون طريقًا ينقل الإنسان من الإعجاب إلى الاستسلام لمعيار جديد.

وقال الله تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120].

لا تنفي الآية إمكان العدل والتعاون والاتفاق في مصالح الدنيا، وإنما تكشف أن طلب الرضا الديني من جهة تخالف الوحي لا يبلغ نهايته إلا باتباع ملتها. كل تنازل يولد مطالبةً بتنازل آخر، حتى يصير رضا الناس ميزانًا، ويغيب قول الله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

وفي الجهة الإيجابية قال سبحانه:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18].

فالمؤمن لا يبني هويته على مخالفة الآخرين لذاتها؛ له شريعة يتبعها، وصبغة يعرف بها نفسه، ثم ينظر إلى العالم من مركز ثابت. والذي يعبد الله لا يرفض كل ما جاء من غير المسلمين. الحكمة والمعرفة والخبرة الدنيوية ينتفع بها حيث كانت، والوسائل المشتركة لا تصبح محرمة لأن غير المسلم سبق إليها. لكنه لا يأخذ معها ميزانًا يقول له: هذا هو الإنسان المتقدم، وما خالفه متخلف ولو كان من هدي النبوة.

المشكلة ليست في استخدام آلة أو تعلم علم، بل في انتقال الصبغة. حين يستحيي المرء من اسمه وشعيرته ولغته، ويطمئن فقط إذا بدا نسخةً من الجهة الغالبة، صار التقليد تعويضًا عن شعور داخلي بالنقص. وقد يرفع شعار الانفتاح وهو في الحقيقة يهرب من نفسه.

## التحذير من اتباع السنن

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». رواه البخاري (3456) ومسلم (2669).

لم يصف الحديث استفادة واعية، بل اتباعًا يضع القدم في أثر القدم، حتى لو انتهى الطريق إلى جحر ضيق. التقليد هنا تعطيل للسؤال: لماذا أفعل؟ وهل هذا يرضي الله؟ يكفي أن يكون الفعل علامةً للقوة أو القبول حتى يسير المقلد خلفه.

وقد يبدأ الاتباع من أمر صغير: كلمة يسخر بها من قِيَمِه، أو عادة يكررها ليبدو منتميًا، أو احتفال لا يفهم معناه. ثم تتشكل النفس على أن الأصل عند غيره، وأن عليه أن يلحق باستمرار. لا يعود يسأل الوحي أن يصنع حياته؛ يسأل كيف يكيف الوحي لئلا يعوق دخوله في النموذج الذي أعجبه.

والحديث لا يمنح المؤمن حق احتقار الأمم أو إغلاق عينه عن خبراتها. إنما يحذره من ذوبان الوعي. قد يتعلم من طبيب غير مسلم، ويقتبس نظامًا إداريًا نافعًا، ويستعمل منتجًا عالميًا، وهو ثابت الصبغة. وقد يلبس ثوبًا محليًا ويستخدم لغة دينية، بينما قلبه تابع في معيار الجمال والنجاح والخير.

## مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم» رواه أبو داود (4031)، وسكت عنه، وصحح إسناده العراقي، وحكم عليه الألباني بأنه حسن صحيح.

التشبه فعل يقصد به أو يفضي إلى مشابهة قوم في خصائصهم التي تدل عليهم. وكلما كان الأمر ألصق بدينهم وشعائرهم كان النهي أشد. فمن شارك في عبادة كفرية معتقدًا صحتها أو راضيًا بها فذلك باب آخر يمس أصل الدين. ومن تشبه في خصيصة دينية من غير اعتقادها فقد يقع في محرم شديد، ولا يلزم أن يكون كفرًا في كل صورة.

أما العادات المشتركة والوسائل التي لم تعد علامةً خاصة بدين أو قوم، فلا يحكم عليها لمجرد أصلها التاريخي. كما أن النية والحقيقة والسياق مؤثرة. وليس المقصود أن يعيش المسلم باحثًا عن كل شبه عابر؛ المقصود أن يحفظ شخصيته من أن تُبنى على محاكاة من يعظمه في غير هدى الله.

ولهذا لا يصح استعمال الحديث لتضييق المباحات بلا علم، ولا تفريغه حتى لا يبقى من معناه شيء. التوسط أن نسأل: هل هذا الفعل شعار ديني أو خصيصة ظاهرة؟ هل يحمله المرء إعجابًا بالطريق المخالف أو رغبةً في الانتساب؟ أم هو وسيلة عامة لا تختص بأحد؟

## مخالفة تحفظ الهوية ولا تصنع خصومة

وفي صيام عاشوراء قصد النبي ﷺ إلى مخالفتهم في هيئة العبادة، فقال: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع». رواه مسلم (1134).

لم تكن المخالفة عداءً لمجرد المخالفة، بل حفظًا لهوية العبادة من الذوبان. المسلم يصوم لله، ويتبع رسوله، فلا يجعل شعيرته نسخةً تابعة. هذا الفرق مهم: قد يتحول بعض الناس إلى مراقبة الآخرين أكثر من مراقبة السنة، فيبني دينه كله على رد الفعل. والهوية التي لا تعرف نفسها إلا بالمخالفة تبقى أسيرةً لمن تخالفه.

الصبغة الإسلامية أوسع من مجرد مظهر. تتجلى في الرحمة والصدق والعفة والعدل، وفي هيئة العبادة وشعائرها، وفي طريقة النظر إلى المال والنجاح والأسرة. ليس المقصود أن يخالف المسلم في كل جزئية دنيوية، بل أن يكون أصل تشكيله من الوحي، ثم يأخذ من العالم ما ينفع من غير أن يفقد مركزه.

## الإعجاب الذي يسبق التقليد

قبل أن يقلد الإنسان غالبًا يعجب. يرى قوةً أو ثراءً أو تقدمًا، فيربط كل ما عند القوم بالصواب. ثم يغفل عن أن الحضارات تجمع علمًا وجهلًا، وعدلًا وظلمًا، ومنجزًا نافعًا وانحرافًا مفسدًا. كما يجمع المسلمون خيرًا وتقصيرًا. الميزان لا يُسلَّم لمجموعة كاملة.

وقد ينشأ الطفل أو الشاب في بيئة رقمية لا يرى فيها النجاح إلا بملامح محددة: جسد، وبيت، وعلاقة، واحتفال، وموسيقى، وطريقة كلام. لا يُطلب منه تصريح عقدي؛ تتكرر الصورة حتى تصبح الطبيعي الوحيد. حين يحاول أن يعيش هدي دينه يشعر أنه يمثل أو يتأخر عن الحياة.

هنا يحتاج البيت والتعليم والدعوة إلى بناء جمال الإيمان، لا إلى المنع المجرد. إذا لم يجد الشاب في لغته ودينه وقدوته معنىً حيًا للجمال والكرامة، فقد يترك الصورة المحرمة ظاهرًا ويبقى أسيرًا لها باطنًا. الصبغة تُبنى بالمحبة والمعرفة والقدوة، لا بالتحذير وحده.

## الاستفادة ليست استلابًا

في أخطر رحلةٍ عرفتها الدعوة، لم يجعل النبي ﷺ اختلاف الدين مانعًا من خبرة موثوقة في موضعها. قالت عائشة رضي الله عنها: «واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الدِّيل هاديًا خِرِّيتًا، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال». رواه البخاري (2264). والهَادي الخِرِّيت هو الماهر بمعرفة الطريق.

ائتمنه النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه على الدلالة والراحلتين والموعد؛ لأنه كان خبيرًا أمينًا في هذا العمل. لم يتحول الانتفاع بخبرته إلى رضا بدينه أو ذوبان في ملته. هذا مشهد نبوي يفصل بين بابين يخلطهما الناس: الخبرة الدنيوية تُوزن بالأمانة والكفاءة ومشروعية العمل، والولاء الديني يبقى لله ورسوله والمؤمنين.

والفارق بين الاستفادة والاستلاب أن الأول يأخذ الأداة ويبقي الميزان، والثاني يأخذ الميزان مع الأداة. قد تنقل مؤسسة نظامًا ناجحًا في الجودة والشفافية، ثم ترفض فلسفةً ماديةً تصاحب بعض تطبيقاته. وقد يدرس باحث نظريةً وينتقد افتراضاتها. الثقة بالهوية لا تخاف المعرفة، والوعي بالوحي لا يبتلع كل ما يتعلم.

وقد يقع العكس: يرفض الإنسان علمًا نافعًا لأنه جاء من مخالف، فيسمي عجزه ولاءً. هذا ليس ثباتًا؛ فالحق الدنيوي لا يبطل باسم قائله. كما أن قبول التقنية لا يعني قبول عقيدة صاحبها. التوحيد يمنح القلب قدرةً على التفريق بدل ردود الفعل الكلية.

## مشهد الذوبان الهادئ

يبدأ طالب دراسته في بيئة جديدة وهو حريص على صلاته وهويته. لا يطلب منه أحد ترك دينه، لكن النكات تلمز المتدينين، والنجاح الاجتماعي مرتبط بصورة معينة. في الأسبوع الأول يصمت. ثم يضحك كي لا يبدو مختلفًا. وبعد أشهر يحذف ما يدل على دينه من حسابه، ويصف أحكامًا ثابتة بأنها «ثقيلة» قبل أن يفهمها، ويعيد نشر كل نقد يبرهن أنه متحرر من جماعته.

لم يعتنق دينًا آخر. لكنه جعل عين البيئة مرجعًا يرى به نفسه. كل خطوة صغيرة بدت ضرورة اجتماعية، حتى صار مجموعها ذوبانًا. لو سئل قال: أنا كما أنا. لكن صبغة الخارج بدأت تمحو ملامح الداخل.

وفي الجهة الأخرى قد يثبت طالب آخر من غير خشونة: يشارك في النافع، ويحسن إلى زملائه، ويعتذر عن المحرم بلا خطبة، ويسأل ويتعلم، ولا يشعر أن اختلافه إهانة للآخرين. لأنه لم يدخل طالبًا شهادة قبول من الناس؛ دخل عبدًا لله يحمل خيره ويتعلم خيرهم.

## محك الصبغة

اختر عادةً أو صورةً أو رأيًا تبنيته لأنك تخاف أن تبدو مختلفًا. اسأل: هل هو مباح مشترك؟ أم خصيصة دينية أو أخلاقية تخالف هدي الله؟ وهل أخذته لبرهانه، أم لأن الجهة التي صدّرته عظمت في عيني؟

ثم اختر مهارةً أو علمًا نافعًا رفضته لمجرد أن مصدره غير مسلم. أعد وزنه بالحق. لا تجعل الولاء جهلًا، ولا تجعل الانفتاح استلابًا. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ لا تعزل المؤمن عن العالم؛ تمنحه وجهًا يدخل به العالم ولا يضيع فيه.

وبعد أن يثبت القلب على ولايته وصبغته، يبقى السؤال عن التعامل: كيف يبر ويقسط إلى من لا يحاربه من غير أن تتحول الرحمة إلى ذوبان، أو البراءة إلى ظلم؟

## الوحدة السابعة والعشرون: أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ

### الفرق الذي لا يظلم

قال الله تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8-9].

في آيتين متجاورتين فرق القرآن بين غير المحارب الذي يشرع بره والقسط إليه، وبين من قاتل في الدين وأخرج وظاهر على الإخراج، فنُهي عن توليه. هذا السياق يمنع تسوية العلاقات كلها في حكم واحد. ليس مجرد الكفر إذن مبررًا للظلم، كما أن حسن المعاملة لا يمحو فرق العقيدة.

والبر أوسع من العدل المجرد؛ فيه إحسان وصلة ولطف. والقسط أداء للحق من غير بخس. ثم قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. حين يعدل المسلم مع مخالف لا يقدّم تنازلًا عن دينه؛ يطلب محبة الله. وحين يظلمه باسم البراءة يكون قد خان المعنى الذي يزعم الدفاع عنه.

والقلب قد يضيق بحمل المعنيين معًا. يريد حكمًا بسيطًا: إما حب كامل، وإما إسقاط لكل حق. لكن القرآن يربيه على تركيب أصدق: أبغض الكفر، ولا تظلم الإنسان. كن واضحًا في عقيدتك، وأدِّ العهد. لا تشارك في شعيرة باطلة، ولا تمنع دواءً أو نفقةً أو عدلًا.

## أسماء وأمها

قدمت قُتيلة أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وكانت مشركة، في عهد قريش، تحمل هدايا تريد صلة ابنتها. فسألت أسماء النبي ﷺ: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك». رواه البخاري (2620) ومسلم (1003).

لم يقل لها: صلتك ضعف براءة. ولم يجعل إسلامها سبباً لقطع حق الأمومة. في مشهد قصير بنى النبي ﷺ ميزاناً كاملاً: رابطة الإيمان أعلى، لكنها لا تبيح العقوق ولا تجفف الرحمة.

وقد يجد المسلم في قلبه ألماً لأن أقرب الناس لا يشترك معه في أعظم ما يحب. هذا الألم قد يدفعه إلى التنازل كي يحفظ العلاقة، أو إلى القسوة كي يهرب من صراعه الداخلي. السنة تفتح طريقاً ثالثاً: صِلِ الأمَّ، وأحسن، وابقَ على دينك.

## لا طاعة في الشرك، وصحبة بالمعروف

قال الله تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان: 5].

بلغ الضغط غايته: والدان يجاهدان ولدهما على الشرك. ومع ذلك جمع القرآن: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ و﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾. فلا تنازل في أصل الدين، ولا سقوط لحق الصحبة.

هذه ليست موازنة سياسية، بل عبودية شاقة. ربما كان الأسهل أن يرضخ فينتهي الصراع، أو يقطع فيرتاح من الضغط. أما أن يثبت ويبر في الوقت نفسه فيحتاج قلباً يتلقى أمره من الله لا من رد الفعل.

وينسحب المعنى على علاقات كثيرة: قريب يدعوك إلى شعيرة لا تجوز، فتعتذر بوضوح ولا تهينه. زميل يطلب منك فعلاً محرماً، فترفض ثم تؤدي حقه في العمل. جار يخالفك في الدين، فتحفظ جواره ولا تخفي عقيدتك. الثبات لا يحتاج إلى خشونة، واللطف لا يحتاج إلى ذوبان.

## العهد والأمان

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا». رواه البخاري (3166).

هذا الوعيد لا يترك الاختلاف الديني باباً للفوضى في الدماء. من ثبت له عهد أو أمان معتبر حرمت خيانته والاعتداء عليه. والعهد لا يقتصر على ورقة مكتوبة؛ يدخل فيه ما انعقد من عقود ومواثيق معتبرة توجب الوفاء، وتفصيل الصور يرجع فيه إلى أهل العلم والاختصاص.

ولا يجوز أن يستباح مال غير المسلم أو عرضه أو خصوصيته لأنه مخالف. إذا ائتمنك على سر، أو استأجرك على عمل، أو اشترى منك، أو جاورك، فحقه قائم بأمر الله. المؤمن لا يحتاج إلى ظلم المخالف كي يوقن بحقه؛ بل يرى في وفائه برهانًا على أن شريعته لا تجعل الهوى حاكمًا.

وقد يقع الظلم تحت شعار الغيرة: يستهين شخص بكذب على مخالف، أو بأكل ماله، أو بتشويه سمعته، ثم يظن أن اختلاف الدين خفف الجريمة. لكنه حين يقف بين يدي الله لن يسأله المظلوم عن الشعار الذي رفعه، بل عن الحق الذي أخذه.

## التعاون المباح وحدوده

يتعاون الناس في الطب والهندسة والتجارة والإغاثة وحماية الأرواح والمصالح العامة. والتعاون مع غير المسلم على مباح أو بر ليس ولايةً دينية لمجرد وقوعه؛ الحكم يتعلق بحقيقة العمل وغايته وأثره. وقد استعان النبي ﷺ بخبرة من يثق به في شأن دنيوي، وتعامل بيعًا وشراءً، وأقر العقود المشروعة.

لكن اسم «التعاون» لا يطهر كل فعل. إذا صار العمل نصرةً لباطل، أو تمكينًا لعدوان، أو إذابةً لحدود الدين، أو خيانةً للمؤمنين، عاد حكمه إلى حقيقته. كما أن رفض تعاون نافع لمجرد هوية الطرف قد يكون جهلًا يضر المسلمين ولا ينصر عقيدتهم.

المؤمن يسأل سؤالين معًا: هل العمل مشروع؟ وهل يحفظ ولائي وحدود ديني؟ فإذا اجتمعا لم يحتج إلى خوف من تهمة الذوبان، وإذا افترقا لم يخفف الباطل باسم المصلحة.

## صورة من الحياة

يعمل طبيب مسلم مع فريق متعدد الأديان في حملة لإنقاذ أطفال من مرض وبائي. يؤدي عمله بإتقان، ويحترم زملاءه، ويستفيد من خبرتهم. ثم يُدعى إلى طقس ديني ملحق بالمناسبة، ويلمح رئيس الفريق إلى أن الاعتذار قد يُفهم رفضًا للانسجام ويؤثر في موقعه داخل المشروع. يشعر الطبيب بكلفة الموقف: سنوات من العمل، وسمعة مهنية، وفرصة لخدمة المرضى. ومع ذلك يعتذر بلطف، ويشرح أن إيمانه يمنعه من المشاركة التعبدية، ثم يعود إلى عمله بأمانة مضاعفة.

لا يحتاج إلى تصديق طرف يتهمه بالتشدد، ولا إلى تصديق طرف يرى أصل عمله معهم موالاة. إنقاذ النفس بر، والعمل الطبي تعاون مباح، والمشاركة التعبدية شيء آخر. يستطيع أن يبذل للناس من رحمته،

ويبقى سجوده لله وحده. هذا الوضوح المكلف أقرب إلى الدعوة من ذوبان يخفي الدين أو قسوة تنفر من عدله.

### محك البر والقسط

هل أخذت حقًا من مخالف لأنك لا تحبه؟ عامل قصرت في أجره، أو جار أزعجته، أو زميل نسبت إليه ما لم يقل؟ وهل جرّك إحسان شخص إليك إلى مداهنة في دينك أو مشاركة ما لا يجوز؟

اختر حقًا واحدًا فأده، وموضعًا واحدًا يحتاج إلى وضوح فكن واضحًا بلطف. لا تجعل البر جسرًا إلى الذوبان، ولا تجعل البراءة سيفًا على الحقوق. فالذي أمرك أن تعبده وحده هو الذي قال: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

غير أن القسط لا يختبر مع المسالم فقط؛ يبلغ ذروته حين يقف المؤمن أمام خصم يكرهه، أو قريب يحبه وقد وقع في الظلم. هناك تظهر حقيقة الولاية: ألللحق أم للغضب والجماعة؟

## الوحدة الثامنة والعشرون: ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ — انصر أخاك بالحق

### العدل قيام لله

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

لم يقل: اعدلوا لأن خصومكم يستحقون الإعجاب، بل قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾. قد يكون بغضك بحق، لكنك لا تسمح له أن يجلس على كرسي الحكم. ظلم الخصم خيانة لولائك لله، ولو وقع باسم البراءة منه.

وقد تكون قضيتك عادلة ثم تظلم في الطريق إليها: تزيد كلمةً لم يقلها خصمك، أو تخفي حقيقةً تنفعه، أو تقبل عنه خبرًا ضعيفًا كنت ترده لو تعلق بمن تحب. هنا تنتصر لنفسك باسم الحق، وتهدم من الحق ما لا يوافق غضبك.

وربطت الآية العدل بالتقوى؛ لأن التقوى تظهر حين يصفق لك من حولك لو تجاوزت. أن تخاف اللهَ الخبيرَ بما حذفت وما أضفت، وما حملك عليه الشنآن، هو أثقل من أن تبدو عادلًا أمام الناس.

## ولو على أنفسكم والأقربين

وقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

تسحب الآية الأعذار واحدًا واحدًا: النفس، والوالدان، والأقربون، والغني، والفقير. قد تميل للغني خوفًا أو رجاءً، وقد تميل للفقير شفقةً فتمنحه ما ليس له. ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ هو أعلم بحقهم، ولا يحتاج العدل أن تغير كفته لأن صورة أحد الطرفين حركت عاطفتك.

ثم ذكرت الآية طريقتين للهروب: ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾، فتلوون العبارة أو الشهادة؛ و﴿تُعْرِضُواْ﴾، فتسكتون عن حقيقة حاسمة. وقد يكون الظلم اليوم في عنوان مبتور، أو مقطع ناقص، أو ترجمة منحازة، أو صمت متعمد. لا يحتاج الكذب دائمًا إلى اختراع؛ يكفي أحيانًا ترتيب الحقائق بما يصنع باطلًا.

والقيام لله هو الجسر بين العدل مع الخصم ونصرة الأخ. إذا كان الله هو المقصود، لم يمنعك بغض خصمك من حقه، ولم تمنعك محبة أخيك من ردّه عن ظلمه. في الحالتين أنت لا تنتقل من معسكر إلى معسكر؛ أنت تثبت في موضع واحد تحت أمر الله.

## انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا

قال أنس بن مالك رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره». رواه البخاري (6952).

أبقى النبي ﷺ كلمة النصرة، لكنه هدم معناها الجاهلي. نصرة الظالم ليست الوقوف معه على باطله؛ هي إنقاذه من أن يحمل مظلمة إلى يوم القيامة. قد يغضب منك اليوم لأنك منعته، ثم يعرف يوم تنكشف الأعمال أنك كنت أوفى له ممن صفقوا.

وهذا الحديث يرد على عصبية الجماعات والأسر والمؤسسات. قد تقول الدائرة: خطؤنا يعالج في الداخل، ثم لا تعالجه. أو تسمي كشف الضرر خيانة، وتسمّي الصمت حكمة. النصرة لا تجعل محبتك وسادةً ينام عليها الباطل؛ تجعلها يدًا تمنع من تحب أن يسقط أكثر.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه». رواه البخاري (2442) ومسلم (2580).

لا يظلمه، ولا يتركه لمن يظلمه. وبين الفعلين يكتمل الولاء: لا تعتدي عليه، ولا تخذله. وقد يكون تسليمه أن تصمت عن حقه خوفًا، وقد يكون ظلمه أن تنصره في باطل. الأخوة لا تختار واحدًا من الطرفين.

## مشهد المخزومية

سرقت امرأة من بني مخزوم، فاهتم قومها بأمرها، وأرادوا من يشفع عند رسول الله ﷺ، فكلموا أسامة بن زيد رضي الله عنهما. فقال النبي ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟»، ثم خطب فقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». رواه البخاري (3475) ومسلم (1688/ 9).

القوم لم ينكروا السرقة، لكن القرابة والمكانة حاولتا تغيير الحكم. وهكذا تعمل العصبية غالبًا: لا تقول إن الباطل حق، بل تقول إن صاحبه «له وضع خاص»، أو إن الوقت غير مناسب، أو إن خصومنا سيستغلون الأمر. ثم يصير الاستثناء منهجًا، ويأكل الضعيف وحده كلفة النظام.

والنبي ﷺ لم يجعل الشفاعة رحمةً، لأنها هنا كانت بابًا لهدم العدل. وقد يكون الرفق في موضعه عبادةً، لكن الرفق الذي يحمي صاحب النفوذ ويترك الضعيف ليس رحمة، بل ولاء للجاه.

## حين يتغير معيار الإثبات

يرى شخص مقطعًا يتهم خصمًا يكرهه بخيانة، فيرسله فورًا لأن الاتهام يوافق ما في نفسه. ثم يصله تصحيح موثق، فيتثاقل عن نشره، ويقول: «يستحق الفضيحة على أي حال». وبعد أيام تنتشر إشاعة عن شخصية يحبها، فيتحول إلى ناقد دقيق: من الراوي؟ ما السياق؟ أين الوثيقة؟

لم يتغير منهج الإثبات؛ انكشف أنه لم يكن منهجًا، بل جنديًا للحب والبغض. والعدل يبدأ حين تستخدم المعيار نفسه على الفريقين. لا يعني ذلك تسوية الصادق بالكاذب، بل منع العاطفة من تغيير شروط الحقيقة.

وقد يكون من العدل أن تقول: هذا الخبر لم يثبت، مع بقائك على نقد أخطاء أخرى ثابتة. رفض الكذب على الخصم لا يمنحه تزكيةً عامة؛ يمنحك أنت قلبًا لا يعبد غضبه.

## الأسرة والجماعة حين يحضر الظلم

يدير ثلاثة إخوة شركة عائلية. يكتشف أحدهم أن أخاه الأكبر يأخذ من مال الشركة بغير حق. يخاف أن يواجهه؛ فالأخ هو عمود الأسرة، وكشف الأمر قد يجرح الوالدين. يقترح بعضهم تغطية النقص ثم الصمت «حفظًا للبيت».

لكن حفظ البيت بالظلم تأجيل لانهياره، ونصرة الأخ ليست حماية صورته من الحق. يجلس معه منفردًا، يبين الأرقام، يطلب رد المال، ويمنحه طريق توبة لا يفضحه. فإن أصر، اتخذ من الوسائل المشروعة ما يحفظ حقوق الشركاء. لم يخنه حين منعه؛ كان أقرب الناس إلى نصرته.

وهنا تظهر حرارة الولاء الحقيقية. من السهل أن تهتف لأخيك أمام خصم بعيد، والأصعب أن تقف بينه وبين هواه. من نعم الله على العبد أخ لا يتركه لنفسه، ولا يشتري رضاه بسكوته عن هلاكه.

## الظلم ظلمات

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما إن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة». رواه مسلم (2578).

قد يصفق الناس لظلمك ساعة، ثم تقف وحدك أمام الخبير بما حذفت وما أضفت. وقد تخسر مكانةً لأنك عدلت، لكنك تنجو من ظلمة لا يبددها جمهور. حين يستحضر القلب الآخرة يخف سلطان الجماعة؛ فكل جماعة ستتفرق، ويبقى الحق شاهدًا.

والعدل مع الخصم، ومنع القريب من الظلم، ليسا زينة أخلاقية على هامش الولاء. هما برهان أن ولاءك لله أعلى من غضبك وقرابتك. إذا سقط العدل عند الخصومة صارت البراءة اسمًا للهوى، وإذا سقط الحق عند المحبة صارت النصرة اسمًا للعصبية.

## محك النصرة العادلة

اختر موقفًا واحدًا مال فيه ميزانك بسبب الحب أو البغض. خبرًا نقلته، أو خطأً غطيته، أو حقًا أخّرته. ما المعيار الذي كنت ستستعمله لو تبدلت الأسماء؟ ثم صحح ما تستطيع: انشر التصحيح، أو رد الحق، أو واجه قريبًا بصدق ورحمة.

ولا تجعل أول سؤالك: مع من أقف؟ اسأل قبل ذلك: أين أمر الله؟ فقد تقف مع أخيك بمنعه، ومع خصمك بإعطائه حقه، وتبقى في الحالتين وليًا لله. تلك هي الولاية التي لا تذوب ولا تظلم: قلب عزته بالله، ومحبته تحت حكمه، وقدوته رسول الله، وعدله لا يسقط حين ترتفع الكلفة.

## حين ترتفع الكلفة

لن يُختبر ولاؤك غالبًا وأنت تشرح تعريفه، بل حين تصل رسالة لا يحق لك أن تكشفها، وتعدك جهة قوية بالقرب إن سكتَّ عن حق مؤمن؛ وحين يطلب منك محبوب أن تخفف حكمًا ثابتًا؛ وحين يقف خصم له حق، أو يقف أخوك وقد ظلم.

هناك يظهر ما في القلب: أتبقى العزة لله، والنصرة للحق، والأخوة الإيمانية فوق رابطة المصلحة والقبول؟ لا يقتضي ذلك قتل القرابة أو المحبة الطبيعية، ولا ترك البر والقسط؛ إنما يمنع أن تصبح هذه الحقوق جسرًا إلى الرضا بالكفر، أو خيانة المؤمن، أو الاستحياء من الدين.

تذكر أن الله هو الذي تولاك وأخرجك من الظلمات إلى النور. فلا تبع دينك لتُرى، ولا تخن مؤمنًا لتأمن، ولا تظلم مخالفًا لتثبت براءتك، ولا تترك أخاك لهواه باسم النصرة. البراءة التي تظلم ليست عبودية، والنصرة التي تعين على الباطل ليست ولاية.

قد تخسر قبولًا أو منفعةً أو راحة علاقة، لكن من عرف أن الله وليه هان عليه أن يسقط من عين بشرية ولا يفقد وجهته.

وعند ارتفاع الكلفة يظهر السؤال الأخير الذي يجمع الكتاب كله: من يملك الكلمة الأخيرة؟

# المحور السابع: من يملك الكلمة الأخيرة؟

يعرف الإنسان ربه، ويحب رسوله ﷺ، ويقر بأن الوحي مرجعه، ثم يبقى سؤال لا يجيب عنه الكلام حتى تأتي الكلفة: من يملك الكلمة الأخيرة حين يتعارض ما علمه مع ما يريده؟

في أوقات السعة تبدو الوجهة واحدة. يقول القلب: لله عبادتي، ولرسوله أتبع، وإلى حكمه أرجع. ثم يدخل الامتحان من باب قريب: محبة لا يريد أن يخسرها، أو مال يخشى فواته، أو جماعة يطلب قبولها، أو صورة لا يريد أن تتصدع. عندئذ ينكشف هل نُزع عن هذه الأشياء حق الاعتراض، أم بقي لها في القلب باب خفي.

ويجيء الشيطان إلى هذا الباب بما يلائمه: يخوّفك بالفقد، ويزين التأجيل، ويسمي الهوى اجتهادًا، ويقنعك أن ضعفك قدر لا يتغير. لكنه لا يملك أن يجبرك؛ يدعو، وتبقى مسؤولية الجواب عليك، ويبقى باب الاستعاذة والتوبة مفتوحًا.

لهذا لا يختم الكتاب بتعريف جديد، بل بلحظة قرار. ما سبق من العبادة والمحبة والاتباع والتحاكم والميزان والولاية يجتمع هنا: أن يسقط حق المساومة بعد ثبوت أمر الله، وأن يسلم العبد وجهه له، ثم يعود إذا زل من غير أن يبرر زلته أو يغير اسمها.

والكلمة الأخيرة لله لا تعني قلبًا بلا خوف، ولا عقلًا بلا نظر، ولا حياةً بلا استشارة. قد يتردد المؤمن قبل أن يتبين، وقد يتألم بعد أن يتبين، وقد يضعف فيقصر. الفارق أن الوحي يبقى الحكم، وأن الضعف يدفعه إلى التوبة لا إلى محاكمة الحكم. فهل يثبت هذا العهد حين ترتفع الكلفة؟

## الوحدة التاسعة والعشرون: إذا قضى الله ورسوله أمرًا

يمكن للإنسان أن يبقى طويلًا في مساحة البحث، يقارن، ويسأل، ويستشير، ويطلب مزيدًا من البيان. وهذه المساحة مشروعة قبل أن يتضح حكم الله، بل قد تكون واجبة إذا جهل أو اشتبه عليه الأمر. لكن لحظةً تأتي ينتهي فيها سؤال: ماذا أفضّل؟ ويبدأ سؤال آخر: هل أُسلم؟

### حين تنتهي مساحة المساومة

قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

لم تقل الآية إن المؤمن لا يملك إرادةً ولا اختيارًا؛ بل خاطبت مؤمنًا ومؤمنة يملكان القدرة على الطاعة والمعصية، ثم نزعت عنهما حق اختيار ما يناقض قضاء الله ورسوله. الإرادة باقية، والمسؤولية باقية، لكن الإيمان نفسه يمنع أن يجلس اختيار النفس في مرتبة موازية لاختيار الله.

وفي قوله: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ يظهر موضع التحول. قبل القضاء الواضح قد يبحث المؤمن عن الحكم، ويستفتي، ويوازن بين المصالح المعتبرة، ويجتهد فيما يسوغ فيه الاجتهاد. أما بعد ثبوت النص ووضوح دلالته في حقه، فليست كل إعادةٍ للسؤال طلبًا للعلم؛ قد تكون محاولةً لفتح باب أغلقه البيان.

هنا تبدأ حيلة دقيقة: لا يقول القلب «لن أطيع»، بل يقول «لم أقتنع بعد»، مع أنه لم يعد يبحث عن دليل، وإنما يبحث عن مخرج. يكرر السؤال على أشخاص مختلفين، ويبدل طريقة عرضه، ويحذف من الواقعة ما يضيق عليه الجواب، حتى يسمع ما يسمح له بما يريد. وقد يكون ظاهر الحركة علميًا، بينما باطنُها تفاوضُ مع الحكم.

ثم ختمت الآية بقول شديد: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾. لا يصير الهوى هدىً لأن صاحبه أطال شرحه، ولا تخرج المعصية من اسمها لأن النفس زينتها بعبارات الضرورة والمصلحة والواقعية. قد تكون الضرورة معتبرة حقًا، وقد تتغير الفتوى بتغير وصف المسألة؛ لكن الذي يقرر ذلك هو الشرع بعلمه وضوابطه، لا الرغبة التي تكتب لنفسها الاستثناء.

التسليم لا يلغي السؤال الصادق. الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي ﷺ، وراجعوه في الرأي الذي لم يكن وحيًا، واستوضحوا ما أشكل عليهم. والفقه كله قائم على فهم النص، والجمع بين أدلته، ومعرفة مناطه وحال المكلف. لذلك لا يجوز أن يتحول معنى التسليم إلى إسكات للعلم أو منع للاجتهاد المعتبر.

لكن الاجتهاد شيء، واستدامة التردد بعد البيان شيء آخر. الاجتهاد يريد أن يعرف مراد الله، أما الهوى فيريد أن يجد صيغةً تنتهي إلى مراد النفس. الأول يتغير إذا ظهر له الدليل، والثاني يغير طريقة السؤال حتى لا يضطر إلى التغير.

وقد تكون المسألة اجتهادية حقًا، تتسع فيها أقوال أهل العلم المعتبرة، فلا ينكر فيها إنكار القطعيات، ولا يُتهم من أخذ بقول معتبر لمجرد مخالفته لاختيار غيره. وقد تكون المسألة واضحةً في أصلها، لكن تنزيلها على الواقعة يحتاج علمًا. هنا لا يكفي أن يقول المرء: «النص واضح»، حتى يثبت أن وصف النص منطبق. فالتسليم لله يشمل التسليم لطريق العلم الذي أمر به، لا التسرع في نسبة كل اختيار شخصي إلى حكمه.

والفرق الحاكم أن المؤمن لا يمنح نفسه سلطة تحويل القطعي إلى ظني لأنه ثقيل، ولا تحويل المختلف فيه إلى قطعي لأنه يوافقه. هو يطلب الحق قبل أن يطلب الراحة، فإذا بان له الحق عرف أن حرية العبد ليست في منازعة ربه، بل في التحرر من كل ما ينازعه في قلبه.

## ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: الجواب الذي يصنع الفلاح

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

لم تجعل الآية الإيمان كلمة تقال قبل ورود الحكم، بل جوابًا يظهر عند الدعوة إلى حكم الله ورسوله. يتحدث الإنسان أحيانًا طويلًا عن تعظيم الوحي، ثم يُعرف موضع الوحي في قلبه حين يأتي الحكم على مصلحة له، أو خصومة، أو عادة محبوبة. هناك يصبح ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وصفًا عمليًا، لا شعارًا محفوظًا.

والسمع هنا أوسع من وصول الصوت. هو سمع قبولٍ واستجابة؛ لأن أناسًا يسمعون النص بآذانهم ثم يجعلونه موضوعًا للنقاش الذي لا ينتهي. أما المؤمن فيجمع بين فهم ما خوطب به، وبين الاستعداد لأن يتحرك. لا يطلب من النص أن يوافقه أولًا كي يطيعه، بل يطلب من قلبه أن يستقيم تحت النص.

ثم ربط الله هذا الجواب بالفلاح. والنفس قد ترى الفلاح في الاحتفاظ بكل شيء: حكم الله ورضا الناس، الطاعة والمكسب، الحق وصورة الذات القديمة. فإذا تعذر الجمع خافت أن تكون الطاعة خسارة. لكن القرآن يعيد تعريف النجاح: قد تفقد شيئًا تحبه وأنت من المفلحين، وقد تحافظ على كل ما أردت ثم تخسر نفسك.

وقال سبحانه في آخر سورة البقرة:

﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

جمعوا الطاعة والاستغفار. لم يقولوا: سمعنا وأطعنا لأننا نضمن ألا نضعف، بل قالوا بعدها: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾. المؤمن صادق في التسليم، ومع ذلك يعرف تقصيره، فيستغفر وهو يطيع، ويعود إذا زل. هذه العبودية تمنع أمرين: كبر من يتخيل أنه أدى حق الله كاملًا، ويأس من يظن أن سقوطًا واحدًا أخرجه من الطريق.

## ثلاث عتبات للتسليم

قال الله تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

ترسم الآية طريقًا من ثلاث عتبات. أولها: أن يُحكِّم الرسول ﷺ، فلا يذهب المتخاصمون إلى حكم آخر لأن نتيجته أقرب إلى هواهم. وثانيها: ألا يبقى في النفس حرج معترض على قضائه. وثالثها: أن يقع التسليم كاملًا في الظاهر والباطن.

ويقطع الإنسان أحيانًا العتبة الأولى ولا يقطع الثانية؛ يمتثل في الظاهر، لكن قلبه يقول: لو كان الأمر إليّ لكان الحكم أحسن. وقد يسكت عن الاعتراض حياءً من الناس، بينما يحمل في داخله اتهامًا للنص بالقسوة أو البعد عن الواقع. ليس كل ثقل في النفس اعتراضًا؛ فقد تشق الطاعة على الطبع مع إقرار القلب بعدل الله وحكمته. الحرج المذموم هو الضيق الناشئ من رد الحكم أو اتهامه، لا الألم الطبيعي عند مفارقة محبوب.

والتسليم لا يعني أن تنقلب كل مشاعر الإنسان في اللحظة نفسها. يطيع وهو يبكي، ويترك وهو يحن، ويرد الحق وهو يتألم. لكنه لا يجعل ألمه قاضيًا على أمر الله. يعرف أن النفس تحتاج زمنًا لتتربى، فيبدأ بالامتثال، ويسأل الله أن يشرح صدره، ويمنع لسانه من تحويل الألم إلى اعتراض.

وهنا يظهر الفرق بين قلبين: قلب يقول «أطعته، لكن الحكم لا يناسب زماننا»، وقلب يقول «أطعته، وما زالت نفسي تجد مشقة، فأسأل الله أن يرزقني الرضا». الأول أبقى نفسه فوق الحكم، والثاني وضع نفسه تحت التربية.

## حين تجتمع المحبوبات في كفة واحدة

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

لم تنكر الآية محبة الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة، ولا طلب المال وازدهار التجارة وراحة المسكن. سمّت هذه المحبوبات واحدةً واحدة؛ لأنها تعرف مداخل القلب القريبة. ثم نقلت السؤال من وجود المحبة إلى ترتيبها: أيبقى الله ورسوله وما أوجبه أعلى حين لا يمكن الاحتفاظ بكل شيء؟

قلّما يقول القلب صراحةً: سأقدم أهلي أو مالي على أمر الله. يقول: لا أريد أن أخسر الأسرة، ولا أن تكسد التجارة، ولا أن يهتز البيت، ولا أن أبدو قاسيًا أو غريبًا. فتجتمع المحبوبات في كفة واحدة، ويبدو الحكم الشرعي كأنه الشيء الوحيد الذي يمكن تأجيله. عندئذ تكشف الآية أن التأجيل قد يكون حكمًا صامتًا بما هو أحب.

ولا يطالب القرآن الإنسان أن يمحو عاطفته أو يزهد في كل رزق ومسكن. يطالبه ألا تتحول النعمة إلى مرجع ينازع المنعم. يحب أهله ويحفظهم، ويكسب وينمي ماله، ويسكن ما يرضاه؛ فإذا تعارض محبوب مع واجبٍ بيّن، بقيت المحبة تحت العبودية، ولم تتحول إلى حق في تعطيل أمر الله.

وما يأتي من مشاهد ليس أمثلةً متجاورة؛ بل تفصيل لهذا الميزان. في يوسف ضغط الشهوة والأمن، وفي أصحاب الكهف ضغط القوم والمسكن، وفي مؤمن آل فرعون ضغط المكانة والخوف، وفي الميراث ضغط الأسرة والمال. تختلف الأبواب، ويبقى السؤال واحدًا: أي محبوب يملك القرار عند التعارض؟

ومن أقرب هذه المحبوبات إنسان له سلطة في القلب أو الواقع: والد، أو زوج، أو قائد، أو عالم، أو جماعة. هنا يحتاج التسليم إلى فرق آخر؛ فطاعة البشر حق في موضعها، لكنها لا تصبح عبادةً تمنحهم ما لا يملكون.

## الطاعة ليست عبادة للبشر

قد يُساء استعمال التسليم، فيطالب إنسان غيره بطاعته لأنه أب أو زوج أو رئيس أو عالم أو أمير، ولو أمره بما يخالف الله. فجاءت السنة لترد كل طاعة بشرية إلى مرجعها الأعلى.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث جيشًا وأمّر عليهم رجلًا، فأوقد نارًا وقال: ادخلوها. فأراد قوم أن يدخلوها، وقال آخرون: إنما فررنا منها. فلما ذُكر ذلك للنبي ﷺ قال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة»، وقال للآخرين: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف». رواه البخاري (7257) ومسلم (1840).

المشهد شديد الدلالة: صدر الأمر من قائد مأمور بطاعته، وفي ظرف عسكري يقوم على الانضباط، ومع ذلك لم تتحول طاعته إلى باب يخرج عن حكم الله. الذين توقفوا لم يهدموا أصل الطاعة؛ ردوا الأمر الجزئي إلى الأصل الذي تستمد منه الطاعة مشروعيتها.

وهذا يحرر المؤمن من طرفين: من تمرد يجعل كل تكليف بشري قيدًا على حريته، ومن خضوع يرفع البشر إلى مقام لا يملكونه. يطيع والديه في المعروف، ويحفظ حق زوجه ورئيسه وعالمه، ويلتزم بالنظام المشروع والعقد الصحيح، لكنه لا يجعل رضا أحد طريقًا إلى سخط الله.

والخطر النفسي أن الإنسان قد يعرف الحكم، ثم يعفي نفسه لأن الآمر محبوب أو مهيب. يقول: «أنا منفذ فقط»، أو «لا أستطيع مخالفته»، أو «المسؤولية عليه». لكن التكليف لا يسقط لمجرد انتقال الأمر عبر سلطة بشرية؛ فالله سيحاسب الآمر والمأمور، وكل طاعة مردودة إلى حكمه.

وفي المقابل لا يجوز أن تُستعمل قاعدة «لا طاعة في معصية» لهدم المعروف، أو لرفض كل توجيه لا يعجب النفس. المعصية تُعرف بدليل، لا بانقباض المزاج. وقد يلبس الكسل ثوب الورع، فيسمي ما يشق عليه معصيةً كي يتحرر من الالتزام. العبودية الصادقة لا تتخذ النصوص سلاحًا على السلطة حين تخالف الهوى، ثم تنساها حين تكون السلطة في يدها.

## لا تكن إمعة

بعد أن ثبت الأصل بالقرآن والسنة الصحيحة، تأتي كلمة نبوية تكشف صورة الجماعة حين تحاول أن تملك القرار. قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال:

> «لا تكونوا إمعةً، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا». رواه الترمذي (2007)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الإمعة لا يختار الشر ابتداءً دائمًا، لكنه يؤجل مسؤوليته حتى يرى اتجاه الجماعة. إذا مدحوا مدح، وإذا سخطوا سخط، وإذا تجاوزوا وجد في كثرتهم عذرًا. لا يسأل: ما الحق؟ بل يسأل: ماذا سيفعل الناس، وكيف أبقى واحدًا منهم؟

وتتخفى الإمعة في صورة تواضع: «أنا لست أعلم من هؤلاء»، أو في صورة واقعية: «لا أستطيع تغيير شيء»، أو في صورة وفاء: «لن أخالف جماعتي». والتواضع الحقيقي يرجع إلى الدليل وأهل العلم، لا إلى العدد. والواقعية تقدر القدرة والعجز، لكنها لا تغير اسم الظلم. والوفاء لا يطلب منك أن تحمل مع من تحب وزرًا تعلم أنه باطل.

وقوله ﷺ: «وطنوا أنفسكم» يدل على أن الاستقلال الأخلاقي لا يُولد في لحظة الضغط إن لم يُرَبَّ قبلها. من لم يدرب نفسه على كلمة صغيرة يخالف بها هوى مجلسه قد يعجز عن موقف كبير. ومن اعتاد أن يضحك على ما يكره الله لأن الجميع يضحك، أو يشارك في تشويه إنسان لأن المجموعة غاضبة، يبني في داخله طريق الطاعة للجماعة خطوةً خطوة.

لكن الاستقلال ليس عنادًا، ولا افتعالًا للمخالفة، ولا شعورًا بالتفوق على الناس. يكون الحق أحيانًا مع الجماعة فتتبعها، وقد يكون رأيك هو الخطأ فتتركه. الشجاعة الأخلاقية ليست أن تقول «لا» دائمًا، بل أن تكون «نعم» و«لا» عندك تحت حكم الله، لا تحت لذة التميز أو الخوف من العزلة.

لكن الاستقلال عن ضغط الجماعة لا يعني الاستغناء عن النصيحة. قال تميم الداري رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم». رواه مسلم (55). النصيحة الصادقة لا تنازع الله الكلمة الأخيرة؛ تعيدك إليه، وتكشف لك ما عميت عنه، وتمنعك من تسمية العناد ثباتًا.

والفرق بين النصيحة والضغط أن النصيحة تقدم لك الدليل وتريد نجاتك، أما الضغط فيطلب منك نتيجةً محددة ولو خالفت الحق. المؤمن يسمع لأهل العلم والخبرة، ويراجع نفسه، ويشكر من دلّه على خطئه؛ لكنه لا يجعل كثرة الأصوات دليلًا مستقلًا، ولا يجعل وحدته برهانًا على صوابه.

وقد رأى الكتاب من قبل السحرة حين انقلبوا من أدوات في يد فرعون إلى مؤمنين لا يملك تهديده قرارهم. وعند لحظة الوعيد قالوا له: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: 72].

لم ينكروا قدرة فرعون على أن يقضي في أجسادهم؛ أنكروا أن تكون قدرته هي الحكم الأخير. حين ظهر لهم الحق صار الذي فطرهم أعلى من الذي يهددهم، وصارت الحياة الدنيا كلها أصغر من أن تُشترى بها البينة. وهذه العودة إلى المشهد ليست لتكرار قصة الإيمان، بل لرؤية جواب السؤال الختامي: قد يملك المتسلط أن يحمّلك ثمن القرار، لكنه لا يملك القرار نفسه إذا استقر القلب لله.

## يوسف عليه السلام: كلمة واحدة أمام الشهوة والسلطة

لم يكن امتحان يوسف عليه السلام فكرةً يراجعها في مجلس آمن. كان شابًا غريبًا مملوكًا، في بيت امرأة ذات سلطان، وقد أغلقت الأبواب وهيأت الأسباب. اجتمعت الشهوة والخلوة والسلطة والحاجة، وكان باب الاعتذار النفسي مفتوحًا: هو مظلوم، بعيد عن أهله، والرافض قد يدفع ثمنًا ثقيلًا.

لكن القرآن يضع في قلب المشهد كلمةً واحدة:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: 23].

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ليست شرحًا طويلًا، بل انتقال فوري إلى الملجأ الأعلى. قبل أن يناقش العرض استحضر الله. النفس حين تطيل النظر في الفتنة تفتح لها مساحات التفاوض؛ أما يوسف فردّ الأمر من أول لحظة إلى الله عز وجل مستعيذًا به.

ثم لم تنته الكلفة عند الرفض. تحولت المرأة من الإغراء إلى التهديد، وصار السجن ثمن العفة. فقال:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].

لم يقل: أنا أقوى من الفتنة. أعلن اختياره، ثم أعلن افتقاره. السجن أحب من المعصية، لكنه يعلم أن قلبه لا يثبت بنفسه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾. هذه هي الشجاعة المؤمنة: قرار واضح لا يتكئ على الإعجاب بالنفس، واستعانة لا تتحول إلى عذر عن القرار.

ويريد الإنسان أحيانًا طاعةً بلا ثمن؛ فإذا ظهر الثمن أعاد النظر في الحكم. يوسف لم يحب السجن لذاته، ولم يطلب الألم، لكنه حين لم يبق إلا طريقان عرف أيهما أخف في ميزان الآخرة. الكلفة لا تجعل الحرام حلالًا، وإن كانت الضرورة الشرعية بابًا آخر له ضوابطه التي يقررها الشرع نفسه.

## أصحاب الكهف: حين تصبح البيئة كلها صوتًا واحدًا

قال الله عن الفتية:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 13-14].

كانوا فتيةً في بيئة لا تمنحهم سندًا ظاهرًا. ولم يذكر القرآن أنهم امتلكوا قوةً تغير المجتمع كله، لكنه أخبر أنه ربط على قلوبهم إذ قاموا، وزادهم هدى بعد إيمانهم. وفي هذا باب رجاء للعبد: حين يقوم للحق بما علم وقدر، يرجو من ربط الله ما لم يجده قبل الحركة. وليس المعنى أن مجرد الحركة يضمن التثبيت؛ فهو يتحرك بالله، ويستمد منه، ولا يتكئ على جرأته.

ثم قالوا:

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: 16].

لم تكن المفارقة بطولةً رومانسية. تركوا العمران إلى كهف؛ لأن بقاء الوجهة لله صار أغلى من راحة المكان. لكن الآية لم تتركهم في صورة الحرمان: نشر لهم ربهم من رحمته وهيأ لهم مرفقًا. حين يغلق العبد بابًا يخشى أن تضيع حياته بعده، قد يفتح الله له في موضع ضيق سعةً لم يتخيلها.

ولا تعني القصة أن كل مخالفة للبيئة تستدعي العزلة المادية؛ فللمفارقة أحكام تتصل بالقدرة والمصلحة. لكن معناها الحاكم أن المؤمن لا يمنح البيئة حق إعادة صناعة عقيدته. قد يبقى بين الناس داعيًا وصابرًا، وقد يهاجر من فتنة لا يستطيع دفعها، لكن قلبه لا يوقع للباطل عقدًا لأنه محاط به.

## مؤمن آل فرعون: لا تجعل الخوف يكتب شهادتك

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 28].

بدأ الرجل كاتمًا إيمانه، ثم جاءت لحظة لم يعد فيها الصمت مجرد حماية للنفس؛ صار الصمت تركًا للحق في موضع القتل. فتحرك بما قدر عليه، وخاطب قومه من داخل ما يفهمون، وذكّرهم بالعاقبة، وجادلهم بالحجة. لم يكن تهوره هو الذي تكلم، بل إيمانه حين صار للكتمان حد.

ويطيل الإنسان أحيانًا مرحلة الكتمان بعد زوال عذرها، لأن النفس تتعلق بالأمان الذي صنعته. يقول: «لم يحن الوقت»، ثم يصبح انتظار الوقت طريقةً لئلا يأتي أبدًا. وفي الجهة الأخرى قد يتكلم المرء حيث لا علم ولا قدرة ولا مصلحة، ويسمي الاندفاع شجاعة. مؤمن آل فرعون لا يمنح كل شخص نسخةً واحدة من الفعل؛ لكنه يكشف السؤال: هل صمتك تقدير شرعي، أم خوفٌ يكتب لنفسه فقهًا؟

وانتهت قصته بقول الله:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 45].

لم يكن فرعون يملك الكلمة الأخيرة، مع أنه كان يملك التهديد والقتل والمشهد كله. الكلمة الأخيرة لله؛ وقد تتأخر في عين الإنسان حتى يظن أن القوة الظاهرة أغلقت القضية، ثم يكشف القرآن أن النجاة والعاقبة والحكم لم تخرج لحظةً عن ملكه.

## حين تطلب الأسرة أن يؤجل الواضح

مات رجل وترك مالًا وعقارًا. اتفق أبناؤه الذكور على إبقاء المال «باسم الأسرة» وعدم تقسيمه، وطلبوا من أخواتهم الصبر حتى لا تتفتت الممتلكات. كانت إحدى الأخوات محتاجة، لكنها تخشى أن تُتهم بأنها تهدم البيت لأجل المال. ويعرف أحد الإخوة أن الأنصبة حق فرضه الله، وأن تأخير التسليم بغير رضا أصحاب الحقوق ظلم.

لا يقول له أحد: أنكر حكم الميراث. يقولون: لا نرفض، لكن الوقت غير مناسب. ثم تمر الشهور، ويصبح التأجيل نظامًا، ويُستعمل الحياء الأسري لحراسة حق مأكول. وكلما طلبت الأخت نصيبها قيل: ألا تثقين بإخوتك؟ فتحولت مطالبتها بما فرض الله إلى اتهام في المحبة.

يقف الأخ أمام خسارة حقيقية: قد يغضب إخوته، وقد يتهمونه بالضعف، وقد تتغير علاقته بالأسرة. لكنه يدرك أن صلة الرحم لا تُحفظ بأكل حق الرحم. يجمع الورثة، يبين أن المال ليس منحةً منهم، ويدعو إلى قسمة عادلة أو اتفاق رضائي صحيح بعد معرفة كل وارث حقه، ثم يبدأ بما يستطيع من تسليم الحقوق.

لم ينتصر على أسرته؛ أنقذها من أن تبني وحدتها على مظلمة. ولم تكن الكلمة الأخيرة للأخ الأكبر، ولا لعرف العائلة، ولا للخوف من غضب الناس. كانت لله الذي سمّى الأنصبة حدودًا، وجعل المال امتحانًا للعبودية لا مادةً لبلاغة المشاعر.

## إذا عرفت ثم أخرت

قد يقرأ القارئ هذه الوحدة وفي حياته قرار يعرفه منذ زمن. وربما شعر بالخجل؛ لأنه لم يضعف مرةً عابرة، بل صنع حول التأجيل حياةً كاملة. هنا يأتي الشيطان من باب آخر: ما دمت لم تطع من البداية، فلا معنى لبدء متأخر.

لكن الله لم يجعل الرجوع وقفًا على من لم يطل بعده. قال سبحانه:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110].

وقال تعالى:

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: 54].

الإنابة رجوع، والإسلام له تسليم. لا يكفي أن يتألم القلب من مخالفته ثم يترك الفعل كما هو. والرجوع الصادق يبدأ من الموضع الذي خرجت فيه الكلمة الأخيرة من حكم الله: حق يرد، وعلاقة محرمة تقطع، وكذب يصحح، وعبادة تستأنف، وقرار يُنفذ.

ولا يستطيع أحيانًا إصلاح كل الآثار في يوم، لكن عليه أن يخرج من حالة المساومة إلى طريق التصحيح. يميز بين عجز حقيقي يحتاج تدرجًا شرعيًا، وبين تدرج اخترعه ليبقى في مكانه. علامة الأول أن كل خطوة تقربه، وعلامة الثاني أن الخطة نفسها لا تملك موعدًا ولا فعلًا.

## محك الكلمة الأخيرة

لا تبحث الآن عن أصعب قضية في العالم. سمِّ قرارًا واحدًا تعرف حكم الله فيه، لكنك ما زلت تفاوض عليه لأن كلفته قريبة: مال، أو علاقة، أو حق، أو عادة، أو كلمة اعتذار. ما الذي تخشى أن تخسره إذا أطعت؟ ومن الذي منحته عمليًا حق الاعتراض الأخير؟

ثم ابدأ بفعل لا يحتمل التأويل: رد جزءًا من الحق، أوقف سبب المعصية، اطلب من عالم موثوق أن يبين لك ما اشتبه، وأغلق باب التنقل بين الأجوبة إذا بان الحكم. لا تجعل حرارة اللحظة ميثاقًا واسعًا ينهار غدًا؛ اجعلها طاعةً محددة تقول بها: سمعت وأطعت.

وتفعل ذلك وقلبك يرتجف. لا تنتظر قلبًا بلا خوف؛ قل كما قال يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾. فالذي يطلب منك التسليم هو الذي يربط على قلبك، ويغفر تقصيرك، ويفتح بعد

الكهف رحمته. وإذا صار له القرار الأخير في موقف، بقي السؤال الأوسع: هل له موقفك وحده، أم له حياتك كلها؟

## الوحدة الثلاثون: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ — وجهة تدوم إلى أن تلقاه

يمكن أن ينتصر أمر الله في موقف، وتبقى الحياة موزعةً بين وجهات كثيرة. يصلي الإنسان لله، لكنه يعيش لعين الناس؛ يرفض معصية ظاهرة، لكنه يُبقي للمال أو الجماعة أو الهوى سلطةً خفية. لذلك لا تُختبر وحدة الوجهة بقرار منفرد فقط، بل بما خُلِع من القلب، وبالطريق الذي يعود إليه كل يوم بعد الطاعة وبعد التقصير.

### العروة الوثقى من طرفيها

قال الله تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

وقال سبحانه في الموضع الذي سبق تفصيله في الوحدة الرابعة: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: 22]. هنا يعود موضع الشاهد: إسلام الوجه مع الإحسان هو الطرف الموجب بعد خلع الطاغوت.

سمّى القرآن النتيجة في الموضعين باسم واحد: الاستمساك بالعروة الوثقى. في الأول كفر بالطاغوت وإيمان بالله، وفي الثاني إسلام الوجه لله مع الإحسان. ليست حركتين منفصلتين؛ الكفر بالطاغوت يخلع الحق الباطل، وإسلام الوجه يرد القصد والعمل إلى الله. ومن أثبت ولم ينفِ أبقى شريكًا ينازع، ومن نفى ولم يتجه بقي بلا عبودية تجمعه.

### ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾: كلمة النهاية

وسبق في الوحدة الرابعة تحليل خاتمة الأنعام بما فيها الصراط المستقيم والدين القيّم وملة إبراهيم والمحيا والممات. ويكفي هنا موضع الشاهد الختامي: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ [الأنعام: 163]. فالوجهة التي تبلغ الشعيرة والحياة والموت لا تقبل شريكًا في حق الله، ولا تُترك قرارًا عابرًا؛ إنها أمرٌ يُحمل حتى اللقاء.

## العودة إلى أول كلمة

في كل ركعة يقول المؤمن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. قدّم المعبود والمستعان: إياك وحدك. فـ«إياك نعبد» تثبت العبادة لله وتنفيها عمن سواه، و«إياك نستعين» تمنع العبد من أن يجعل قدرته أو سببه ربًّا خفيًا للطريق.

ومن قالها ثم جعل حكمًا من أحكام الله قابلًا للقبول والرد بحسب مصلحته، أبقى جزءًا من الكلمة بلا حياة. ومن قالها ثم أعجب بثباته وظن أنه يملك قلبه، نسي الاستعانة. ومن جمعهما عرف أن عليه أن يختار ويجاهد، وأن اختياره وجهاده نفسيهما توفيق يسأله من الله.

لهذا لا تنتهي الرحلة إلى ثقة بالنفس، بل إلى افتقار أوضح. يعرف المؤمن منافذ هواه، ويعرف عدوه، ويعرف أن الخواطر لا تحكمه حتى يستجيب لها. فيستعيذ، ويتذكر، ويصحح قصده، ويقطع السبب، ثم يعود إلى الطريق من غير أن يبني لنفسه صورة المعصوم.

## النية: الوجهة الخفية للعمل

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». رواه البخاري (1) ومسلم (1907).

الفعل في ظاهره واحد: هجرة وترك وانتقال. لكن الوجهة الباطنة تصنع عملين مختلفين. يقف رجلان في الصف نفسه، وينفقان المال نفسه، ويقولان الكلمة نفسها؛ أحدهما لله، والآخر لصورة يريدها أو موقع يطلبه. لا يراها الناس، لكن الله يعلم جهة الحركة.

والنية ليست عبارةً ينطق بها الإنسان كي يطمئن إلى كل ما يفعل. قد يفسد العمل في ذاته فلا تنفعه النية، وقد يبدأ العمل لله ثم يدخل عليه طلب الثناء أو المنافسة أو الانتقام. لهذا يحتاج الإخلاص إلى مراجعة قبل الفعل وفي أثنائه وبعده: لماذا بدأت؟ ولمن أريد أن يتم؟ وما الذي يؤلمني إذا لم يعرف الناس؟

ويبالغ الإنسان أحيانًا في تفتيش نيته حتى يترك العمل، ينتظر إخلاصًا لا يمر به خاطر. هذا أيضًا من مداخل العجز. المطلوب أن يدفع الرياء ويصحح قصده ويعمل، لا أن يجعل حركة القلب المتقلبة مانعًا دائمًا. الإخلاص مجاهدة متكررة، لا شهادة يمنحها الإنسان لنفسه مرة واحدة.

والنية توحد المباحات تحت الوجهة: يطلب العلم ليعبد الله على بصيرة وينفع، ويعمل ليكف نفسه ويؤدي الحقوق، ويرتاح ليستعين على الطاعة، ويخالط أهله رحمةً وأمانة. لا تحتاج الحياة إلى شعارات دينية في كل تفصيل؛ تحتاج قلبًا يعرف لمن يعيش، وشرعًا يضبط كيف يعيش.

## كعب بن مالك: حين كان الكذب أقرب إلى النجاة

تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك من غير عذر. لم يكن مريضًا ولا عاجزًا، بل قال عن نفسه إنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلف. وكان كلما أراد أن يتجهز قال: ألحق بهم، حتى مضى الجيش، ثم صار التأجيل واقعًا لا يستطيع اللحاق بعده.

هكذا تقع بعض المعاصي: لا يبدأها الإنسان بقرار صريح أن يعصي. يؤجل خطوةً، ثم يؤجل أخرى، ويطمئن إلى أن الفرصة لم تفت، حتى يجد نفسه بعد انغلاق الباب أمام فعل لم يكن يتخيل أنه سيقع منه. التأجيل ليس فراغًا؛ قد يكون قرارًا يتكون ببطء.

فلما عاد النبي ﷺ جاء المتخلفون يعتذرون ويحلفون، فقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله. وجاء كعب، وكان قادرًا على صناعة عذر؛ فقد أوتي جدلًا، ويعرف أنه لو جلس أمام غير النبي ﷺ لخرج من سخطه بكلام. لكنه رأى أن النجاة الظاهرة بالكذب ستضعه تحت سخط الله.

قال للنبي ﷺ بما حفظته الرواية من صدقه: «والله ما كان لي من عذر». فقال له النبي ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». رواه البخاري (4418) ومسلم (2769).

لم ينجُ في اللحظة نفسها. الصدق لم يفتح له باب الراحة فورًا، بل أدخله في خمسين ليلةً من الضيق. نُهي المسلمون عن كلامه وكلام صاحبيه، فتغيرت المدينة التي يعرفها. كان يسلم على رسول الله ﷺ ويراقب شفتيه: هل حركهما برد السلام؟ وذهب إلى ابن عمه وأحب الناس إليه، فلم يجبه حين ناشده بالله: هل يعلم أنه يحب الله ورسوله؟

هنا يصير الصدق مكلفًا بعد أن كان الكذب قريبًا من النجاة. وقد يتوب الإنسان ويتوقع أن تعود الأمور سريعًا، فإذا بقيت آثار معصيته ظن أن توبته لم تنفع. لكن بعض التوبة تمر بطريق تأديب يطهر القلب من العادة التي أسقطته، ويعلمه أن الرجوع إلى الله ليس صفقةً لرفع الألم فورًا.

وفي أثناء المقاطعة جاءه كتاب من ملك غسان: بلغنا أن صاحبك قد جفاك، فالحق بنا نواسك. جاء العرض في لحظة الوحدة، جهة قوية تفتح له باب التكريم بعد أن ضاقت به المدينة. قال كعب: هذا أيضًا من البلاء، ثم أحرق الكتاب.

كان يمكن للألم أن يعيد ترتيب ولائه: ما دام قومه هجروا كلامه، فلماذا لا يذهب إلى من يكرمه؟ لكن الجرح لم يحكم قراره. عرف أن تأديب النبوة رحمة، وأن احتواء ملك غسان فتنة. ليس كل من واساك يريد نجاتك، وليس كل من شدد عليك قد أخرجك من رحمته.

ثم أُمر أن يعتزل امرأته، واشتد الضيق حتى وصفه القرآن:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

بلغت التوبة قلبها حين سقطت الملاجئ كلها: ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾. لم يجدوا طريقًا يهربون به من حكمه، فهربوا إليه. وهذه من أعمق حقائق العبودية: الذي تخاف عقوبته هو الذي ترجوه، والذي ابتلاك بآثار ذنبك هو الذي يفتح باب توبتك، ولا نجاة من قضائه إلا برحمته.

ثم جاء البشير، ودخل كعب المسجد، فقام إليه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحه وهنأه. وقال له النبي ﷺ: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». لم يكن خير أيامه يوم اتسعت له الدنيا، بل يوم قبله الله بعد أن ضاقت.

وأراد كعب أن يخرج من ماله كله صدقةً شكرًا، فقال له النبي ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». حتى حرارة التوبة بقيت تحت هدي النبوة؛ لم تتحول إلى اندفاع غير منضبط. ثم قال كعب إن الله نجاه بالصدق، وجعل من توبته ألا يتعمد كذبًا ما بقي.

لم تكن توبته دمعةً عابرة، بل عهدًا في الباب الذي نجا منه. ولهذا أعقب الله القصة بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

كعب أخطأ حين أخر، ونجا حين صدق، وثبتت توبته حين بنى عادة جديدة. وهذه صورة الكتاب كله: لا يطلب منك أن تدعي أنك لم تتناقض، بل أن تعترف بموضع التناقض، ولا تزينه، ثم تجعل رجوعك صادقًا ممتدًا.

قد يقرأ الإنسان قصة كعب فيعجبه صدقه، ثم يهرب من الاعتراف المحدد لأن صورته أمام نفسه لا تحتمل. يقول: قصرت عمومًا، ولا يسمي حقًا ضيعه أو إنسانًا ظلمه أو عبادةً هجرها. ثم يجعل الخجل سببًا

لمزيد من التأخير: كيف أعود بعد سنوات؟ وكيف أتراجع عما دافعت عنه؟ الاعتراف المجمل يحرس الصورة؛ والصدق المحدد يبدأ التوبة.

ومع ذلك لا تتحول التوبة إلى فضح النفس للناس. الأصل أن يستر العبد ما ستره الله، ويصدق مع ربه، ويرد الحقوق إلى أهلها، ويستفتي فيما يلزمه من بيان. قصة كعب كانت أمام النبي ﷺ في واقعة عامة اقتضت السؤال والحكم، وليست دعوةً إلى نشر المعاصي المستورة.

والتوبة لا تمنح الإنسان عصمةً بعدها. يعود الضعف من أبواب أخرى، ولهذا قال الله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾. ابتدأهم بتوفيقه فتابوا؛ فالعبد مأمور بالتوبة ومسؤول عنها، وقلبه مع ذلك لا يستغني عن توفيق الله إليها وقبولها. وإذا كسر صورته لله لم يحتج إلى كذب جديد يحرس كذبًا قديمًا.

## القلب الذي لا تملكه

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك». رواه مسلم (2654).

نثبت ما أثبته النبي ﷺ لربه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف.

ويكشف الحديث أن القلب لا يستقل بهدايته؛ فالذي أمر بالاستقامة علّمنا أن نسأله تصريف قلوبنا على طاعته.

ولا تعني مشيئة الله في القلوب أن العبد مجبور لا مسؤولية له. القرآن يأمر وينهى، ويمدح من استجاب ويذم من أعرض، ويجعل للعبد مشيئةً واقعة تحت مشيئة الله. المؤمن يعمل ويجاهد ويأخذ بأسباب الثبات، ويعلم أن السبب لا يستقل عن ربه.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». رواه الترمذي (2140)، وقال: حديث حسن.

إذا كان النبي ﷺ يكثر سؤال الثبات، فكيف يأمن قلبه من عرف عن نفسه التقلب؟ قد يثبت أمام شهوة ويضعف أمام مدح، أو ينجو من المال ويسقط عند الغضب، أو يتكلم بالحق في العلن ثم يخون وجهته في الخلوة. ولذلك لا تكون نهاية الكتاب إعلان وصول، بل بداية دعاء لا ينقطع.

وقال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

لم يطلبوا الهداية الأولى فقط، خافوا الزيغ بعدها. فالمعرفة السابقة لا تمنع السقوط إذا ترك العبد الافتقار. وأقرب الناس إلى الأمان من لا يأمن مكر قلبه، فيحرس منافذه، ويصحب الصادقين، ويعود إلى الوحي، ويكثر من سؤال الثبات.

ولأنك لا تملك قلبك، لا يكفي أن تعرف الطريق مرةً؛ تحتاج أن تستقيم عليه، ولا تستقيم عليه إلا بعمل يتجدد ودعاء لا ينقطع.

## قل آمنت بالله ثم استقم

قال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: قلت يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، فقال:

«قل آمنت بالله، ثم استقم». رواه مسلم (38).

جمع له الإسلام في كلمتين: أصل يعلن، وطريق يستمر. الإيمان ليس لحظةً منفصلة عن السلوك، والاستقامة ليست أعمالًا بلا أصل. يقول: ربي الله، ثم لا يجعل في الطريق ربًا آخر يملك قراره.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

الاستقامة ليست أن يسير الإنسان بلا عثرة، بل أن يبقى طريقه واحدًا، كلما انحرف عاد. من وقع ثم تاب لم يتخذ طريقًا ثانيًا، أما من جعل الانحراف قاعدةً، ثم أعاد تشكيل الدين حتى يباركه، فقد غيّر الوجهة نفسها.

وتخيف كلمة الاستقامة من ينظر إلى عمر كامل دفعةً واحدة. كيف أضمن أن أثبت؟ لا يطلب منك الشرع ضمان الغد، يطلب صدق اليوم وأسباب الثبات. تصلّي الصلاة الحاضرة، وترد الحق الذي قدرت عليه، وتغلق الباب المفتوح للفتنة، ثم تسأل الله للخطوة التالية.

## وجهة تدوم، لا موجة تنطفئ

قالت عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال:

«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». رواه البخاري (6465) ومسلم (783).

لا يريد الكتاب أن يخرج القارئ بانفعال يحمّله عشرات العهود، ثم ينطفئ بعد أيام. الوجهة الواحدة تُبنى بأعمال قد تبدو صغيرة، لكنها ثابتة: ورد من القرآن يعيد الميزان، صلاة تُحفظ في وقتها، سؤال عن الحكم قبل القرار، محاسبة عند الغضب، رد سريع إلى الحق إذا ظهر الخطأ.

والقليل الدائم لا يعني الرضا بضعف الهمة، بل اختيار ما يمكن تثبيته ثم الزيادة عليه. من جعل برنامجه أكبر من طاقته قد يتركه كله، ومن احتج بالقليل ليبقى مكانه لم يفهم الدوام. السنة تجمع الرفق والجد: اعمل ما تطيق، وداوم، وإذا اتسعت القدرة فازدد.

ومن أعظم العادات بعد هذا الكتاب سؤالًا يتكرر عند مفترق الطريق: من يملك الكلمة الأخيرة هنا؟ لا تسأله في القضايا الكبرى وحدها. اسأله قبل رسالة غاضبة، ومجاملة كاذبة، وشراء مشبوه، وحكم على إنسان، وإعجاب يسرق ميزانك. القرارات الكبيرة تُصنع من عادات الحكم الصغيرة.

لا تحتاج المحاسبة إلى أن تتحول إلى دفتر يرهق الروح. تحتاج صدقًا دوريًا يمر على دوائر الحياة: هل عبادتي لله أم للصورة؟ هل محبتي تحت حكمه؟ هل أتبعت رسوله حين خالف عادتي؟ هل رددت النزاع إلى الوحي أم إلى من يوافقني؟ هل عدلت مع من أكره؟ هل نصرت من أحب بالحق؟

ثم لا يكتفِ القلب بالإجابات العامة. يختار موضعًا ظهرت فيه المنافسة هذا الأسبوع: قرارًا في المال، أو موقفًا من شخص، أو أمرًا عائليًا، أو عادةً في الهاتف، أو كلمةً في مجلس. أين تحرك الهوى؟ وكيف أعيد الحكم لله؟

ولا تتحول المحاسبة إلى مراقبة مرضية لكل خاطر. الخواطر تمر، والمشاعر لا يملك الإنسان بدايتها دائمًا. الحساب على ما استقر واختاره وعمل به. قد يجد في نفسه ميلًا فيرده، فتكون مجاهدته عبادة. الخطر أن يجعل وجود الميل حجةً للاستسلام له، أو يجعل وقوعه دليلًا على أنه منافق لا رجاء فيه.

ومن ثمرات الوجهة الواحدة أن تقل حاجة الإنسان إلى تبرير نفسه. يستطيع أن يقول: أخطأت. لا تهدم الكلمة هويته؛ لأن هويته ليست العصمة، بل العبودية. ويستطيع أن يقبل حقًا من خصمه، ويرد باطلًا من محبوبه، ويتراجع عن رأي نشره، لأن الكلمة الأخيرة ليست لصورته.

تغلق هذه الصفحات ثم يعود كل شيء كما كان: الهاتف نفسه، والوظيفة نفسها، والأسرة نفسها، والمخاوف التي تعرفها. لم تتغير البيئة بمجرد القراءة، لكنك لم تعد تدخلها بلا سؤال. صار لكل دائرة باب يعيدها إلى الله.

تستيقظ غدًا ولا تشعر بحرارة هذه اللحظة. لا تجعل غياب الشعور دليلًا على غياب العهد. العبودية لا تقوم على المزاج وحده. توضأ وصل، وافتح وردك، ونفذ القرار الذي عرفته، ولو كان القلب أقل تأثرًا. قد تأتي الحلاوة بعد الصدق، وقد تبقى الطاعة ثقيلةً زمنًا وهي عند الله عظيمة.

وإذا ضعفت فلا تجعل الذنب يكتب الفصل الأخير. كعب تخلف، لكن التخلف لم يكن آخر قصته. كانت الكلمة الأخيرة لتوبة الله وصدق عبده. لا تسوِّف الرجوع باسم أنك ستعود عودةً كاملة؛ عد بالخطوة التي تقدر عليها، وقل الحق الذي تهرب منه، ثم امش.

## المحيا والممات

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

لا يملك الإنسان ساعة موته، لكنه يملك أن يعيش على طريق الإسلام، ويرجو أن يختم له به. الأمر ألا يموت إلا مسلمًا هو أمر بلزوم الإسلام وأسباب الثبات حتى يأتي الموت. فالخاتمة لا تُطلب في اللحظة الأخيرة وحدها؛ تُبنى بما يداوم عليه القلب.

وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالخواتيم». رواه البخاري (6607).

لا يدفع الحديث إلى القنوط من العمل السابق، بل يمنع الاغترار به. قد يكون للإنسان تاريخ من الطاعة، لكنه لا يستغني عن الثبات. وقد يكون له تاريخ من التقصير، فلا ييأس من خاتمة صادقة. ما دام حيًا فباب الرجوع مفتوح، والخوف والرجاء يسيران معه حتى يلقى الله.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل». رواه مسلم (2877).

حسن الظن ليس أمنًا مع الإصرار، ولا دعوى أن الرحمة تلغي الحساب. هو أن يطيع ويرجع، ثم يرجو ربًا فتح باب التوبة، وكتب الرحمة على نفسه، وفرح بتوبة عبده. يخاف سوء عمله، ولا يسيء الظن بربه.

## القلب الذي يصل

وعند اللقاء تسقط قيمة المال والبنين إلا بقدر ما قاد إلى الله، ويبقى القلب الذي حفظ وجهته: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89]. ومن أول سلامة القلب أن يلقى الله خالصًا من الشرك، لم تتوزع عبادته بين آلهة ظاهرة أو خفية، وقد طهّر طريقه من الغل والظلم بقدر استطاعته وتوبته.

وفي الجهة المقابلة قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]. فالعمل الكثير إذا فقد الإيمان أو الإخلاص لا تنقذه صورته، كما أن الوجهة الصادقة لا تعفي من صحة العمل. هناك تظهر ثمرة الكتاب كاملة: قلب سليم يقصد الله، وعمل صالح يسير على ما شرع، ووجهة بقيت واحدة حتى اللقاء.

# خاتمة الكتاب

## حين تعود إلى يومك

لا تنتهي معركة الوجهة عند آخر صفحة. ستعود إلى اليوم نفسه الذي جئت منه: إلى العمل والبيت والهاتف والمجلس، وإلى أشخاص تحبهم، وأسباب تحتاجها، ومخاوف تعرف كيف تخاطبك. الفرق الذي ترجوه هذه الصفحات ألا تعود إليها بالقلب نفسه؛ أن تصير أقدر على رؤية اللحظة التي يطلب فيها الشيء حقًا أكبر من حقه، وأن تعرف أين تقول «لا»، وإلى من تتجه بعد ذلك.

ولا تُقاس ثمرة الكتاب بحرارةٍ تبقى أيامًا، ولا بعدد العبارات التي تتذكرها. تُقاس حين يأتي التعارض الحقيقي: عندما يكون الصدق مكلفًا، والإنصاف مع خصم، والطاعة مخالفةً للعادات، والرجوع اعترافًا بخطأ قديم. هناك يظهر ما إذا كان التوحيد معنى جميلًا في الذهن، أم عهدًا يملك القرار.

لا تنتظر أن تصلح الدوائر كلها دفعةً واحدة. اختر بابًا انكشف لك، وابدأ منه: عبادةً دخلتها الصورة، أو محبوبًا تجاوز موضعه، أو خوفًا بدّل حكمك، أو مرجعًا لا تسأله إلا لأنه يوافقك، أو خصومةً جعلت هواك ميزانًا. أصلح ما قدرت عليه اليوم، وداوم على سؤال الله الثبات؛ فالوجهة الواحدة لا تُبنى بوثبة عابرة، بل برجوع صادق يتكرر حتى يلقى العبد ربه.

وقد جُمعت أسئلة المحاسبة العملية في الملحق الثاني «محكّ الوجهة»؛ فارجع إليه بعد الفراغ، واختر منه خطوةً واحدة تبدأ بها، بدل أن يبقى أثر القراءة عامًا.

## الكلمة الأخيرة

مرّ السؤال في صور كثيرة: لمن تسجد؟ من يملك قلبك؟ من تتبع؟ إلى من ترد النزاع؟ بأي ميزان تحب وتكره؟ لمن تكون الولاية؟ ثم عاد إلى أصله الأول: لا إله إلا الله. فلا تمنح غير الله حقًا اختص به، ولا تكتفِ بنفي الباطل حتى تسلم وجهك للحق وتعيش له.

ولا يطلب منك التوحيد أن تتجرد من إنسانيتك؛ فأنت تحب أهلك، وتخاف الضرر، وتستشير أهل الخبرة، وتنتمي إلى قومك؛ غير أن هذه الروابط والأسباب كلها تظل في موضعها المشروع، ولا تنقلب أربابًا تنازع الله في حكمه وأمره. فلا محبوبَ يملك أن يُحلّ الحرام، ولا خوفَ يملك أن يبدّل الحكم، ولا عصبيةَ تملك أن تُسقط العدل، ولا عالمَ يملك أن يُطاع في معصية الله

وعرفت أن للطريق عدوًا، يَعِد ويخوّف ويزيّن، ثم يتبرأ ممن أطاعه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]. فلا تغفل عنه، ولا تحمله ذنبك؛ استعذ بالله، وسمِّ ضعفك، واقطع الطريق، ثم ارجع.

لا تقل: اكتملت وجهتي. قل: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك. وإن ضعفت، فلا تغيّر اسم الحق ليوافق ضعفك، ولا تجعل الذنب خاتمة قصتك. امض حنيفًا: مائلًا عن الباطل، مقبلًا على الله، محسنًا في الطريق، تعود إليه كلما شردت؛ فله العبادة، وإليه يرجع الأمر كله.

قال الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123].

## الملحق الأول: فروق تضبط الوجهة

هذه الفروق حواجز مختصرة تمنع تداخل الحقوق والمقامات، وتُرجع كل معنى إلى موضعه من غير استعادة تفصيلات الكتاب.

المحبة التعبدية والمحبة الطبيعية — المحبة التعبدية تقوم على غاية التعظيم والذل والتأله، فلا تكون إلا لله. أما محبة الوالد والولد والزوج والوطن والطعام فطبيعية مشروعة، وتفسد حين تُمنح حق تقديمها على أمر الله أو تبلغ مقام الندية.

الرياء الأكبر والرياء الأصغر وحظ النفس — الرياء الأكبر أن يكون أصل إظهار الإسلام للناس مع خلو الباطن من الإيمان. والرياء الأصغر أن يخالط العمل المشروع طلب ثناء الناس فينقصه أو يحبط ما خالطه. أما حظ النفس المباح، كالسرور بالقبول أو طلب الأجرة، فلا يفسد العمل بمجرده؛ وإنما الخلل حين يملك القصد أو يُقدَّم على رضا الله.

التولي المكفّر والإعانة المحرمة لغرض دنيوي — التولي المكفّر ولاءٌ ونصرة للكفر على وجه يناقض أصل الإيمان. أما إعانة الكافر على مسلم لغرض دنيوي مع بقاء أصل الإيمان وبغض الكفر فهي محرمة وقد تكون كبيرة وخيانة، ولا تُسوّى بالأولى لمجرد صورة الفعل. والحكم على المعيّن في الباب له شروط وموانع، ويرجع فيه إلى العلماء والقضاء الشرعي.

الولاية الدينية والبر والقسط — الولاية الدينية رابطة إيمان ونصرة وانتماء لا تُسوّى بغيرها. والبر والقسط إحسان وعدل مأمور بهما مع غير المحارب، من غير رضا بدينه، ولا نصرة له على المؤمنين، ولا إذابة للفاصل العقدي.

خوف العبادة وخوف السر والخوف الطبيعي — خوف العبادة خضوع وتعظيم يختص بالله، وخوف السر اعتقاد أن مخلوقًا يضر في الغيب استقلالًا أو بما لا يقدر عليه إلا الله. أما الخوف الطبيعي من عدو أو مرض أو خسارة ففطرة، ويأثم صاحبه إذا قاده إلى المعصية، ولا يصير بذلك كل خوف شركًا.

الطاعة المطلقة والطاعة في المعروف — الطاعة المطلقة وحق التحليل والتحريم لله ولرسوله فيما بلّغ عن ربه. أما طاعة الوالد والعالم والأمير والمسؤول فمقيدة بالمعروف؛ تحفظ حقوقهم ولا تبيح معصية الله، كما لا تبيح المخالفةُ ظلمهم أو إسقاط فضلهم.

مرجعية الوحي والخبرة البشرية — الوحي يحكم في الحق والباطل والحلال والحرام والغاية والقيم. والخبرة البشرية تكشف الواقع والوسائل والمآلات، وتقدّر ما يدخل في اختصاصها. تُستفاد الخبرة ولا تُجعل مشرّعة، ويُفهم الوحي بعلم أهله لا بأهواء الأفراد.

التوكل والأسباب — التوكل اعتماد القلب على الله مع فعل السبب المشروع. ترك السبب المشروع الذي أُمر به أو احتيج إليه قد يكون عجزًا أو تفريطًا؛ فالطبيب يعالج ولا يخلق الشفاء، والخطة تُحكم ولا تضمن النتيجة، والعبد يعمل ثم يفوض الأمر لربه.

وسوسة الشيطان ومسؤولية الإنسان — الشيطان يزيّن ويعد ويخوّف ويدعو، ولا يجبر. ذكر عداوته يوجب الاستعاذة وقطع المداخل، ولا يعفي الإنسان من لوم نفسه وتوبته؛ فالوسوسة ابتلاء، والاستجابة اختيار يحاسب عليه العبد.

المعصية والشرك — كل شرك معصية، وليست كل معصية شركًا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]. قد يعصي المسلم شهوةً أو خوفًا مع إقراره بحكم الله، فيكون مذنبًا لا خارجًا من الإسلام. ويبلغ الأمر الشرك حين يُصرف حق من خصائص العبادة لغير الله أو يُنقض أصل الانقياد بحسب الاعتقاد والقصد والفعل.

الكفر بالطاغوت والحكم على المعيّن — الكفر بالطاغوت رفض عبادته وطاعته في منازعة حق الله، والبراءة من باطله. أما الحكم على شخص بعينه بالكفر فباب آخر له شروط وموانع وإقامة حجة وتفصيل، ويرجع فيه إلى العلماء المحققين والقضاء الشرعي، ولا يُستعمل شعار التوحيد ذريعة للفوضى والتكفير.

# الملحق الثاني: محكّ الوجهة

سبع وقفات سريعة؛ سؤال يكشف موضع الخلل، وخطوة تنقل المحاسبة من المعنى إلى العمل.

## المحور الأول: أن يكون الله وحده إلهك

سؤال المحاسبة: ما الحق الذي أعطيته لسبب أو شخص حتى صار ينازع حق الله؟ الخطوة العملية: اختر عبادة أو قرارًا واحدًا، وانزع منه هذا الحق بفعل ظاهر هذا الأسبوع.

## المحور الثاني: من يملك قلبك؟

سؤال المحاسبة: أي محبوب أو خوف أو رجاء يملك قرارك عند التعارض؟ الخطوة العملية: سمِّ موضع التعارض، وقدّم فيه أمر الله بخطوة محددة لا بمجرد نية.

## المحور الثالث: من تتبع وتطيع؟

سؤال المحاسبة: ما السنة أو الحكم الذي تعرفه ثم تؤخره لأن العادة أو الجماعة أثقل؟ الخطوة العملية: تعلم حكمه من مصدر موثوق، وابدأ تطبيقًا يمكن قياسه.

## المحور الرابع: إلى من ترد الأمر؟

سؤال المحاسبة: حين تختلف، هل تطلب حكم الوحي أم تبحث عمن يوافق النتيجة التي تريدها؟ الخطوة العملية: أوقف التنقل بين الأجوبة في مسألة واحدة، وردها إلى دليلها وأهلها.

## المحور الخامس: بأي ميزان تحب وتكره؟

سؤال المحاسبة: هل عدلك مع الشخص يتغير بتغير قربه منك أو خلافه معك؟ الخطوة العملية: اكتب حسنةً لخصمك وخطأً لمحبوبك، ثم عامل كلًا بالحق.

## المحور السادس: لمن تكون الولاية؟

سؤال المحاسبة: أي انتماء يطلب منك نصرة الباطل أو ظلم المخالف أو الذوبان في غير هدي الله؟ الخطوة العملية: صحح موقفًا واحدًا: نصرة بحق، أو برًا بعدل، أو رفضًا لتعصب.

## المحور السابع: من يملك الكلمة الأخيرة؟

سؤال المحاسبة: ما القرار الذي ما زلت تفاوض عليه بعد أن بان حكم الله؟ الخطوة العملية: نفذ أول خطوة لازمة، واستعن بالله، واجعل لك مراجعة أسبوعية ثابتة.

# فهرس الآيات

## الفاتحة

الفاتحة: 5 — 7، 156

## البقرة

البقرة: 120 — 132
البقرة: 138 — 132
البقرة: 142–144 — 74
البقرة: 163–164 — 31
البقرة: 165 — 31، 32
البقرة: 170 — 75
البقرة: 186 — 16
البقرة: 201 — 28
البقرة: 216 — 97
البقرة: 256 — 1، 6، 155
البقرة: 257 — 120
البقرة: 264 — 21
البقرة: 268 — 10
البقرة: 285 — 63، 146

## آل عمران

آل عمران: 8 — 160
آل عمران: 28 — 124
آل عمران: 31 — 34
آل عمران: 31–32 — 36
آل عمران: 102 — 29، 162
آل عمران: 118 — 125
آل عمران: 173–175 — 41

آل عمران: 175 — 16

## النساء

النساء: 48 — 7، 166
النساء: 59 — 64، 78
النساء: 60–65 — 89
النساء: 65 — 47، 89، 147
النساء: 80 — 57
النساء: 110 — 154
النساء: 135 — 110، 140
النساء: 138–139 — 125

## المائدة

المائدة: 7 — 93
المائدة: 8 — 109، 139
المائدة: 48–50 — 85
المائدة: 51 — 126
المائدة: 54 — 33، 34
المائدة: 55–56 — 121
المائدة: 90–91 — 107
المائدة: 100 — 105

## الأنعام

الأنعام: 79 — 1، 8، 9، 25
الأنعام: 114–115 — 83
الأنعام: 161–163 — 3، 25
الأنعام: 162 — 1، 15
الأنعام: 163 — 155

## الأعراف

الأعراف: 3 — 72

الأعراف: 12 — 60

الأعراف: 56 — 41

الأعراف: 157 — 37، 105

الأعراف: 175-176 — 116

الأعراف: 180 — 33

الأعراف: 200 — 11

الأعراف: 201 — 11

## الأنفال

الأنفال: 24 — 60

## التوبة

التوبة: 24 — 28، 49، 148

التوبة: 31 — 68

التوبة: 40 — 42

التوبة: 46 — 97

التوبة: 58 — 45

التوبة: 59 — 45

التوبة: 71 — 122

التوبة: 114 — 129

التوبة: 118 — 158

التوبة: 119 — 158

## يونس

يونس: 22 — 14

يونس: 23 — 14

## هود

هود: 6 — 43

هود: 123 — 164

## يوسف

يوسف: 23 — 151

يوسف: 33 — 151

يوسف: 39–40 — 83

يوسف: 86 — 92

يوسف: 101 — 29

## إبراهيم

إبراهيم: 22 — 10، 164

## النحل

النحل: 36 — 6

النحل: 43 — 67، 79

النحل: 53 — 32

النحل: 90 — 106

النحل: 116 — 85

النحل: 125 — 111

## الإسراء

الإسراء: 9 — 76

## الكهف

الكهف: 13–14 — 151

الكهف: 16 — 152

الكهف: 110 — 19

## مريم

مريم: 42 — 7

مريم: 42–43 — 129

## طه

طه: 72 — 150

## الأنبياء

الأنبياء: 66 — 7

الأنبياء: 68–69 — 8

## النور

النور: 22 — 102

النور: 37 — 28

النور: 51 — 91، 146

## الفرقان

الفرقان: 23 — 163

الفرقان: 43 — 114

## الشعراء

الشعراء: 88–89 — 163

## القصص

القصص: 18 — 41

القصص: 50 — 115

القصص: 56 — 101، 130

القصص: 77 — 26

## العنكبوت

العنكبوت: 8 — 66

العنكبوت: 13 — 69

العنكبوت: 60 — 43

## الروم

الروم: 30 — 8

## لقمان

لقمان: 13 — 7

لقمان: 15 — 66، 137

لقمان: 22 — 25، 155

## السجدة

السجدة: 16 — 40

## الأحزاب

الأحزاب: 6 — 38

الأحزاب: 21 — 39، 58

الأحزاب: 36 — 46، 63، 91، 144

## فاطر

فاطر: 6 — 2، 10

## يس

يس: 60-61 — 10

## الصافات

الصافات: 102 — 49

الصافات: 103-107 — 50

## ص

ص: 26 — 115

## الزمر

الزمر: 2–3 — 19

الزمر: 18 — 110

الزمر: 53 — 42

الزمر: 54 — 154

الزمر: 55 — 73

## غافر

غافر: 28 — 152

غافر: 45 — 153

غافر: 60 — 14

## فصلت

فصلت: 30 — 160

## الشورى

الشورى: 10 — 78

الشورى: 21 — 87

## الزخرف

الزخرف: 27 — 9

## الجاثية

الجاثية: 18 — 132

الجاثية: 23 — 114

## الحجرات

الحجرات: 6 — 81

الحجرات: 7–8 — 95

الحجرات: 10 — 100

## الذاريات

الذاريات: 56 — 1، 4

الذاريات: 57–58 — 4

## المجادلة

المجادلة: 22 — 128

## الحشر

الحشر: 18 — 30

## الممتحنة

الممتحنة: 1 — 126

الممتحنة: 2–3 — 127

الممتحنة: 4 — 129

الممتحنة: 8–9 — 101، 136

## الجمعة

الجمعة: 10 — 27

## المنافقون

المنافقون: 9 — 51

## التغابن

التغابن: 14–15 — 50

## الطلاق

الطلاق: 3 — 16، 43

## الملك

الملك: 15 — 5، 27

## الجن

الجن: 18 — 15

## القيامة

القيامة: 14–15 — 117

## الإنسان

الإنسان: 9 — 22

## البينة

البينة: 5 — 19

## الماعون

الماعون: 4–6 — 20

## الكوثر

**الكوثر: 2 — 15**

## فهرس الأحاديث والآثار

«أتشفع في حد من حدود الله؟» ..... 141
«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» ..... 142
«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» ..... 161
«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» ..... 43
«إذا حكم الحاكمُ فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم...» ..... 81
«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو...» ..... 15، 43
«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة...» ..... 29
«اسقِ يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» ..... 90
«الدعاء هو العبادة» ..... 14
«اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا...» ..... 29
«المرء مع من أحب» ..... 39، 104
«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه» ..... 141
«أما إنه صدقك وهو كذوب» ..... 111
«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه،...» ..... 68
«أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» ..... 157
«أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطر، وأُصلّي وأرقد،...» ..... 57
«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني» ..... 41
«إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا...» ..... 123
«إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من...» ..... 84، 106
«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا...» ..... 47
«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ..... 24
«إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» ..... 122
«أنتم أعلم بأمر دنياكم» ..... 112
«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» ..... 103، 140
«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد،...» ..... 159

«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى...» ..... 26
«إنما الأعمال بالخواتيم» ..... 162
«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» ..... 19، 156
«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى...» ..... 156
«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك...» .. 98
«بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول...» ..... 74
«تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة؛ إن أُعطي رضي، وإن لم...» ..... 51، 115
«تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم...» ..... 51، 115
«تلك عاجل بشرى المؤمن» ..... 22
«ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد بهن حلاوةَ الإيمان: أن يكون الله ورسوله...» ..... 96
«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ...» ..... 33
«حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» ..... 117
«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا» ..... 45، 91
«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية؛...» ..... 64
«فإنك مع من أحببت» ..... 38
«فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم...» 58
«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا...» ..... 20
«قل آمنت بالله، ثم استقم» ..... 160
«قوموا فانحروا ثم احلقوا» ..... 61
«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: يا رسول الله، ومن...» ..... 60
«لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» ..... 38
«لا تكونوا إمعةً، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن...» ..... 149
«لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله» ..... 100
«لا يُصلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظة» ..... 80
«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» ..... 42، 162
«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» ..... 162

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» ..... 37
«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ..... 103
«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا...» ..... 133
«لعن الله من ذبح لغير الله» ..... 15
«لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» ..... 103، 150
«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو...» ..... 43
«لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة» ..... 149
«لو دخلوها ما خرجوا منها؛ إنما الطاعة في المعروف» ..... 65
«لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع» ..... 134
«ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده،...» ..... 26
«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» ..... 42
«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو...» ..... 122
«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» ..... 57، 78
«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس...» ..... 52
«من تشبَّه بقوم فهو منهم» ..... 133
«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم...» ..... 108
«من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به» ..... 23
«من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده...» ..... 48
«من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة...» ..... 138
«نعم، صِلِي أمك» ..... 102، 137
«واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني...» ..... 135
«وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» ..... 9
«وصلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي» ..... 57
«وفي بضع أحدكم صدقة» ..... 26
«وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتابَ الله» ..... 73
«ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل» ..... 21

«وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال...» ..... 35
«وماذا أعددت لها؟» ..... 130
«يا رسول الله، تأمرني؟» ..... 66
«يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك،...» ..... 15
«يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على...» ..... 6
«يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» ..... 159، 164
«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد... فإن...» ..... 11

# سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية

**سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية

- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس